جامعة اليرموك

كلية الآثار و الانثروبولوجيا

قسم الآثار

تحصينات مدينة الجزائر في العهد العثماني، نماذج مختارة، دراسة أثرية ميدانية

The Fortifications of Algiers under Ottoman, Selected Samples, Archaeological Field Study

إشراف: أ.د صالح خالد ساري

إعداد: فضيلة حمزاوي

2006

تحصينات مدينة الجزائر في العهد العثماني نماذج مختارة، دراسة أثرية ميدانية

The Fortifications of Algiers under Ottoman, Selected Samples, Archaeological Field Study.

إعداد:

فضيلة حمزاوي

بكالوريوس آثار إسلامية- جامعة الجزائر 2000

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الآثار الإسلامية بكلية الآثار و الانثروبولوجيا

جامعة اليرموك. 2006

لجنة المناقشة

أ.د صالح خالد ساري.............................. مشرفا و رئيسا

أ.د زيدان كفافي..............................عضوا

أ.د عبد الجليل عمرو..............................عضوا

د. لمياء سالم الخوري..............................عضوا

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

صدق الله العظيم

الآية 126: سورة البقرة

الإهداء:

إلى والدي العزيزين رمز العطاء و المحبة

إلى زوجي و رفيق دربي كريم

إلى والدي كريم لمساندتهم الدائمة

إلى جميع إخوتي و أخواتي

شكر و تقدير

الحمد و الشكر لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على نبي الهدى و من سار على نهجه و اتبع هداه.

أتوجه بخالص الشكر و العرفان إلى الدكتور صالح ساري لما بذله من جهد في إشرافه على هذه الرسالة و ما أبداه من حرص و عناية على أن تخرج الدراسة بالشكل المؤمل لها أن تكون، فله كل التقدير.

كما لا يسعني الآ أن أتقدم بالشكر للدكتور زيدون المحيسن على اشتراكه في الإشراف و قراءة الرسالة و تصحيحها كما نأسف لعدم حضوره المناقشة لسفره خارج الأردن. و كلي امتنان لأعضاء لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور زيدان كفافي، و الدكتورة لمياء الخوري، و الأستاذ الدكتور عبد الجليل عمرو على تفضلهم بالموافقة لمناقشة الرسالة.

لا أنسى كذلك الدكتور بويحياوي عز الدين و زوجته الدكتورة بويحياوي نجية من جامعة الجزائر على مد يد المساعدة لي بالوثائق و الخرائط القديمة و كذا النصائح و التوجيهات.

و لا يسعني إلا أن أقدم شكري و امتناني لزوجي الذي شاركني العمل في زياراتي للمواقع الأثرية. كما لا أنسى الأستاذ علي العمري لمساعدته و مد يد العون لي في رسم المخططات ليضع هذه الرسالة في المسار الصحيح، و شكر الأستاذ يوسف الزعبي و كل أسرة كلية الآثار أساتذة و إداريين و من ساهم في انجاز هذا البحث من قريب أو بعيد دون أن أنسى الزميلة ميسون ابداح و ما أمدتني به من عون خلال تواجدي بالأردن.

أسأل الله أن يمدنا بالعون الدائم لكتابة البعض عن تاريخ أمتنا و نفض الغبار عن أمجادها و الحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

الصفحة

قائمة الخرائط

قائمة المخططات

قائمة اللوحات

قائمة الصور

قائمة الأشكال

قائمة الجداول

قائمة المختصرات

ب. ت: بدون تاريخ.

R.A: Revue Africaine.

O.P.U: Office de Publication Universitaire.

E.P.A.U.: Ecole Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme.

الملخص بالعربية

جاء البحث تحت عنوان " تحصينات مدينة الجزائر إبان الحكم العثماني، نماذج مختارة دراسة أثرية ميدانية" و قد اشتمل على مقدمة و أربعة فصول.

تضمنت المقدمة الأوضاع التاريخية التي كانت سائدة في شمال إفريقيا عامة و الجزائر خاصة، و حالة المخاض الذي مرت به إلى قيام دولة العثمانيين بها و تحولها إلى عاصمة مهمة. شهدت هذه الفترة مرحلة خطيرة من الحملات الصليبية على المنطقة استمرارا لحملة تحطيم الأندلس، فظهرت المدينة على مسرح الأحداث لما لها من أهمية إستراتيجية و أضحت مدينة الجهاد ضد الصليبيين عندما اتخذت من البحر منطلقا لها حيث زادت قوتها البحرية بازدهار تجارتها، مما زاد أطماع العدو فيها.

ثم استعرضت الدراسات السابقة لموضوع التحصينات الدفاعية لمدينة الجزائر سواء العربية أو الأجنبية. لكن لاحظت الباحثة أنها كانت تاريخية أكثر منها دراسة أثرية معمارية، اكتفي فيها ذكر تاريخ البناء و بعض التفاصيل و هي تفتقر للوصف الدقيق.

تطرقت الباحثة بعدها إلى منهجية البحث المتبعة حيث استهلت بمنهج تاريخي يدرس ظروف نشأة المدينة و تسميتها و موقعها ثم التطرق إلى الفترة العثمانية و الأوضاع التي كانت سائدة بها السياسية و الاقتصادية و العسكرية. هذه الأخيرة التي ركز عليها بإبراز المقومات الدفاعية للمدينة عامة مع دراسة ميدانية لواقع الأبراج و الحصون اليوم و توثيق ما اشتملت عليه من عناصر دفاعية من خنادق و بوابات و فتحات للمدفعية و غرف و مرافق الحياة بداخلها و آبار المياه مع دراسة مادة و طريقة البناء و أرفق البحث بالصور و المخططات.

الفصل الأول: و اشتمل على مبحثين رئيسيين هما: أسباب نشأة المدينة و أصول تسميتها و موقعها الجغرافي و تكوينها الجيولوجي، و أثر موضع المدينة في التخطيط و تطورها التاريخي إلى أن أصبحت عاصمة للأيالة العثمانية بشمال إفريقيا. و كمدخل للموضوع كان من الواجب التعريف

بمعنى التحصين و أهميته الكبيرة مما جعل الفقهاء يصنفونه ضمن العمل الواجب على جميع الناس في ظروف الحرب.

الفصل الثاني: تناولت فيه أسباب الحملات الأوربية الشرسة على المدينة و ردة فعل الجزائريين اتجاهها من خلال المباني الدفاعية التي تبنوها للوقوف أمام محاولات العدو المتكررة و أبرزت أنواع الأبراج حسب توزيعها فمنها ما كانت على البحر كبرج تامنتفوست و برج الكيفان و منها ما كانت على الجبل كحصن الإمبراطور. و قد جاءت و فقا لأهميتها الإستراتيجية حيث انفرد الميناء بكثرة التحصين و اصطفت فيه أجمل و أقوى الحصون و المدافع.

الفصل الثالث: و جاء بعنوان النماذج المختارة للدراسة الأثرية الميدانية، حيث اختارت الباحثة أربعة منها لا تزال قائمة و درستها كل على حدا بداية من دوافع اختيارها و دلالتها التاريخية و بناءها إلى الوصف الخارجي و الداخلي للتعريف بمعالمها الأصلية و المستحدثة و الإشارة إلى أنواع الدمار الذي لحق بها.

الفصل الرابع: جاء بعنوان العناصر المعمارية و الزخرفية، و بالرغم من أن هذه المباني ذات طابع حربي و جاءت في ظروف صعبة إلا أنها أفادت في تطوير نمط معماري مميز و عناصر معمارية صارت خاصة بالأبراج و القلاع و الحصون في المدينة حيث روعيت الدقة في اختيار مواقعها كما استغلت المواد المتوفرة بالطبيعة للبناء.

أما العناصر الزخرفية فقد ظهرت قليلة بالمقارنة مع حجم المباني الدفاعية و عددها و لعل ذلك راجع إلى الهدف الذي بنيت لأجله.

و في الأخير ارتأت الباحثة إبراز الخصائص المشتركة بين هذه المباني و مدى أهميتها و صمودها كل هذه المرحلة من تاريخ عاصمة الجزائر.

الكلمات المفتاحية: التحصينات الدفاعية، مدينة الجزائر، العهد العثماني، برج تامنتفوست، حصن الإمبراطور، برج الكيفان، برج مرسى الدبان الجديد.

Abstract

The Fortifications of Algiers under Ottoman, Selected Samples, Archaeological Field Study

This research includes an introduction and four chapters. The introduction examines the deteriorated historical situation prevailing in North Africa in general and in Algiers in particular until the establishments of the ottoman state which help change it into an important city. This time witnessed the crusaders military campaigns against the region in continuation with the destroying expeditions against Al- Andalus.

Algiers occupied a remarkable role in the events stage due to its strategic significance and soon became the city of jihad taking from the Mediterranean a starting point depending on its ever increasing fleet which flourished more and more by trade.

The researcher examined the literature review of both the Arabic and non-Arabic resources, she noted that it was historical rather than an architectural and archeological. The researcher adopted the historical methodology, where she discussed the emergence of the city, its name, geographical location and the political, economic and militaristic situation under the ottomans. The researcher focused on the defensive elements of the city along with in-situ study of the towers, castles, gates, walls, reservoirs and other utilities examining the materials of structure enhanced with plans and pictures.

Chapter one presents the main topics: the establishment of the city and the origin of its name in addition to its location, its geological structure, and the impact of its specific standing point in its planning and its historical development until it became the main city of the ottoman state in North Africa.

Chapter two tackles the factors of the aggressive European campaigns and the reactions of the Algerians by building the defensive fortifications against the reiterated attacks of the Franks. The towers are classified in two groups: those overlooking the sea such as Tamentfoust, Borj Kiffan and those over the mountains such as Emperor Castle.

Chapter three talks about selected samples for the archeological field study, the researcher chose four of them that are still standing examining each one independently in details.

Chapter four is on the decoration and architectural elements. Although the buildings were militaristic in form and function, which were constructed in times of war, they helped in introducing and developing a distinguished architectural decorated type, which became the main characteristics of the city.

The decorative elements were rarely used in comparison with the volume and number of the defensive buildings, which could be interpreted for the purpose of what these building were constructed for.

Finally, the researcher presents an in depth study of the common characteristics of these buildings and their significance.

Key Words: Defensive Fortifications, Algiers, Ottoman Period, Tamentfoust Tower, Emperor Castle, Burj El-Kiffan, Burj Marssa Debban Jdid.

المقدمة

لم تكن أوضاع شمال إفريقيا مستقرة في نهاية القرن 15م، فبعد سقوط الدولة الموحدية تجزأت المنطقة إلى ثلاث دويلات كل واحدة تدعي أنها الوريث الشرعي للموحدين، فكانت الدولة المرينية في فاس و الدولة الحفصية في تونس و الزيانية في تلمسان عاصمة المغرب الأوسط. و كان الحكم في مد و جزر حيث أخذت كل منها تهاجم الأخرى مما زاد تفسخها و انقسامها إلى مناطق يحكمها شيوخ قبائل. أما الزيانيون فقد احتفظوا بسلطتهم على تلمسان بصعوبة كبيرة، بينما كونت بقية المدن الساحلية من جربه إلى المغرب شبه جمهوريات مستقلة بفضل نشاط موانئها التجارية، فأصبحت تسير وفق نظام خاص بها. و جهزت كل من بجاية، و الجزائر، و وهران و هنين مراكب و سفنا تجوب البحر المتوسط. لكن زادت الأمور سوءا بعد سقوط مملكة غرناطة بتاريخ الثاني من كانون الثاني من سنة 898 هـ\1492م على يد الأسبان حيث بدأت مطاردة المسلمين في الأندلس كلها و مصادرة أملاكهم و إجبارهم على الردة أو الخروج من اسبانيا إلى شمال إفريقيا. كان على رأس هذه الحملة الملكة إيزابيل و الكاردينال اكزيمناس (Ximenes).

كنتيجة لهذه الهجرات ازدهرت مدن الساحل الجزائري من جديد بعدما قضت الصراعات و الحروب عليها، و من بينها ظهرت كل من: هنين، و مزغران، و مستغانم، و شرشال و القل كما زاد اتساع مدن كل من: وهران، و الجزائر، و دلس، و بجاية و عنابة حيث ازدهرت الصناعة بعدما نقل أهالي الأندلس إليها التقنيات و الحرف و التجارة بأنواعها أهمها التجارة البحرية فزادت خبرتهم بفن الملاحة و تعلموا صناعة السفن و تسليحها للحفاظ على تجارتهم من الأطماع و القرصنة الأوربية السائدة آنذاك (الجيلالي ج2،1994: 183-186). و بينما كانت تجارة المدن الجزائرية تزدهر تعرضت التجارة الايطالية و الفرنسية و الأسبانية و مدنهم الساحلية للخراب و الخسارة بعدما كانت اتفاقيات تجارية قائمة بينهم منذ 300 سنة (De Grammont 2002: 28).

يذكر ابن خلدون في هذا الصدد أن البحر المتوسط لم يخل يوما من التجارة البحرية، ففي عام 1364م، كانت مدينة بجاية لوحدها و سكانها قد نالوا شهرة واسعة من هذا العمل. كما ينقل دي غرامونت عن المؤرخ الاسباني القديم سوارز مونتاناز (Suarez Montanez) أن :" عمل سكان هذه المنطقة في هذا المجال منذ فترة طويلة و بطرد مسلمي الأندلس نالت هذه التجارة شهرة أكبر في كل الموانئ الصغيرة التي شهدتها الهجرة، فقد قام هؤلاء بتجهيز السفن و تسليحها جيدا لتنطلق في البحر و تحتجز السفن المسيحية و تغنمها. كما نزلوا مرات عدة على الأراضي

المسيحية، فثار سكان هذه المناطق على اسبانيا و امتنعوا عن دفع الضرائب لها (De Grammont 2002: 29).

في ضوء هذه التطورات ظهرت الجزائر على مسرح الأحداث بحكم موقعها المهم و تعرضها للمحاولات الاستعمارية من طرف اسبانيا و غيرها من الدول الأوربية تحت راية البابا في روما معلنة حربا صليبية. فانطلقت في نهاية صيف 1505، حملة باتجاه المرسى الكبير بوهران و اصطدمت الحملة بمقاومة عنيفة غير أنها انتهت لصالح الصليبيين. و كان أول ما قام به قائد الحملة "دون دييغو" (Don Diego) هو تحويل المسجد إلى كنيسة و إعادة تحصين المدينة. تهاوت بعدها مدن الجزائر الواحدة تلو الأخرى فكانت وهران سنة 1509، و بجاية عام 1510م و مستغانم عام 1511م و لم تحل سنة 1515م الآ و كانت اسبانيا قد احتلت معظم الأراضي بإفريقيا من مليلة إلى بجاية و طرابلس وتبع ذلك تدمير مهول للمدن و موانئها و أبادت الكثير من أهاليها (Gramaye 1998: 55).

سمعت بقية المناطق الجزائرية بانتصار الأسبان و تفوقهم و خوفا من تدمير ما تبقى، ارتأى شيوخ هذه المناطق الخضوع و الولاء لاسبانيا لعدم استعدادهم لمجابهة هذه القوة الشرسة. فقام وفد من مشايخ كل من التنس، و دلس، و شرشال، و مستغانم و الجزائر بالتفاوض مع الأسبان و انتهى ذلك بإبرام معاهدة جائرة في حق الجزائريين ترمي إلى تحكم الأسبان في كل المدن و الموانئ خاصة مدينة الجزائر التي تعد المدينة الحيوية للتجارة البحرية، حيث شيد المستعمر حصنا منيعا على إحدى الجزر الثلاثة الكبرى المقابلة للمدينة على بعد 300م من الميناء أطلق عليه اسم حصن الصخرة (البنيون) للتحكم فيها و في سفنها.

أصبحت المدينة محاصرة وباتت تحت رحمة مدفعية العدو مما سبب شللا في الحركة الاقتصادية حيث منعت السفن الجزائرية من ركوب البحر لترك المجال للقرصنة الأوربية. نتيجة لذلك ضاق أهالي المدينة بهذا الاتفاق الذي لم يخدم سوى مصالح العدو، و أصبح الحصن شوكة في قلب كل جزائري حر فزادت شكاوى السكان لشيخ المدينة سليم التومي. استعان هذا الأخير بالأخوين عروج و خير الدين بارباروس اللذان عرفا بشجاعتهما و مجابهتهما لأعداء الإسلام فاستنجد بهما لطرد المحتل و تحرير المدينة من طغيانهم، و تم ذلك سنة 1516م ليصبح هذا العام عام تحول كبير لمدينة الجزائر و تاريخها السياسي و العسكري بالمنطقة (Gramaye 1998: 61).

أمام هذا التغير السريع في الأحداث، نهض الشعب الجزائري لمقاومة الاستعمار و رفع راية الجهاد في المنطقة كلها خاصة أن نوايا الأسبان أصبحت واضحة للجميع وهو إخضاع شمال إفريقيا كلها و اجتثاث الإسلام وفقا لوصية الملكة إيزابيل (De Grammont 2002: 28).

بعد استنجاد الجزائريين بالأتراك و اتخاذ مدينة الجزائر عاصمة للدولة الجديدة الناشئة أطلق عليها اسم دار الجهاد و ظل كذلك على مدى ثلاثة قرون و نيف، من سنة 1516م إلى 1830م حيث تبنى فيها الجزائريون نظاما دفاعيا قويا خاصة مع تطور سلاح المدفع و اتخذوا من القلاع و الحصون و الأبراج و الأسوار و الخنادق و الأبواب و الموانئ المحصنة نقاطا متقدمة للدفاع عن الوطن.

أهداف الدراسة

إن اختيار الباحثة لهذا الموضوع راجع أساسا إلى الأسباب المذكورة في المقدمة حيث ارتأيت ضرورة إبراز ردة فعل الجزائريين إزاء الأوضاع و تبني نظاما دفاعيا قويا مكنهم من صد الهجمات الاستعمارية على مدى ثلاثة قرون كاملة و كيف نقلت هذه التغيرات المدينة من مدينة عادية إلى مدينة تتحكم في البحر المتوسط.

كما سأحاول إلقاء الضوء على أهمية المعالم الدفاعية بالمدينة، و التعريف بأثار مدينة الجزائر كمدينة إسلامية لها طابعها الخاص بالرغم من التحول العمراني الذي شهدته بعد الاحتلال الذي أزال أجزاء كبيرة منها في محاولة لطمس هويتها و انتصاراتها. أضف إلى هذا، محاولة وضع حد لتضارب الآراء حول نجاعة أبراجها و حصونها و إبراز نمط البناء و التخطيط الدفاعي لتفنيد ما قيل عن المدينة بعدم مضاهاتها لبعض مدن شمال إفريقيا آنذاك.

أهمية الدراسة

تحاول الباحثة من خلال هذه الدراسة توثيق و لفت الانتباه إلى الإرث الحضاري و التاريخي لمدينة الجزائر خاصة في ظل التحولات العمرانية الكبيرة التي تشهدها، و الإهمال الذي تعانيه بعض المواقع الأثرية نتيجة عدة عوامل طبيعية و بشرية على حد سواء، بالإضافة إلى محاولة المساهمة لإرجاع الأهمية الأثرية و التاريخية للمدينة و المنطقة ككل لكون المكانة التي تحتلها المدينة آنذاك و اليوم و ستنعكس هذه الدراسة إيجابا لترميم المواقع و الحث على الحفاظ عليها. أما فيما يخص أهمية البحث بالنسبة للأردن فسيكون اللبنة الأولى للتعريف عن بعض آثار و تاريخ المدينة و ربما المساهمة و لو بالقليل في إثراء المكتبة الأردنية حول مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية و التعريف بالمكانة التي كانت تحتلها آنذاك بين دول شمال إفريقيا و الدول الأوربية.

الدراسات السابقة

لقد تمت دراسة مدينة الجزائر كثيرا من الناحية التاريخية في هذه الفترة من طرف الأجانب و ركزوا كثيرا عن العلاقات الدبلوماسية و السياسية و الاقتصادية التي كانت قائمة بينها إلى جانب مواضيع المراسلات حول الأسرى و تاريخ حكام مدينة الجزائر. أما حول موضوع البحث فكانت الإشارة إليه من خلال تقارير القادة العسكريين و الجواسيس و بعض الأساقفة المدسوسين بالمدينة و قد اعتمدتها في البحث و اندهشت من الحقائق المتضاربة و غير الموضوعية مما زادني حرصا على ضرورة الغوص في الموضوع.

الدراسات العربية:

اعتمدت الباحثة على مجموعة من الأدبيات و الخرائط و الصور القديمة والمقالات والمخططات التي عالجت الموضوع بشكل مباشر أو غير مباشر. من بينها أذكر:

الحسن بن محمد الوزاني الزياتي، حيث وصف المدينة وصفا دقيقا و مفصلا عن عوامل تطورها الاقتصادية و العسكرية في كتابه: (وصف افريقية، روما، 1526م). و كان هذا الكتاب باللغة الايطالية و ترجم إلى عدة لغات و حقق. عرف المؤلف باسم الأسد الإفريقي و جاء في وصفه: "... لها أسوار عظيمة و في منتهى المناعة، مبنية بالحجارة .... سلحوا أسطولا للقرصنة، أغاروا به على جزر يابسة و مايرقة و مينورقة و حتى السواحل الأسبانية لهذا أرسل الملك فرديناند الكاثوليكي أسطولا لمحاصرة الجزائر... بنى هذا الأسطول أمام المدينة برجا عظيما يمكن منه إصابة كل جزء من أسوار المدينة ... ". يعتبر هذا المرجع من أهم المؤلفات التي يعتمدها مؤرخو هذه الفترة.

و تعد الأبحاث التي أنجزها الجزائريون في هذا الموضوع قليلة منها: كتاب **مولاي بلحميسي:** "**Alger la Ville au mille canons**" حيث خصص الباحث فصلا منه لتحصينات المدينة بشكل مختصر معتمدا على ما ورد في المؤلفات الأجنبية. و عالج **مولود قايد** في كتابه الظروف السياسية للمدينة ونظام الحكم فيها من خلال فصل كامل أيضا و عنوان الكتاب: "**L'Algérie sous les turcs**".

أما **علي خلاصي** فيعد كتابه "العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر" أكثر تخصصا حيث تطرق إلى نظام الجيش و رتبه و مجلس الحكم و الحكام الذين حكموا المدينة. تطرق بعدها إلى

المباني العثمانية من منازل و قصور و مدارس و مساجد و حمامات، ثم الأسطول البحري الجزائري و وحداته و تسليحه و الميناء ثم ذكر تحصينات المدينة معتمدا أيضا على ما ورد في المؤلفات الأجنبية. و قد ساعدني على معرفة بعض العناصر التي لم أتمكن من زيارتها لوقوعها حاليا تحت إدارة وزارة الدفاع، أو التي اندثرت منذ ذلك الوقت لأسباب عدة، أو تحويلها عن أصلها.

و من الدراسات الحديثة ما تقدمت به الباحثة بويحياوي نجية في رسالة ماجستير قدمت سنة 1997 إلى المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية تحت عنوان: " **Le Port d'Alger en 1830: essai de reconstitution**" حيث تعرضت إلى تحصينات المدينة عامة و الميناء خاصة و أهميته في حماية مدينة الجزائر و دوره الفعال في صد هجمات الأسبان و حلفائهم على مر الفترات التاريخية الحرجة التي عاشتها الجزائر.

أما كتاب سكينة ميسوم الصادر سنة 2003 عن : " **Alger a l'époque Ottomane, La medina et la maison traditionnelle**" فتطرقت في فصل منه إلى تحصينات المدينة.

و نظرا لقلة هذه الدراسات و ما تزخر به المدينة من معالم مهمة ترجع للفترة العثمانية ارتأت الباحثة دراسة الموضوع بتعمق أكبر و بأدق تفاصيله وفق ما توفر لدى الباحثة من إمكانات و تسهيلات.

الدراسات الأجنبية:

كما سبق ذكره فان معظم المؤلفات مكتوبة باللغة الفرنسية أو الاسبانية المترجمة أو الايطالية و التركية و تطرقت إلى المدينة أكثر من الناحية التاريخية، أما الأكثر تخصصا بالموضوع فكانت عبارة عن تقارير عسكرية قائمة على نزعة دينية لتبرير الحملات الهمجية على المدينة. كما جاءت في أغلبها تنتقص من أهمية التحصينات لتشجيع الطامعين على النيل منها لكن الواقع أظهر غير ذلك حيث انهزمت جيوش عدة على أسوار المدينة و أبراجها. و من أهم هذه المؤلفات:

ما كتبه المؤرخ الأسباني **مارمول كربخال**(Marmol Carvajal) الذي ألف كتابه سنة 979 هـ/1571م (إفريقيا) حيث وصف المدينة بدقة كبيرة و قد رافق حملة "شارل كانت" على المدينة سنة 1541م: "يسمي المسلمون هذه المدينة جزائر بني مزغانة و هي من بناء البربر المعروفين بهذا الاسم... و هي مدينة شهيرة منذ القدم أبدع الرومان في تزيينها و زادها الأتراك غنى بفضل ما

وقع في أيديهم من غنائم سلبوها من النصارى... و موقعها على سفح جبل عال: لها أسوار مرتفعة حصينة مبنية بالحجارة و تحيط بها خندق عميق... لها أربعة أبواب... و إحدى الجزر التي كانت بها قديما قلعة بنيون، و المرسى اليوم آمن و أكبر مما كان... قام صلاح ريس بربط الجزيرة بالبر بواسطة رصيف حاجز... ترتفع أسوارها فوق التلال ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد، في قمته قلعة... و من هنالك يصعد على التل إلى الحصن الذي بناه الأتراك... و قد جعلوا فيه أربعة مواقع محصنة و ثكنة... و بين القلعة و المدينة حصن آخر فيه حامية أخرى... ".

و منها أيضا كتاب: "**Diego de Haedo, Topographie et Histoire Générale D`Alger**" حيث قام هذا المؤلف بدراسة المدينة بشكل مفصل لا سيما المجال العسكري خلال زيارته لها ما بين سنة 1578-1581م حيث عاصر أحداثا كثيرة بها لكنه افتقر للموضوعية في أحيان كثيرة.

جاء في مقال منشور بالمجلة الإفريقية الصادرة باللغة الفرنسية تقرير أحد القادة العسكريين مفصلا فيه تحصينات المدينة لكن ظهر به تضارب في الآراء و تناقض حول قوة المعالم الدفاعية و جاء المقال معنونا: " **Les Fortifications D`Alger en 1767 décrites par l'Amiral Vénitien Angelo Emo**". شكك هذا القائد في نجاعة التحصينات الدفاعية و وصفها بالمتدهورة و يتضح تناقضه في الوصف جليا مع الأحداث التي كانت سائدة و المهمة التي جاء من أجلها إلى المدينة و عودته خائبا.

أما أهم المؤلفات كتاب الجاسوس بوتان(**Boutin**) الذي تمكن من رصد أدق التفاصيل عن المدينة و إمكانياتها العسكرية وذلك بوصفه لأهم الحصون الدفاعية والأسوار و مداخل المدينة ومخارجها و عدد الجنود، كما وصف أهم الموانئ و المرافئ الحيوية بها،ثم لم يكتف بهذا بل وضع مخططات لأهم الحصون وبين نقاط الضعف بها، و بالفعل ساهم كتابه في دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر سنة 1830. عنوان الكتاب هو: " **Boutin Vincent Yves, Reconnaissance des villes, Forts et batteries d`Alger.**"

أضف إلى هذا كتاب آخر أمدنا بصورة واضحة عن المدينة وأثرى كتب المؤرخين من بعده وهو كتاب: "**Devoulx Albert, Histoire D'Alger, 1870**". والكتاب عبارة عن مخطوط من 570 صفحة يضم دراسة تاريخية و أثرية و طبوغرافية للمدينة من أقدم الفترات إلى الفترة العثمانية، يضم أيضا مجموعة صور و مخططات قيمة. أعيد تحقيقه و نشره سنة 2003 من طرف بدر الدين بلقاضي و مصطفى بن حموش و هو الذي يتوفر لدينا.

Devoulx Albert, El Djazair, Histoire d'une Cité d'Icosium a Alger, Edition Critique, Alger, 2003.

و قد اعتمدت في هذا البحث أيضا على مجموعة مقالات هنري كلاين في أوراق جزائرية و التي نشر بها كل ما يخص مدينة الجزائر بما فيها المعالم الدفاعية كما استعنت بمجموعة أخرى لمختلف المؤلفين حول بعض الحصون في المجلة الإفريقية الصادرة باللغة الفرنسية.

و في الكتاب التالي يشير المؤلف إلى تاريخ المدينة منذ التواجد العثماني إلى سقوطه و كل إنجازاتهم السياسية و الاقتصادية و العسكرية.

Grammont Henri Delmas, Histoire D`Alger sous la Domination Turque, 1515-1830.

منهجية البحث

تضم هذه الدراسة أربعة فصول جاءت على النحو التالي:

الفصل الأول يحتوي على المعطيات التاريخية و الجغرافية للمدينة، فحاولت إعطاء نبذة تاريخية شاملة عن المدينة منذ نشأتها و أصل تسميتها إلى موقعها الجغرافي و تكوينها الجيولوجي، ثم تحدثت عن أثر الموضع في تخطيط المدينة و شروطه و أسس اختياره و ركزت أخيرا على تطورها خلال الحكم العثماني و كيف انتقلت من مدينة ثانوية كانت تحت سيطرة الزيانيين و الحفصيين و المرينيين إلى عاصمة للأيالة العثمانية في شمال إفريقيا و سيدة للبحر المتوسط.

و كان من الضروري أن أخصص الفصل الثاني لردة فعل القوى الاستعمارية إزاء هذا التحول الكبير و التطرق إلى أسباب الهجمات الاستعمارية على المدينة و دوافعهم المستمرة في محاولة تدميرها مستعينة بذلك بالمراجع و الدراسات السابقة لتاريخ المدينة و أوضاعها من خلال مراجع أجنبية و تقارير عسكرية عن الحملات. خلال سرد أهم الأسباب وجب التطرق أيضا إلى ردة فعل الشعب بدوره إزاء هذا التدخل و محاولات الاحتلال و ذلك بدراسة النظام الدفاعي الذي تبناه أبناء المدينة بداية من الميناء النواة الحية و القلب النابض بها، إلى التحصينات الواقعة خارج أسوار المدينة على امتداد كل الخليج الذي كانت تشن عبره هذه الهجمات. ظهرت قدرة البناء الجزائري في هذا المجال حيث استطاع بناء الأبراج وفق ما أملته عليه الظروف الحربية المتواصلة بما توفر لديه من إمكانات و مواد بناء دون الغلو و الترف لأن الأوضاع لم تكن مواتية لذلك. كما أشرت إلى كيفية التحكم في طبوغرافية المدينة حيث سخر لكل منطقة منها طريقة في البناء و تخطيطا معينا، لذلك وجدت تحصينات مختلفة الشكل و التخطيط.

أما الفصل الثالث فقد خصص لدراسة النماذج المختارة و هي: برج تامنتفوست و حصن الإمبراطور لما كان لموقعهما من أهمية كبرى للمدينة خاصة بعد حملة شارل كانت سنة 1541م و كيف فطن الجزائريون لهاتين الثغرتين. أما برج الكيفان فبني لتدعيم البرج الأول من الناحية الشرقية لخليج الجزائر و كان له الدور في صد احد الهجمات الاسبانية سنة 1775م و أخيرا اخترت أيضا برج رأس مرسى الذبان الجديد و بالرغم من تأخر بنائه مقارنة بالأبراج السابقة إلا انه بني للتصدي للحملة الفرنسية المتوقعة منذ 1823م و تدعيم أبراج هذه الجهة أي الغربية من خليج المدينة التي كانت أضعف النقاط الدفاعية بالمدينة. كما أنه من الأبراج التي لا تزال تحتفظ

بعناصرها المعمارية بالرغم من التحويلات العديدة لأقسامه الداخلية و كونه لم يحظ بالدراسات سابقا ما عدا ما ذكر عنه في التقارير و المقالات و كانت معلومات شحيحة جدا.

ارتبط بناء هذه الأبراج بمراحل تاريخية مهمة في تاريخ المدينة كان يتزايد فيه حقد الصليبيين باستمرار لما شهدته من تطور و ريادة في البحر المتوسط. و بالرغم من هذا التاريخ المشترك إلا أن هذه المعالم لم تلق الاهتمام الكبير كوحدة دفاعية ساهمت في صد الهجمات عن المدينة و ربط أهميتها ببعضها البعض، و ما ذكر عنها في المصادر القديمة لم يعطها حقها و كانت الإشارة إليها نوعا ما سطحية.

أضف إلى هذا فان هذه المعالم تتعرض باستمرار إلى عوامل تدميرية سواء طبيعية كالزلازل و الرطوبة و النباتات الطفيلية، أو بشرية قد تؤدي إلى زوالها إن لم يتم ترميم و تصنيف و حماية ما تبقى منها.

و قد اشتملت دراستها بداية من أسباب اختيارها من خلال الموقع و الأهمية الأثرية و المعمارية و قمت بدراستها دراسة شاملة من حيث التخطيط و العمارة و طريقة و مواد البناء و أقسام الأبراج الداخلية و مرافقها و أهميتها بالنسبة للمدينة، استعنت بما ورد في المراجع و التقارير العسكرية ثم انتقلت إلى الوصف الخارجي بكل تفاصيله الأصلية و المستحدثة، و بعدها قمت بالوصف الداخلي للأبراج و الحصون بمرافقها و ملحقاتها مع أخذ الصور و المخططات اللازمة لتدعيم البحث.

الفصل الرابع خصص لدراسة العناصر المعمارية بتنوعها و الزخرفية التي وجدت في هذه الأبراج مع التطرق إلى أسباب قلتها و بساطتها.

لقد واجهت بعض الصعوبات في العمل الميداني الشيء مما اضطرني لدراسة أربعة مواقع فقط. أهمها كون الكثير من المواقع التي لا تزال قائمة تدخل تحت سلطة وزارة الدفاع الوطني و التي لم أتمكن من دخولها و الموقع الوحيد الذي دخلته كان حصن الإمبراطور لكن عملي به كان مقيدا من حيث التصوير و أخذ القياسات لذلك رجعت إلى المخطط القديم الذي توفر لدي و اكتفيت بالوصف في حدود ما سمح به، مع مقارنة المعلومات المتوفرة من خلال المصادر. و في الأخير أرجو من الله عز و جل أن أكون وفقت في هذه الدراسة و أن تلقى القبول و الاستحسان و ما التوفيق إلا من عند الله.

الفصل الأول

المعطيات التاريخية و الجغرافية لمدينة الجزائر

المبحث الأول:

1. أصل تسمية المدينة و نشأتها التاريخية:

ظهر اسم مدينة الجزائر لأول مرة في التاريخ القديم تحت اسم "ايكوسيم" مع ظهور الفينيقيين على سواحل شمال إفريقيا نتيجة الهجمات التي شنها عليهم الآشوريون في موطنهم الأصلي فاضطروا إلى الهجرة و قاموا بتأسيس مدينة قرطا جنة في حدود سنة 814ق.م و التي ازدهرت كثيرا و أصبحت إمبراطورية عظيمة تنافس الإمبراطورية اليونانية و الرومانية فيما بعد (باقر 1955: 240).

بقدوم الفينيقيين إلى شمال إفريقيا أسسوا حوالي ثلاثة مائة مركزا ما بين مستودع تجاري و نحو مائتين مدينة من بينها مدينة الجزائر و كانت في بداياتها مرفأ بسيطا.

أصل التسمية "ايكوسيم" يوناني و يعني عدد عشرون و الاسم نفسه مركب من مقطعين: "أي" و معناه جزيرة و " كوسيم" و معناه شوك لتصبح "جزيرة الشوك" و فسرت بمعنى ثان كجزيرة الطيور غير الطاهرة. أما تفسير العدد عشرون فقد اعتمد في ذلك على الأسطورة المأخوذة عن المؤرخ اللاتيني صولان (Solon) الذي عاش في عام 250م و القائلة بأن: "هرقل الجبار ابن الإله جوبتر قام برحلة بحرية مع عشرين من رفاقه و اتخذ من المدينة مكان استراحة. لكن رفاقه لم يرغبوا في الرحيل و نزلوا إلى البر و اتخذوا من المكان مقرا لتجارتهم فأسسوا المدينة و أحاطوها بأسوار ظلت قائمة إلى عهد الاحتلال الروماني. و حتى لا يستأثر أحد باسم المدينة أطلقوا عليها اسم "ايكوسي" أي مدينة العشرين. (Azzouz 2000: 24). و من ايكوسيم أيضا ما يؤديه معنى اللفظ العربي لكلمة الجزائر و مفردها جزيرة و جزائر البحر سميت كذلك لانقطاعها عن معظم الأرض (الرازي 1981: 102).

وقعت مدينة ايكوسيم تحت السلطة الرومانية في فترة الاحتلال الروماني لشمال إفريقيا، فتغير اسمها إلى " ايكوزيوم" بعدما منحها الإمبراطور فسبا سيان (Vespatien) (69-79م) حق الأحياء اللاتينية في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد و انتشرت بها مساكن فخمة تحيط بها الخضرة و الأشجار(Le Glay 1968: 16-17). كان هذا الاسم يتلاءم مع لغتهم نطقا و كتابة لكن المعنى واحد بمعنى الجزيرة (حليمي 1972: 140).

و بمجيء الإسلام في القرن السابع الميلادي و مع الفتوحات الإسلامية تغيرت الكثير من النظم الاجتماعية و القوانين والتشريعات و أحدثوا ثورة حتى على أسماء الأشخاص و الأماكن و القبائل أيضا ليجردوا المنطقة من الماضي الاستعماري للغزاة (De Haedo 1998: 29). و سرعان ما فتح المسلمون أرض الجزائر أطلقوا عليها اسم "جزاير بني مزغنة" و سميت كذلك لما امتازت به بين المدن المجاورة لها من ظهور مجموعة من الصخور المنبسطة الشبيهة بالجزر الصغيرة على سطح البحر منتشرة بالقرب من المدينة و كان عددها كثيرا، لا يظهر منها سوى أربعة و هي أضخمها (الجيلالي 1970: 14) و التي أوصلها خير الدين فيما بعد برصيف يتصل بالمدينة طوله 220م. أما اسم مزغنة فنسبة للقبيلة البربرية الصنهاجية التي حطت رحالها بالمنطقة بعد أن قضى الو ندال على التواجد الروماني و البيزنطي بها، و عند الفتح العربي الإسلامي كانت القبيلة مستقرة هناك فأطلق عليها اسم "جزاير بني مزغنة" (Charles 1830: 253-254).

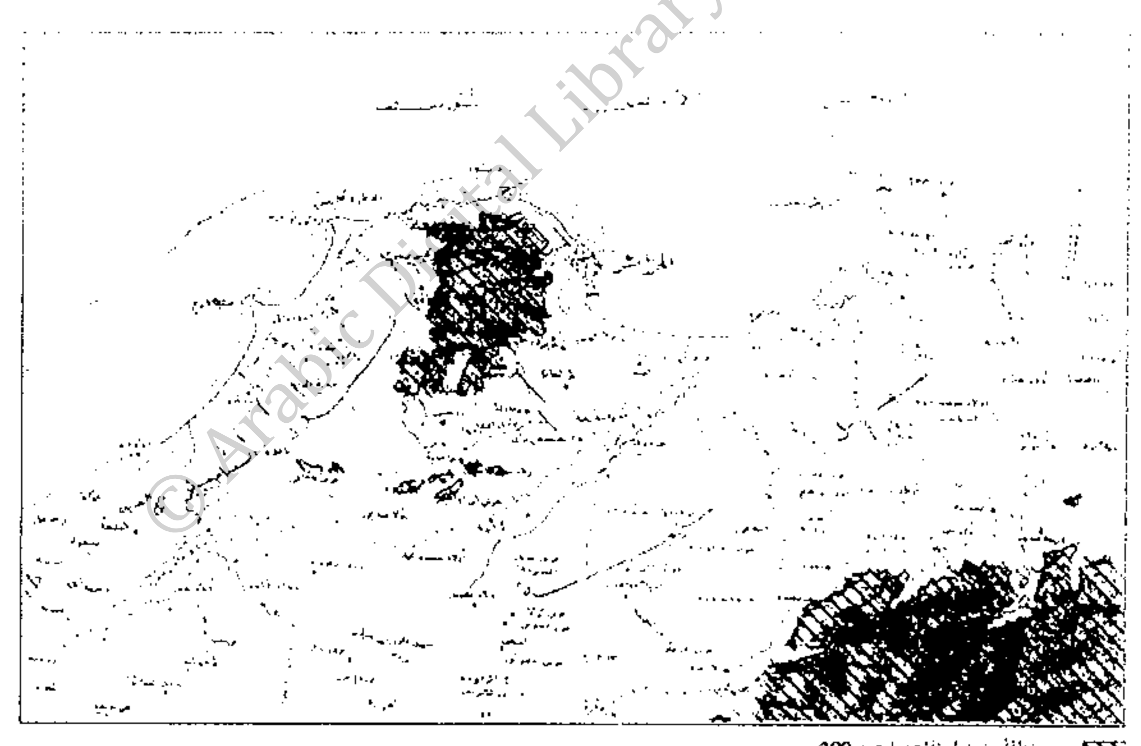
بقي اسم جزاير بني مزغنة متداولا على طول العصور الإسلامية إلى أن اضطربت الأوضاع في المغرب الأوسط بعد سقوط الدولة الموحدية و ظهور النزاعات على السلطة في شمال إفريقيا بين الزيانيين و الحفصيين و المرينيين فتدهورت أوضاع المدينة، إلى أن ظهرت أسرة الثعالبة من أعيان المدينة و استولوا على السلطة فيها. و أصبحت شبه جمهورية مستقلة تتخذ من ركوب البحر و الميناء رزقا لها، و عرفت خلالها باسم جزائر الثعالبة[1] كما بقي الاسم الأول متداولا و بقيت الأوضاع على حالها إلى أن بدأت تتعرض للمحاولات الاستعمارية من طرف الأسبان بعد احتلال مدن وهران و بجاية، ثم إقامة حصن البنون قبالة ميناء المدينة. استنجد على إثرها السكان بالأخوين عروج و خير الدين اللذان تصدا للأسبان بشجاعة و أسسوا دولة جديدة تابعة للسلطة العثمانية منذ 1516م (يفر المجلد السادس: 409-410).

ومنذ ذلك الحين أطلق على المدينة عديدة أسماء مرتبطة كلها بتاريخها الحافل بالبطولات فعرفها الشعراء باسم "البهجة" و "البيضاء" و لقبها المجاهدون "المحروسة من الله" و "المنصورة" و "جزائر المغازي" و "مدينة الحرب المقدسة" (Belhamissi 1990: 9) و لأهمية هذه المرحلة من تاريخ المدينة فقد خصصت الباحثة لها مبحثا مستقلا.

[1] الثعالبة قبيلة من العرب زحفوا إلى المغرب الإسلامي مع الحملة الهلالية و نسبهم يرجع إلى ثعلب بن علي بن بكر بن صغير استقروا بسهل متيجة وجبل تيطري ثم مدينة الجزائر و استقروا بها.(للتفصيل انظر ابن خلدون المجلد السادس)

2. الموقع الجغرافي و التكوين الجيولوجي:

تقع مدينة الجزائر على خط عرض 36.46ْ درجة شمالا و خط طول 3.3 درجة إلى الشرق من خط غرينتش و هي بذلك تقع في منطقة معتدلة على نحر البحر. ساعد الموقع الجغرافي على استقرار هذه المدينة و تطورها بحيث تعتبر نقطة اتصال و عبور برية و بحرية. فإقليم المدينة يمتد من شاطئ البحر المتوسط بجبل بوزريعة إلى جبال الأطلس البليدي، يحده شمالا البحر المتوسط و يحتضنه من الشرق وادي الحراش و من الغرب وادي ماء زعفران. و بذلك يمتد الإقليم في شكل طولي من الشمال إلى الجنوب ليشمل مظهرين طبيعيين مختلفين تماما أحدهما سهلي يتمثل في سهل متيجة إلى الجنوب من المدينة، و الآخر جبلي يتمثل في كتلة بوزريعة التي تعد الحامي الطبيعي و السور المنيع الذي حمى المدينة من الجهات الغربية وأعلى نقطة فيها 407م و هي القمة التي يمكن الإشراف عبرها على كل أحياء المدينة القديمة و الحديثة و حراسة ما يجاورها من البر و البحر على مسافات بعيدة (خريطة رقم 1).



خريطة رقم 1: خريطة طبيعية لإقليم مدينة الجزائر (حليمي 1972: 4)

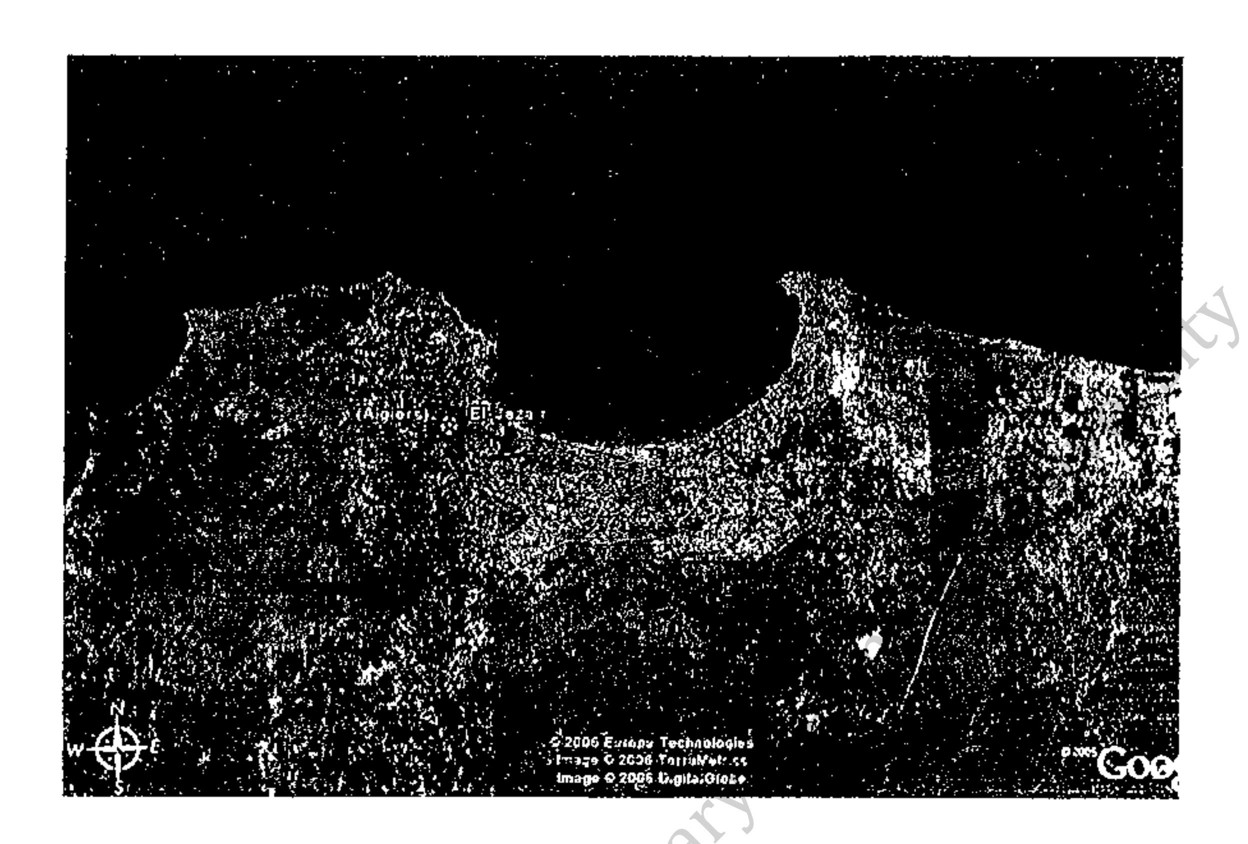
تحتل مدينة الجزائر النهاية الشرقية لجبل بوزريعة و هو ينتهي في الجهات الشرقية بعدة نتوءات صخرية منها ثلاثة رئيسية: فالنتؤ الأول يقع على ارتفاع 240 م فوق مستوى سطح البحر(حليمي 1972: 33-34، 41). النتؤ الثاني يرتفع إلى 216 م و على هذه القمة بني حصن الإمبراطور المشرف على المدينة، أما النتؤ الثالث فهو على ارتفاع 120م عن مستوى سطح البحر و هو كالمدرج ينحدر نحو الحي البحري و عليه أسست المدينة القديمة أو حي القصبة. تكوينات هذا السطح متداخلة من الشيست* الطيني و الشيست اللماع و الصخور الجيرية. كان لهذه الأخيرة دور في بناء المدينة حيث كانت المحاجر الرئيسية في عهد الأتراك لبناء المنازل و الميناء كما استعان الاحتلال الفرنسي بنفس المقلع و أسسوا برأس بيسكاد مصنعا للأسمنت أصبح الأجود لنقاوة الصخور الجيرية (حليمي 1972: 47).

يفصل النتؤات الثلاثة عن الكتلة الرئيسية لجبل بوزريعة وادي ابن الأزهر في الجهات العليا ووادي مغاسل في الجهات الوسطى أو ما يعرف بباب الوادي في الجهات السفلى و عليه فان موقع المدينة محصن تحصينا طبيعيا من كل الاتجاهات (Kaddache 1951: 3).

نشأ خليج المدينة نتيجة انكسار خسف بالمنطقة في أواخر الزمن الثالث و أدى هذا الانكسار إلى هبوط الخليج. استمرت هذه الحركة إلى مطلع الزمن الرابع و في هذه المرحلة تعرض سهل متيجة للهبوط كما استقرت جبال الأطلس و تلال الساحل الممتدة من شنوه إلى بوزريعة إلى التحديب النهائي. أدت انكسارات الخليج إلى صعوبة وجود ميناء طبيعي صالح حيث كان معرضا للرياح الشمالية و الشمالية الشرقية التي تدفع أمامها أمواجا كبيرة لا تساعد على رسو السفن مما اضطر الأتراك ثم الفرنسيين إلى بناء كاسرات الأمواج. يتخذ الخليج شكل قوس يمتد من رأس بيسكاد إلى رأس تامنتفوست المقابل للمدينة من الناحية الشرقية يبلغ طول الوتر فيه نحو 19 كلم، و قوسه الذي يمثل خط الشاطئ يبلغ 31 كلم (حليمي 1972: 47-49) (خريطة رقم 2).

---

* الشيست: هو من الصخور الرسوبية، من الكوارتز دقيق الحبيبات مدمج صلد(إبراهيم 1989: 174).



خريطة رقم 2: خليج مدينة الجزائر (Google earth)

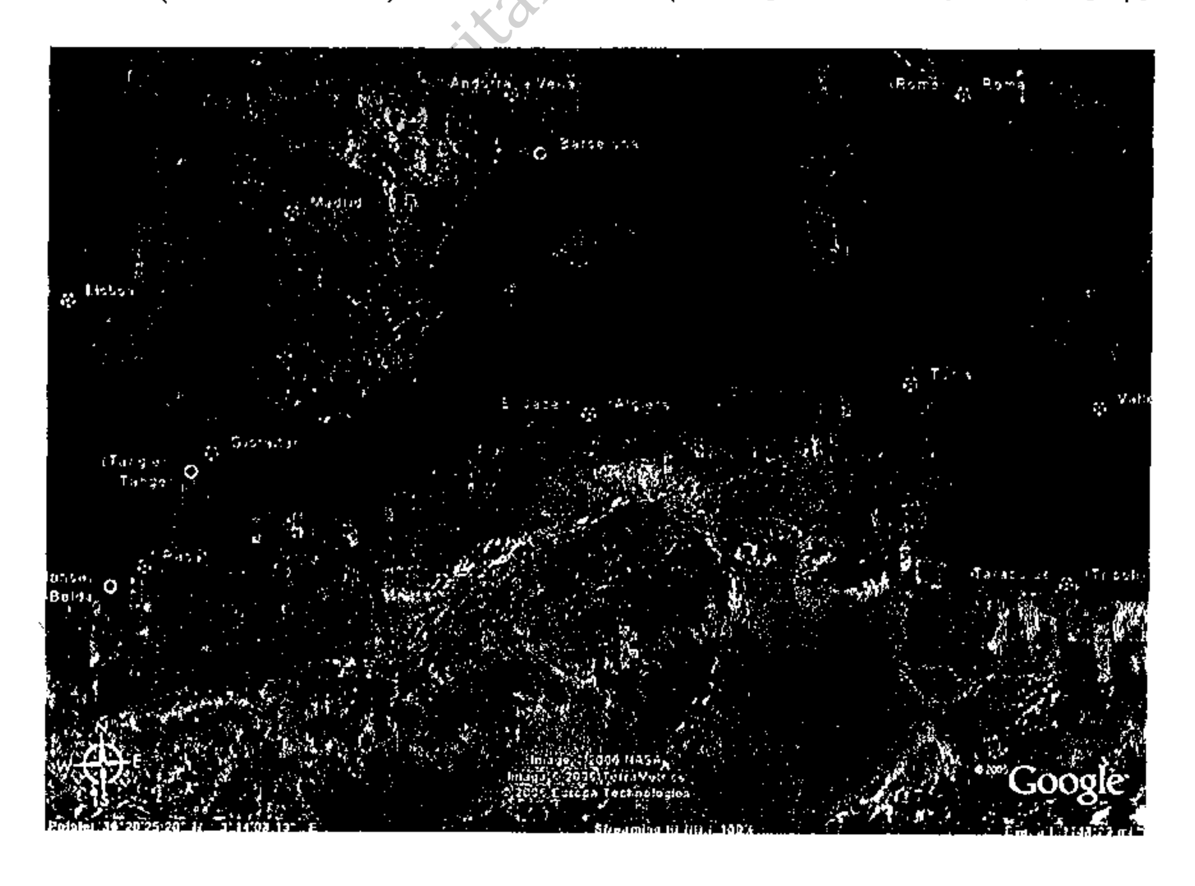
يقابل المدينة من الناحية الشرقية أربع جزر اشتق اسم المدينة منها. تمتد هذه الجزر على طول 350م من الشمال إلى الجنوب و لا يتجاوز عرضها 120م. تتصل بالمدينة بواسطة رصيف خير الدين الذي يبلغ طوله حوالي 200م و عرضه 25م و ارتفاعه 4م (Lespes 1930: 109-110)

المبحث الثاني:

1. أثر الموضع في تخطيط المدينة:

لم يكن اختيار موضع تخطيط مدينة الجزائر عفويا، إنما خضع لشروط معينة توافقت و الفترة التي ظهرت فيها، فتأسيسها الأول على يد الفينيقيين كان لأسباب تجارية بالدرجة الأولى. فقد سعى هؤلاء لإقامة علاقات تجارية مع أهل هذه البلاد لما تزخر به من خيرات و ثروات(Despois 1964: 116)، لكنهم اهتموا بأن يكون الموقع جيد المرسى في مأمن داخل صخرة أو جزيرة أو به رأس خليج تحتمي به سفنهم من الرياح و مرسى آمن للراحة و التزود بالماء و الغذاء.

أكدت اللقى الأثرية أن مدينة ايكوسيم الفينيقية أنشئت في القرن السادس قبل الميلاد و أنها كانت على علاقات تجارية مع جنوب إيطاليا و جنوب بلاد الغال و المنطقة الشرقية من اسبانيا (خريطة رقم 3). أمدتنا الحفائر الأثرية بالأدلة على أن موقع المدينة فينيقي ذلك أن تلك الأقوام كانوا ينشئون محطات تجارية على ضفاف ساحل البحر المتوسط لتوفر لهم الراحة خلال أسفارهم البحرية الطويلة علما أن هذه المحطات تكون ملائمة مع المسافات التي يمكن أن تقطعها السفن الفينيقية في اليوم الواحد و المقدرة ما بين 25 إلى 45 كلم بين المحطة و الأخرى (Gsell 1911: 20).



خريطة رقم 3: موقع المدينة بالنسبة للدول المجاورة(Google earth)

و لما كانت مدينة الجزائر تتوسط مدينة تامنتفوست (Resgunae) و تيبازا و هما محطتان فينيقيتان تقدر المسافة بينهما 80 كلم، و هي مسافة لا تقطعها السفن الفينيقية في اليوم الواحد فاختار الفينيقيون الجزائر كمحطة للاستراحة و التزود بالمؤن، أضف إلى هذه الأدلة مجموعة من اللقى الأثرية و النقود الدالة على أنها مدينة فينيقية. (Gautier 1959-1961: 11 و Charles 1830: 87).

لم يتغير مبدأ اختيار موضع التخطيط في العصور الإسلامية بل حددت شروط واضحة أصبحت أساسية لذلك. أشار ابن الربيع إليها و جعلها ستة شروط و هي: سعة المياه المستعذبة، إمكان الميرة المستمدة، و اعتدال المكان و جودة الهواء، القرب من المرعى و الاحتطاب، و تحصين منازلها من الأعداء و الذعار، و أن يحيط بها سور يعين أهلها (ابن الربيع (ب. ت): 190).

تكشف هذه الشروط الرؤية التخطيطية للمدينة الإسلامية و الاهتمام بالجوانب الوظيفية و الاجتماعية و السياسية و العسكرية لما لها من أهمية في استمرار المدن.

و بعد ستة قرون من ذلك يعرض ابن خلدون شروطا متطورة مستندة إلى التجربة، فيقول أنه يجب مراعاة شيئان مهمان: دفع المضار، و جلب المنافع: "فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، و أن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل، و إما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو و يتضاعف امتناعها و حصنها. و مما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض" (ابن خلدون(1) 2003: 321).

و أضاف في مراعاة اختيار مواقع المدن الساحلية انه يجب: "أن تكون في جبل، أو تكون بين امة من الأمم موفورة العدد، تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو. و السبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر و لم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات، و لا موضعها متوعر من الجبل، كانت في غرة للبيات و سهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها و تحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها. و متى كانت القبائل و العصائب موطنين بقربها ... كان لها بذلك منعة من العدو و ينسوا من طروقها... كما في سبته و بجاية" (ابن خلدون (1) 2003: 322-323).

أجمع العلماء و الجغرافيون العرب على أن أحسن المعايير في اختيار مواقع المدن أن يجمع بين خمسة أشياء و هي: النهر الجاري، و المحراث الطيب، و المحطب القريب، و السور الحصين، و السلطان إذ به صلاح حالها، و أمر سبلها، و كف جبابرتها (عثمان 1999: 96).

و الدارس لموقع المدينة و اختيار موضعها يلاحظ أنه توفرت فيها الشروط التي اتفق عليها المؤرخون و الجغرافيون العرب، ذلك أنها مدينة ساحلية تحمي ميناءها بأبراج و أسوار دفاعية كما جاءت على استدارة جبال بوزريعة من الجهة الجنوبية التي تعد خطا دفاعيا طبيعيا، و يحيط بها من القبائل يأتون لنصرتها أيام المحن و الحروب.

من هذا المنطلق نعي أهمية التحصين في المدن الإسلامية و ضرورتها فالأمن هو من أهم الحاجات التي يسعى إليها الإنسان جاهدا لتحقيقها منذ بدء الحياة، ففي ظل الأمن يتوفر العطاء و البناء و التشييد، و توفره دلالة على القوة و المنعة و هو أيضا سمة الحقب الذهبية و التفوق و الازدهار في تاريخ الأمم و منه كان حرص الإنسان و سعيه وراء ما يوفر أمنه أن شيد الحصون والقلاع و الأسوار المنيعة منذ أقدم العصور. و عليه ارتأيت ضرورة التعريف بالمعنى اللغوي للتحصين و ما يؤديه من معاني.

2. تعريف التحصين:

التحصين من فعل حصن، و حصن المكان يحصن حصانة، فهو حصين منع و أحصنه صاحبه و حصنه. و الحصن كل موضع حصين لا يوصل إلى ما في جوفه، و الجمع حصون. و حصنت القرية إذا بنيت حولها. و قال تعالى في قصة داوود عليه السلام في سورة **الأنبياء** الآية 80 بعد بسم الله الرحمن الرحيم: "**و علمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم**". و معنى ليحصنكم هنا ليمنعكم و يحرزكم (ابن منظور(ب. ت) المجلد 13: 119-120).

ورد نفس معنى التحصين لكن في غير عبارة وهي البرج. و البرج الركن و الحصن و القصر و قيل أصله ركن الحصن جمعه بروج و أبراج و أبرجة (البستاني 1977: 33)، و في قوله تعالى، بسم الله الرحمن الرحيم: "**أينما تكونوا يدرككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة" الآية 78 النساء**، و البروج هنا الحصون، واحدها برج. و برج الحصن ركنه (ابن منظور(ب. ت) المجلد 2: 212).

و ما يعكس أهمية الأمن و الأمان لنشأة المجتمعات و استقرارها هو دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، بسم الله الرحمن الرحيم: **"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " البقرة الآية 126.**

سبق الدعاء بالأمان الدعوة بطلب الرزق سبقا يؤكد هذه الأهمية و ضرورتها، و قد اعتبر الإسلام بناء الأسوار و الأبراج و القلاع و الحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس و المال و العرض وهي من مقاصد الإسلام. و من هنا أدرجها الفقهاء في عداد "البناء الواجب"، و لا سيما إذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمات المسلمين كما حكم الفقهاء بالتزام العامة في ترميمها و إعادة تقويتها (عثمان1999: 135).

و مدينة الجزائر جزء من العالم الإسلامي الذي كانت تتعرض مدنه باستمرار لمحاولات الغزو خاصة في ظل الفترات العصيبة و الحملات الصليبية، فبعد سقوط غرناطة أضحت الجزائر و سواحلها مباشرة عرضة للاستعمار الاسباني و ما كان على الجزائريين إلا النهوض و الدفاع عن وطنهم ونتيجة لذلك ظهر طابع دفاعي و عسكري فعال واجه الأمم الأوروبية المتكالبة على أرض الجزائر على مدى ثلاثة قرون كاملة.

3. تطور المدينة من العصور الإسلامية إلى الحكم العثماني:

لم ترد إشارات كثيرة لمدينة الجزائر من طرف الرحالة و المؤرخين العرب قبل قيام الدولة الزيرية (361 هـ-972م\405 هـ-1014م) و قبل ظهور الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على الساحة السياسية في المغرب الأوسط. حيث يذكر أن المدينة لم تندثر كليا و لكنها هجرت لمدة قدرت بقرنين و نصف القرن و لم تعمر إلا في منتصف القرن العاشر ميلادي (Devoulx 1875: 502).

أمر زيري بن مناد رئيس قبيلة تلكاتة (و هي فرع من فروع قبيلة صنهاجة* البربرية) ابنه بلكين (بولوغين) ببناء ثلاثة مدن في القرن 4 هـ\10م و كانت مدينة الجزائر واحدة منها و تقع على شاطئ البحر و أسماها جزاير بني مزغنة (362 هـ/973م) و يقول ابن خلدون: "ثم اختط ابنه

* قبيلة عربية يرجع نسبها إلى بني فريقش بن قيس بن صيفي بن سبأ بن قحطان، ساروا من اليمن إلى الشام إلى ساحل إفريقيا قبل الإسلام و سكنت صحراء المغرب(للتفصيل ابن الأثير، ج1، ص 80).

بلكين بأمره و على عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر و مدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف و مدينة لمدونة. و هم بطن من بطون صنهاجة و هذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط " (ابن خلدون (2) ج6 2003: 181). و الهدف من بناء هذه المدن هو ضمان مراقبة المواصلات و طرق التجارة بين الساحل و التل و منطقة السهوب (سبنسر1980: 15).

كان بلكين في أول الأمر واليا على مدينة الجزائر فشد أسوارها و أمن سكانها و مد عمرانها و نظم اقتصادها و زادها علاقة بضواحيها إلى أن أصبحت تجلب أنظار الرحالة إليها بعدما لم تكن ترد في قائمة المدن العربية لدورها الهامشي و انطفاءها على يد البيزنطيين. و لم تقم من جديد الا عندما تقوى الأسطول الإسلامي على يد الدولة الزيرية في المغرب الأوسط و افريقية (الجيلالي 1994: ج1، 246).

شهدت هذه المدينة من التطور ما جعل الرحالة الجغرافي العربي ابن حوقل يصفها في رحلته عندما زارها إذ يقول: "و جزاير بني مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا و فيها أسواق كثيرة و لها عيون على البحر طيبة و شربهم منها و لها بادية كبيرة و جبال فيها من البربر كثرة و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم سائمة في الجبال و لهم من العسل ما يجهز عنهم و السمن و التين ما يجهز و يجلب إلى القيروان و غيرها" (ابن حوقل (ب.ت): 77).

وصفها البكري أيضا في كتابه "المسالك و الممالك" في القرن الخامس الهجري حيث يقول: "جزائر بني مزغنى هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول و أزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، ... و مرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من أهل افريقية و الأندلس و غيرهما..." (البكري 1857: 66).

سقطت مدينة الجزائر بعدها تحت حكم المرابطين (472-539 هـ\1079-1145م) ثم في يد عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين سنة 547 هـ\1153م، ثم الدولة الزيانية من سنة 633هـ-1236م إلى 922هـ-1516م حيث كان يتناوب على حكم مدينة الجزائر كل من الدولة المرينية، الحفصية و الزيانية في أغلب الأحيان إلى أن جاء الأتراك سنة 1516م و أسسوا فيها الدولة القوية تحت حكمهم.

توالى ذكر الرحالة للمدينة في الفترات المذكورة بين متطورة و متدهورة الأوضاع، إلى أن زارها الحسن بن محمد الوزاني و المعروف باسم ليون الإفريقي العربي الأصل سنة 1515م و

ذكرها في كتابه: "وصف افريقية" حيث يقول:" الجزائر معناها الجزر، و سميت المدينة بذلك لقربها من جزر مايورقة و منورقة و يابسة، لكن الأسبان أطلقوا عليها الجزائر، و هي مدينة قديمة، بنتها قبيلة بني مزغنة لذلك أطلق عليها قديما جزاير بني مزغنة و هي كبيرة جدا بها حوالي 4000 موقد لها أسوار عظيمة و في منتهى المناعة، مبنية بالحجارة الكبيرة... و سلحوا أسطولا للقرصنة أغاروا به على جزر يابسة و مايورقة و مينورقة و حتى السواحل الاسبانية، لهذا أرسل لهم الملك فرديناند الكاثوليكي أسطولا لمحاصرة مدينة الجزائر. و قد بنى هذا الأسطول أمام المدينة برجا عظيما يمكن منه إصابة كل أجزاء من أسوار المدينة بالأسلحة النارية" ,Jean Leon 1956: T2 .(348)

تغير اسم المدينة بعد استنجاد الجزائريين بالأخوين عروج و خير الدين حيث أصبحت تعرف بجزائر الغرب و المحروسة و دار الجهاد. كان لهذا الاسم معنى في تطور عمران المدينة نحو الدفاع و التحصين ضد الغارات المسيحية التي ما فتئت تهاجم المدينة بين الحين و الآخر. فكثرت الأبراج و زاد تشييد الأسوار و تمتين قوتها الدفاعية مما أدى إلى تطور المدينة في ظل الحكم العثماني و أصبحت قلعة متينة ترتعد لها فرائص العصبية المسيحية كما وصفها شيلر في كتابه برعب المسيحية لمدة ثلاثة قرون (Shaler 1830: 26) و ذلك بعد أن سيطرت على الملاحة في البحر المتوسط و أعلنت حربا بحرية عنيفة ضدهم مما أدى إلى سخط ملوك اسبانيا على حكام المدينة و أهاليها.

في خريف 1516م حاول الكاردينال اكزيمانس (Ximenes) احتلال مدينة الجزائر و القضاء على الدولة الجزائرية الفتية قبل سيطرتها و طرد الأسبان من شمال إفريقيا. فسير 35 سفينة و 3000 جندي بقيادة دييغو دي فيرا(Diego de Vera) (و هو عدد اختلف فيه المؤرخون) لكن الحملة لم تتمكن من الاقتراب من المدينة خاصة بعد اضطراب البحر حيث أمر القائد الاسباني بالتراجع فاستغل عروج هذه الفرصة و هاجم الأسبان من كل جهة و ألحق بهم خسائر جمة و قتل و أسر منهم الأحياء. ترك عروج أخاه خير الدين حاكما على المدينة و توجه على رأس جيش لتحرير مدن المدية و مليانة حيث انتصر في هذه المعركة و عند عودته تلقى أعيان مدينة تلمسان يطلبون نجدته للتخلص من أبي حمو الثالث الموالي للأسبان. فاستجاب عروج للطلب و توجه إلى تلمسان و كانت حملته ناجحة في بدايتها لكن ملك فاس انقلب ضد عروج و لم يمده بالإمدادات المتفق عليها فانتهت الحملة بقتل عروج سنة 1518م (De Grammont 2002: 43-46) و هكذا استشهد بعد أربعة سنوات من استرجاعه مدينة جيجل و سنتين من استرجاع الجزائر و تنس.

تولى خير الدين حكم المدينة بعدها و طلب المساعدة من السلطان العثماني سليم الذي استجاب إلى طلبه بعد الإعلان عن التحاق الجزائر بالباب العالي فبعث بـ 2000 من الجيش الانكشاري و عدد كبير من المدافع كما أطلق عليه لقب البيلرباي (الباشا) و أعطاه صلاحيات كبيرة في المنطقة و أمره بإنهاء الاحتلال الاسباني. في سنة 1519م بدأ بتحصين مدن مستغانم مليانة و تنس بينما كانت اسبانيا تجهز حملة أخرى ضد الجزائر فاستقرت الحملة على هضبة كدية الصابون التي عرفت بعدها بناء حصن الإمبراطور و بدأ قصف أسوار المدينة الخلفية منها. لكن سرعان ما بعث خير الدين 500 من خيرة رجاله و أمرهم بإضرام النيران في سفن الأسبان الراسية فهلع الغزاة و نزلوا إلى البر فاصطدموا بمقاومة عنيفة قتل فيها الكثير من العدو و أسر منهم الأحياء ثم ضاعف خير الدين نشاطه بعد الانتصار و زادت سيطرته على البحر المتوسط فأصبح ملوك و حكام أوربا يهابونه و يحاولون إبرام صفقات صلح معه لما أدخله من رعب في قلوبهم و ما أ لحقه بهم من خسائر تجارية (Gramaye 1998: 61).

ازدهرت مدينة الجزائر كثيرا في العهد العثماني و أصبحت عاصمة المغرب الإسلامي كله و دارا للجهاد تنطلق منها السفن لنجدة كل مستغيث من المسلمين بالمناطق التي كانت تعاني من الاستعمار. فكان خير الدين يجمع المتطوعين في صفوفه من الأهالي و المغامرين ما بين 1520 و 1525م، حيث استعاد سلطته على البحر المتوسط و حرر القل و عنابة و أعاد تحصينها و تسليحها ثم نصب عليها حامية عسكرية تحرسها. ثم تواصلت فتوحاته إلى قسنطينة و استردها من حاكم تونس و قضى على فتنة التمرد من أحد قادة القبائل انتهت بالخضوع له و دفع فدية سنوية (De Grammont 2002: 50). عندما ضمن خير الدين الهدوء في المدن الجزائرية و نظم جيشه بدا يفكر جديا في إزاحة حصن البنيون المغروس في قلوب الجزائريين كشوكة قبالة ميناء المدينة منذ خضوع سليم التومي للأسبان (Reclus 1886: 473).

في بداية شهر أيار من سنة 1529م بدأ خير الدين هجومه على الحصن بعدما بنى بطاريتين اتخذهما كنقطة أمامية لقصف الحصن و توالى القصف لمدة عشرون يوما متوالية. انتهت بهزيمة الأسبان و قتل قائد الحصن و من معه كما أسر من بقي حيا ثم هدم الحصن كله ليصبح نقطة تحول كبيرة في تاريخ المدينة (De Grammont 2002: 51) كما استخدم 700 أسير مسيحيا لإعادة بناء و تحصين ميناء مدينة الجزائر و بناء رصيف يربط الجزر الثلاثة المقابلة للمدينة ببعضها البعض و بالشاطئ، و استعمل فيه حجارة الحصن المهدم (Gramaye 1998: 61).

لا يزال هذا الرصيف قائما و يعرف برصيف خير الدين حيث ساعد في تلك الفترة على رسو السفن دون تعرضها لخطر الرياح الشمالية و الشمالية الغربية. و منذ ذلك كسر خير الدين شوكة الأسبان بالمدينة و ربطها بالباب العالي ليدعمها عسكريا و سياسيا و ماليا، ليدوم ذلك لفترات طويلة من حكم الأتراك بالجزائر مدة ثلاثة قرون و نيف، تطورت المدينة على إثرها في كل المجالات خاصة التجارية و العسكرية إلى أن سقطت تحت نير الاستعمار الفرنسي عام 1830م.

ساهمت تقارير رسمية أخرى لقادة عسكريين شاركوا في حملاتهم على الجزائر و لجواسيس و أساقفة كانوا يعيشون بالمدينة بحجة مساعدة الأسرى المسيحيين، في تزويد الهيئات العسكرية الأوربية بالمعلومات لشن الحملات العسكرية على مدى كل فترة التواجد العثماني بالجزائر.

بدأ مخطط الجوسسة على عهد الملكة إيزابيل عندما كلفت لورا نزو دي بادلا (Lorenzo de Padilla) بمهمة سرية إلى تلمسان حيث تخفى على هيئة تاجر فجمع كل المعلومات عن المنطقة و أحوالها، و على أساسها قررت الملكة إرسال حملة عسكرية للقضاء على مملكة تلمسان و احتلالها و كان قوام الحملة 12.000 رجل، لكن موت الملكة حال دون ذلك سنة 1504 (De Grammont 2002: 29)، غير أن ذلك لم يحل دون احتلال عدة مدن من الغرب الجزائري ما بين سنة 1505 إلى 1515 م.

تعد مذكرة أسقف إفريقيا سنة 1617م (Jean-Baptiste Gramaye) الذي أظهر دوره الحقيقي في مدينة الجزائر من أهم المصادر التي ساعدت على شن الهجمات على المدينة. حيث يقول بعد وصف دقيق لتحصينات المدينة و من شيدها و رممها و تحصين الميناء: "يعد الميناء النواة الحية و القلب النابض للمدينة فاهتم الجزائريون بتحصينه حتى اصطفت به أحسن و أجمل المعالم الدفاعية التي تصدت لمحاولات العدو لحرق الأسطول الجزائري" ثم يقول: "لقد و ضعت كل ما رأيته و كل ما سمعته لتستعملوه كما أظن مستقبلا في حرب مقدسة". و في مقطع آخر يقول: "إن هذه المدينة غنية جدا بالثروات فهي تزداد تطورا نتيجة للتجارة البحرية و الأرض الخصبة و المحصول الفائض، إنها أمريكا الثانية غنية بكل الثروات التي تفتقر إليها اسبانيا، لذا يجب أن تأخذ فهي سهلة المنال لكن يجب التريث قليلا" (Gramaye 1998: 71-72).

تدل مجموعة الأرشيف الوطني بمدريد و مجموعة أرشيف سيما نكس باسبانيا على العلاقات التي كانت قائمة بين الجزائر و اسبانيا منذ قرون في مجال التجارة. لكن منذ أن بدأت الجزائر تغير في سياستها التجارية و بدأت تخرج عن سيطرة الأسبان بفضل مهارة بحاريها و سيطرتهم على البحر المتوسط، أصبح الغرب يعرفهم بالقراصنة وأراد وضع حد لطموحاتهم. و ذلك بتسطير

قوانين تقيد هذه المهنة بعدما أصبحت كل مدن ساحل البحر المتوسط ترتزق منها. كانت هذه القوانين تقيد المدن الإسلامية أكثر من سواها. فثار بحارة المنطقة و لم ينصاعوا لهم مما أدى إلى احتقان الأوضاع الاقتصادية ومحاولة القضاء على عش القراصنة كما يدعون بمدينة الجزائر (بوعزيز1993: 11-18).

يذكر بلحميسي حول قوانين الإبحار ضرورة حفظ سلامة السفن و نظامها، فكان من الضروري أن تفحص السفن قبل الخروج إلى البحر و العناية بها. كما أن عملية القرصنة لا تدوم عادة أكثر من خمسين يوما، لتوزع بعدها الغنائم بالعدل بين الرياس و العاملين على السفينة و المساهمين بأموالهم في تجهيز السفن (Belhamissi 1983: 102).

و يضيف هايدو حول الموضوع: "عندما يعود القراصنة تكون مدينة الجزائر كلها فرحة و مسرورة لأن التجار يشترون العبيد و البضائع التي حملها القراصنة إليهم و لأن تجار المدينة باعوا كل ما عندهم في محلاتهم من لباس و مؤونة لهؤلاء القادمين من البحر، و لا هم لهم سوى الأكل و الشرب و اللهو (De Haedo 1998: 98).

نتيجة ذلك أصبحت الدول الأوربية تسعى لعقد معاهدات لحماية سفنها و سواحلها التي أصبحت عرضة للخراب و يظهر ذلك جليا في كتاب: المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد ما بين 1780-1798م ليحي بوعزيز و كتاب السير قودفري فيشر(Sir[*] Godfrey Fisher) و في مرات أخرى تتخذ ذرائع لشن الحرب على المدينة.

---

[*] Sir Godfry Fisher, Légende Barbaresque: Guerre, Commerce et piraterie en Afrique du Nord de 1415 a 1830. O.P.U, 2000.

الفصل الثاني

أسباب الحملات الأوربية على مدينة الجزائر و

أنظمتها الدفاعية

المبحث الأول

1. الأسباب الدينية:

تمثلت البدايات الاستعمارية الأولى باكتشاف العالم الجديد و خيراته، حيث أصبحت هذه الأراضي فريسة سهلة لأكبر القوى البحرية آنذاك و على رأسها اسبانيا و البرتغال. أدى طمع هاتين الدولتين إلى اصطدامهما مما أدى إلى تدخل البابا و عقد معاهدة تورد سيلاس سنة 1495م، التي تقضي بتقسيم العالم إلى شطرين جزء لاسبانيا و جزء للبرتغال. و هكذا بدأت حركة الاستعمار العالمية و استعباد الشعوب. ففي سنة 1509م عقدت الدولتان اتفاقا آخر يقضي بأن يكون المغرب الأقصى من حق البرتغال و المغرب الأوسط (الجزائر) من حق اسبانيا. و بالرغم من هذه السياسة الاستعمارية إلا أن اسبانيا كانت تعاني من انهيار اقتصادي، فبعد القضاء على مدينة العرب الزاهرة و إخراج الملايين من المسلمين منها، تراجعت الحرف و الصناعات و التجارة و أصبحت حياة الأسبان حياة كسل و خمول و اعتمدوا على قوة السلاح حتى مع الأقطار الأوربية لتوسيع سياسة النهب و السلب. فبارت أرض الأندلس و اندثر العمران و كسدت التجارة و لم تقم قائمة اسبانيا.

كانت معركة السنوات العشر(1482-1492م) بقيادة الملك فرديناند الكاثوليكي و زوجته إيزابيلا صاحبا عرش مملكتي قشتالة و أراغون تؤيدهما بالسلاح و الرجال كل المسيحية في أوربا إطاعة لأمر البابا اسكندر الرابع (بورجيا الشهير) و الذي فرضها على المسيحيين و دعاها "بضريبة الصليبية سنة 1494م" (المدني 1984: 33-35، 43). فظهرت محاولات الأوربيين و على رأسها اسبانيا لاحتلال الجزائر و شمال إفريقيا لغايات نشر المسيحية و محو الديانة الإسلامية. يذكر أحد المؤرخين: "أن جاسوسا من الجواسيس الذين أرسل بهم فرديناند إلى بلاد المغرب العربي قد أرسل إلى ملكه تقريرا مفصلا جاء فيه: إن كامل شمال إفريقيا تجتاز فترة انهيار نفسي يظهر معها أن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكا لصاحبي الجلالة المسيحية" (المدني 1984: 68).

يتضح من خلال تقرير الجاسوس أن الفترة المقصودة هي قبيل الاحتلال الاسباني للمنطقة أي بدايات القرن السادس عشر عندما كانت دول شمال أفريقيا في صراع على السلطة فيما بينها.

و من الدلائل الأخرى على كون هذه الحرب ذات طابع ديني هو وصية الملكة إيزابيلا سنة 1505م بقولها: "يجب ألا توقف هذه الحملة لاحتلال إفريقيا كما لا يجب التوقف عن محاربة

الكفار" (De Grammont 2002: 29). كما يذكر غرماي في مذكراته: "لقد وضعت كل ما رأيته و كل ما سمعته لتستعملوه كما أظن مستقبلا في حرب مقدسة" (Gramaye 1998: 72).

أما المؤرخ بربوغر فيقول عن أسقف طليطلة الذي سخر كل أمواله لتجهيز الحملات العسكرية على المدينة: "إن الراهب خيمينس يستحق كل التقدير من اجل تفكيره على الأقل في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية، لكي تتنصر فيها المسيحية و الحضارة" (Berbrugger 1860: 15)

2. الأسباب الاقتصادية:

الوجه الأخر لهذا الاستعمار هو الاقتصادي، حيث انهارت اسبانيا اقتصاديا و كثرت مصاريفها لتجهيز السفن المخصصة لسلب و نهب الأمم الأخرى كما أصبحت تستورد الكثير من المؤن الغذائية لكثرة الحروب التي كانت تشنها على جبهات عدة في وقت واحد. يذكر هذا الأسقف دائما: "يوجد الكثير من الذهب بالمدينة حيث يكفي لتجهيز جيش مكون من مئة ألف رجل و إخضاع إفريقيا في عام واحد... إذن يجب احتلال هذه المنطقة. فاسبانيا تصرف ستون ألف دوكة* لشراء أسراها من مدينة الجزائر لوحدها، بينما دخل هذه الأخيرة خلال فصل واحد من سنة 1619م، يصل إلى اثنان و ثلاثون ألف دوكة، يدخل خزينة هذه المدينة أموال طائلة و لا يخرج منها إلا القليل". (Gramaye 1998: 72).

أما بقية الدول الاستعمارية فكانت تخشى ازدهار هذه الدولة الفتية و التحكم في البحر المتوسط الذي يعد مصدر خيراتهم. فمدينة مرسيليا الفرنسية مثلا كانت من أهم المدن الساحلية و اشتهرت بالتجارة و أصبحت تهاب هذا المنافس الجديد لها بالمنطقة كلها. فقد تغلغلت التجارة الجزائرية إلى عمق الأسواق الفرنسية، و كانت الجزائر تمنع و تتحكم في تصدير قمحها إلى أوربا الشيء الذي سبب عدة أزمات تجارية بينها و بين فرنسا. أضف إلى هذا الصراع الذي كان قائما بين فرنسا و انجلترا حول سيطرة الواحدة على الأخرى في الامتيازات التجارية التي كانت تحصل عليها في المياه الجزائرية كانفراد فرنسا لزمن طويل في صيد المرجان. فأصبحت الجزائر بذلك محل انتباه هذه الدول بحكم موقعها الاستراتيجي و نشاط موانئها المتنامي (المدني 1984: 34).

---

* دوكة او دوقة وهو أحد أهم الوحدات النقدية الذهبية يعود ضربه إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي بالبندقية و استمر استعماله إلى القرن التاسع عشر وزنه 3.5غ (G.Doty, 1982: 112-113) مطلع

يضيف غرماي بهذا الصدد: "لقد تنامت المحاولات الاستعمارية على المدينة من طرف الهولنديين و الفرنسيين و الألمان و ايطاليا و الدانمرك و بولونيا و المجر و البرتغال و حتى البرازيل، الكل يسعى للسيطرة على حوض البحر المتوسط و إيقاف مد النشاط التجاري الجزائري و سيطرته. فكانت العلاقات في مد و جزر تنتهي أحيانا بقصف المدينة و أحيانا أخرى تكلل ببعض الاتفاقات" ثم يضيف: "إن الجزائر مدينة فاحشة الثراء تجمع ثروتها من تجارتها البحرية و تطويرها لأسطولها التجاري و مساعدتها لمسلمي الدول المجاورة، إن هذا زاد غيظ هؤلاء فأرادوا الاستيلاء على هذا الرزق الوفير بتحطيم قوة و دولة الجزائر آنذاك" (Gramaye 1998: 29-31).

إن سيطرة الجزائر على جيرانها في حوض البحر المتوسط من مسيحيين و مسلمين كانت تنبعث من مداخيل إنتاج نشاطات الأسطول البحري والتسيير الجيد لرياسها، فمساهمة القراصنة كما يطلق عليهم الغرب كان شديد الفعالية في الاقتصاد الجزائري. و قد كان دخل مدينة الجزائر يرتكز على ثلاثة مصادر أساسية: حمولات السفن من الغنائم الكثيرة التي كانت تغنم من البحر و هي السياسة البحرية التي كانت قائمة في تلك الفترات من التاريخ (سبنسر 1980: 129).

يقول بروديل في بحثه الأسبان و المغرب العربي المنشور في المجلة الإفريقية لسنة 1928: "إن القرصنة لم تكن في غرب البحر المتوسط بالشيء الجديد، فمنذ قرون عديدة كان المسلمون و كان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر. و لا يحق لنا مغالطة التاريخ، فان القراصنة المسيحيين كان عددهم كبيرا جدا خلال القرنين الخامس عشر و السادس عشر بهذا البحر المتوسط، ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك، لكن القرصنة الإسلامية، ازدادت ضراوة في الشمال الإفريقي، بعد إبعاد مسلمي اسبانيا" (المدني 1984: 75).

المصدر الثاني يتمثل في مبالغ افتداء الأسرى حيث أن بدايات القرن السادس عشر تعد من أزهى فترات المدينة ذلك أن قراصنتها كانوا يتنقلون دون أي معارضة تقريبا عبر المنطقة الغربية للبحر المتوسط و إلى الشمال حتى القناة الانجليزية و يعطي غرماي إحصاءات لسنوات 1607-1618م باستثناء سنة 1615 حول الأسرى:

جدول رقم 1: إحصاءات حول الأسرى لسنوات 1607-1618م (Gramaye 1998: 653)

السنة	السفن المصادرة أو المهاجمة	عدد الأسرى
1607	الهجوم على ثلاث مدن إسبانية	1400 أسير
1608	القبض على 42 سفينة	860 أسير
1609	القبض على 36 سفينة	632 أسير
1610	القبض على 23 سفينة	384 أسير
1611	القبض على 20 سفينة	464 أسير
1612	الأسر من داخل اسبانيا	3804 أسير
1613	القبض على 16 سفينة	230 أسير
1614	القبض على 35 سفينة	467 أسير
1616	القبض على 34 سفينة	767 أسير
1617	القبض على 26 سفينة	1763 أسير
1618	القبض على 19 سفينة	1468 أسير

كان بيع الأسرى يشكل أوسع قيمة في دخل القراصنة بمدينة الجزائر و هذا من سعرهم الأول و من خلال مبالغ الافتداء. و كان من الواجب السياسي للقناصل الأوربيين هو الافتداء المباشر للأسرى أو التدخل لدى حاكم الجزائر نيابة عن المحكومين من أبناء وطنهم إلى جانب تدخل رجال الدين المسيحيين الذين كانوا يقيمون بالمدينة لافتدائهم أو مساعدتهم على الصبر. إن معرفة الاحتلال بهذه المدينة ما هو سوى نتيجة تقارير هؤلاء و الذين كانوا ينقلون مآسي مزيفة للحياة التي كان يقضيها الأسرى بالمدينة، و الحقيقة بأن أسرى الدولة كانوا يسكنون بصورة معقولة جدا و تدفع لهم أجور منتظمة كما تخصص لهم أماكن للعبادة وكان لهم الحق في التجول بالمدينة ما عدا فترة الليل (سبنسر 1980: 132).

زادت مسألة الأسرى الأمور تعقيدا في العلاقات الجزائرية الأوربية فقيل أنه ما بين سنة 1621 و1627م وصل عدد الأسرى بمدينة القرصان عشرون ألف أسيرا بينهم برتغاليون واسكتلنديون و انكليز ودانمركيون و ايرلنديون و هنغاريون و سلاف و أسبان و فرنسيون و ايطاليون و غيرهم (سبنسر 1980: 145).

أما المصدر الثالث فهو الجزية التي كانت تدفعها مختلف الأمم الأوربية تحت تدابير اتفاقيات شكلية لحماية سفنها من استيلاء القراصنة عليها و ضمن سلامتها و مساعدتها في حال تعرضت لهجوم من عدو مشترك. و يذكر شو بهذا الصدد: "إن القوات البحرية لأيالة الجزائر و منذ قرنين تعد رعب للأمم الأوربية، و لهؤلاء القراصنة علاقات تجارية و اتفاقيات بين الأمراء المسيحيين من الانجليز و الفرنسيين و الهولنديين كما اضطر السويديون إلى شراء السلام مع الجزائر بدفع 70.000 دولار الشيء الذي أدهش الأمم الأخرى بحكم أن السويد لم يكن لديها سوى القليل من السفن التي تجوب البحر المتوسط" (Shaw 1763: T1, 412).

كان هناك مصدر آخر يعتمد عليه، و هو من المؤسسة البحرية بذاتها و ذلك من خلال الإذن بالإرساء و رسوم إعادة السفن للوضعية السابقة والتصليح و كذلك قيمة الأسطول وورش بناء السفن (وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 131).

جدول رقم2: دخل مدينة الجزائر سنة 1789م (المدني 1984: 323)

المقبوضات من الدول الأجنبية			
مصدر القبض	**المدة**	**نوع المقبوض**	**القيمة**
هولندا	كل سنة	سلع لتجهيز الأسطول	10.000 سلطاني*
	كل سنتين	هدايا القناصل و مجوهرات	30.000 جنيه
	كل سنة	سلع مطلوبة	10.000 سلطاني
الدانمرك	كل سنتين	هدايا قنصلية	30.000 جنيه
	كل سنة	عملة نقدية	10.000 سلطاني
البندقية	كل سنتين	هدايا قنصلية	30.000 جنيه
السويد	كل سنتين	عملة نقدية	28.000 فرنك
بريطانيا	كل خمس سنوات	هدايا قنصلية	28.000 جنيه
فرنسا	كل المناسبات	هدايا متنوعة	40.000 جنيه
الشركات الفرنسية	كل سنة	هدايا متنوعة	7.000 جنيه
تونس	كل سنة	200 قلة زيت، و 50 جرة صابون و سلع أخرى متنوعة.	150.000 جنيه
اسبانيا و نابولي و فرنسا	سنة 1788 فقط	فدية عبيد مسيحيين من اسبانيا و ايطاليا و فرنسا	400.000 سلطاني

أما في سنة1822 م فقدر حساب محاصيل الخزينة من مختلف المصادر بالدولار* الاسباني كالآتي:

* السلطاني وحدة نقدية ذهبية تساوي 11 فرنك فرنسي.

* و هو وحدة نقدية ذات أصول اوربية و خاصة اسبانية و كان يطلق عليه اسم الطائر و هو نقد فضي تم تداوله ما بين القرنين 15م منتصف القرن 18م وزنه 27غ،استبدلته مستعمرة فيريلا ند بأوراق نقدية أطلق عليها اسم الدولار (Doty 1982: 108-109)

جدول رقم 3: محاصيل خزينة المدينة سنة 1822م (سبنسر 1980: 126)

القيمة بالدولار	الأطراف المستحقة عليها الضرائب
60.000	من باي وهران ضريبة مقررة على الإقليم
15.000	من باي وهران، حق التصدير من الميناء
60.000	من باي قسنطينة، ضريبة مقررة على الإقليم
16.000	من السبع قياد التابعين للحكومة العامة مباشرة
40.000	من بيت المال، أو قاضي الإرث ضريبة مقررة
3.000	من شيخ البلد
4.000	من باي تيطري، ضريبة مقررة على الإقليم
4.000	من خوجية الجلود، ضريبة مقررة على ديوانها
6000	من خوجية بيت الضرائب و مثل ذلك السكان من اليهود ضريبة مقررة
20.000	من الغرامة على الواردات
40.000	من كراءات أملاك الدولة في مدينة الجزائر
المجموع: **268.800** دولار	
26.800	مدفوعات الجزية الأوربية لنفس الفترة
30.000	من فرنسا مقابل احتكار صيد المرجان في عنابة
40.000	من حمولة الخشب و الشمع و الجلود
24.000	جزية سنوية من ملك نابلي
24.000	جزية سنوية من ملك السويد
24.000	جزية سنوية من ملك الدانمرك
24.000	جزية سنوية من ملك البرتغال
المجموع: 192.800 دولار	

ازدهرت مدينة الجزائر أيضا من صادراتها الأساسية إلى أوربا و إلى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر مثل: الزرابي، و الخرق اليدوية المطرزة، و خرق لف الرقبة من الحرير و التمور و ريش النعام و الشمع و الصوف و قطعان الماشية، و جلودها و ماء الزهور المستخرج من أحسن نوعية الأزهار التي كانت تعرف بالنساري و هي زهور البليدة

البيضاء، و زيت الزيتون و العنب و العسل و التين المجفف و أنواع راقية من الأقمشة كانت تصدر إلى مختلف الأسواق (Renaudot 1830: 150).

و يبقى القمح أهم محصول في الجزائر حيث كان يزرع في الأيالة من الأنواع الصلبة و كانت تحقق الاكتفاء المحلي و تصدر إلى الخارج، ففي سنة 1788م خرج من موانئ مدينة عنابة، و تدلس (دلس حاليا)، و أرزيو و الجزائر حوالي 150 ألف حمولة قمح و شعير بالإضافة إلى الحبوب الأخرى و كان القمح من المحاصيل التي لا تصدر إلا بتصريح من الداي نفسه (De Paradis 1895: 285). كما شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر، تصدير بين سبعة و ثمانية آلاف طن من القمح في السنة من ميناء وهران إلى انكلترا. و بالإضافة إلى اشتراط استخراج رخص خاصة لتصدير الحبوب و الأنعام كانت حقوق تصدير الجلود و الشمع و الصوف تعطى على شكل امتيازات سنوية لمن يدفع أكثر (ويليام سبنسر، ص123).

جدول رقم 4: الصادرات من الموانئ الجزائرية إلى مرسيليا و ليفورن و جنوه 1822م (سبنسر 1980: 123)

الكمية بالقنطار	البضائع	القيمة بالدولار الاسباني
20.000	الصوف بمعدل 8 دولار	160.000
10.000	الجلود بمعدل 30 دولار	80.000
600	الشمع	18.000
	ريش النعام و مواد مختلفة	15.000
المجموع		**273.000**

لقد كانت الجزائر في حالة ازدهار مستمرة فيما يخص الزراعة، فقد علق هايدو بهذا الصدد عند زيارته لضواحي المدينة بقوله: "هناك العدد الذي لا يحصى من الحدائق و بساتين الكروم المملوءة بشجر البرتقال و أشجار الليمون و أخرى من كل الأنواع كما يوجد الأزهار المختلفة أيضا و أكثرها الورود التي تزهر على مدى السنة و تسقى هذه الحدائق الخلابة بمياه صافية كالبلور و هي كثيرة تتدفق من كل الجوانب و موقع هذه الحدائق على الجبال المحيطة بالمدينة التي نلاحظها مباشرة عند الخروج من أبوابها" (De Haedo 1998: 223-224).

أحصيت عدد الحدائق الغناء المحيطة بالمدينة حوالي 16.000 بستان في القرن الثامن عشر(De Paradis 1895 in R.A: 266). و عليه فان غنى مدينة الجزائر على أيام حكم

الأتراك بالجزائر كان من بين الأسباب التي لا يجب إغفالها فتصريحات الأساقفة و الجواسيس كانت كلها توحي بالدوافع الحقيقية التي أدت بالأعداء للتفكير باستمرار في غزو مدينة المغازي التي لطالما وقفت لهم بالمرصاد و أوقفت حملاتهم العسكرية. يضيف ماك كارتي (Mac Carthy) في كتاب شو (Shaw) بعد ترجمته و تحقيقه أنه: "يوجد اليوم (1830) في خزينة المدينة من الكنوز المتراكمة خاصة من الفضة بحيث لا يوجد لها مثيل في كل مدن العالم و تقدر قيمة هذه الأموال في خزائن الداي أربعون مليون قرش (40.000.000 piastres) و يعني أكثر من 200.000.000 فرنك (Shaw 1980: 210) و اهتمام المؤرخ بهذه التفاصيل المادية أكبر دليل على أطماع هذه الدول بالمدينة و دوافعهم الاستعمارية.

3. الأسباب الحربية:

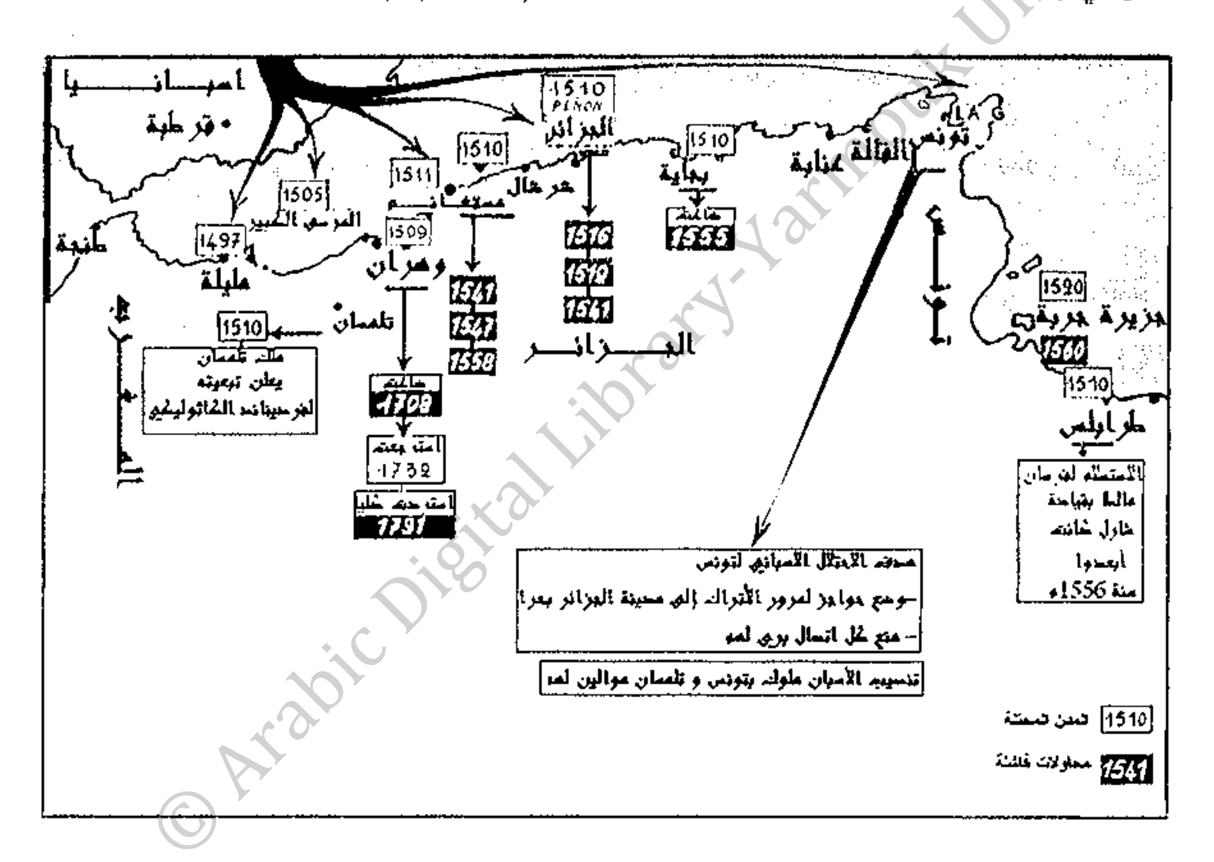
بدأت دول شمال إفريقيا تنتبه للنوايا الاسبانية و غيرها من الدول الأوربية لاحتلال المنطقة. فبدا الأهالي يحصنون المدن و الموانئ باعتبارها النواة الحية فيها كما قاموا ببناء سفن جديدة و سلحوها لتصبح ندا للسفن المسيحية. و زاد الأمر حدة بمجيء مسلمي الأندلس حيث لقنوا سكان شمال إفريقيا فنون الملاحة و بناء السفن. فأصبح الأوربيون متخوفون من هذا المارد القادم خاصة أن الشمال الإفريقي كان دائما مستودع الرجال الذين كانوا يهبون لنجدة مسلمي الأندلس ضد الأسبان (المدني 1984: 68). و خوفا من خطر اتحاد إسلامي موسع في إفريقيا ضد الصليبية الاسبانية و حلفائها أرسل الملك فرديناند عام 1501م وفدا إلى القاهرة عاصمة دولة المماليك لعقد معاهدة صداقة و حسن تعامل بين الطرفين، ذلك أن سلطان مصر قانصوه الغوري كان منهمكا في إيقاف الاحتلال البرتغالي في المنطقة (المدني 1984: 71).

بعد نكسة الأندلس خشي الأسبان من رد الفعل الإفريقي بالرغم من الشقاق و الفتن التي كان المسلمون يعانون منها، إلا أنهم كانوا على علم أيضا أن سكان شمال إفريقيا لا يرضون بالاحتلال و أنهم أقوام ذو عزم و صلابة و بطولات في الحروب. لذلك خشوا وحدة ما تحت قيادة أحد الأبطال كالذين سبقوا و تعاملوا معهم، فالأمة التي أخرجت من أحشائها أمثال طارق بن زياد، و يوسف بن تاشفين، و عبد المؤمن بن علي، ستنجب لا محال قياديا عصاميا لا يرضى بالذل، لذلك قرروا نقل المعركة إلى شمال إفريقيا حتى تصبح معركة الدفاع عن الوطن لا فتح آخر لأراضي اسبانيا التي ما فتئت و أطاحت بالدولة الإسلامية و أعادت المسيحية إلى اسبانيا بعد ثمانية قرون من الحضارة الإسلامية (المدني 1984: 84).

المبحث الثاني:

1. أهم الحملات الأوربية و انعكاسها على الأنظمة الدفاعية بالمدينة:

هب الجزائريون أمام التهديدات المستمرة لبناء و تبني نظاما دفاعيا يبعد عنهم الخطر خاصة بعد احتلال مرفأ عنابة و المرسى الكبير و مدينة وهران و بجاية و خضوع حاكم مدينة الجزائر للأسبان. و زاد الأمر بقدوم العثمانيين تحت قيادة الأخوين عروج و خير الدين اللذان ساهما بشكل كبير في رد الاستعمار عن المدينة و بقية المدن الأخرى (لوحة رقم 1).



لوحة رقم 1: التواجد الاسباني بشمال إفريقيا في القرن 16م (Girouin 1953: Pl10)

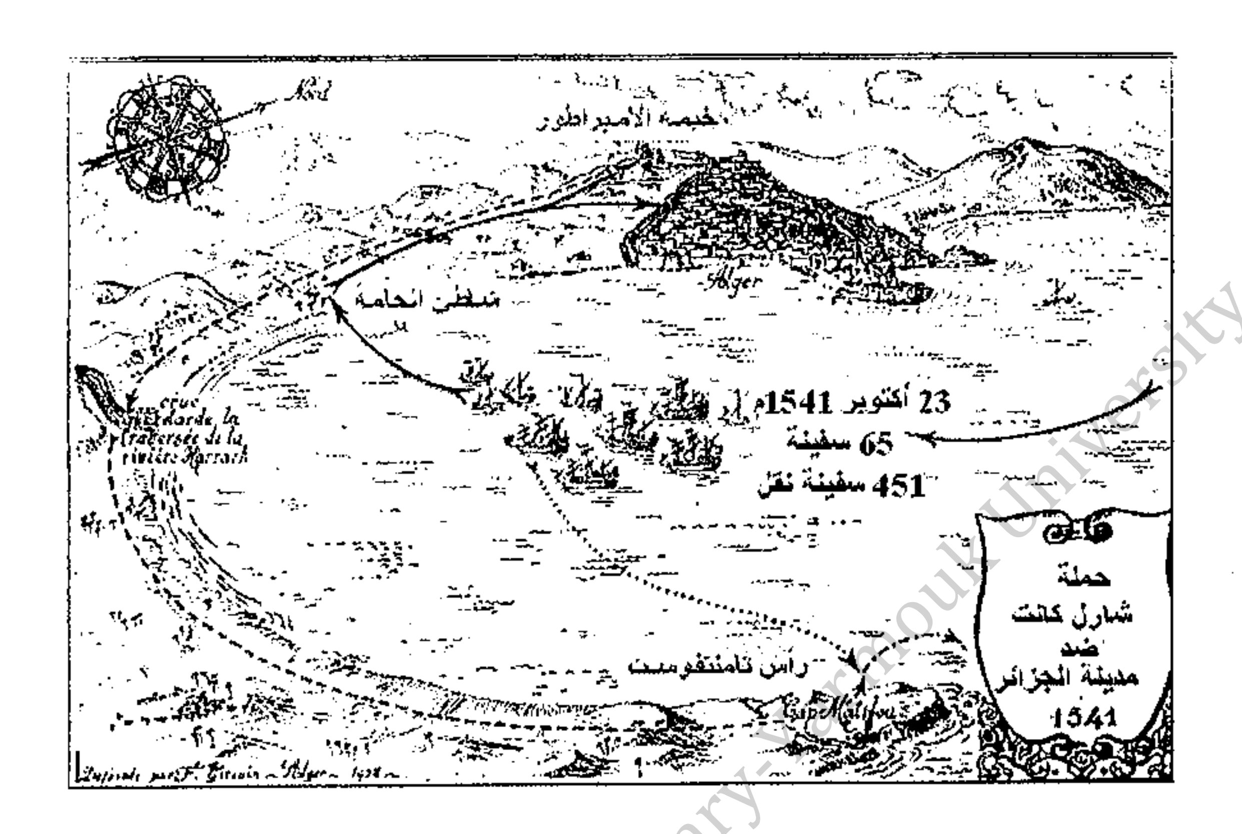
كانت السياسة الجزائرية الخارجية مرنة وذكية، و نما لديها الاقتناع المطلق بالتفوق البحري و الاعتقاد بدوام الدولة كعامل حيوي في سياسة أمة الإسلام، مع الفهم العميق لمخاوف ومطامح و مناهضات أوربا المسيحية. و إن الثقة الجزائرية بالنفس و الاعتقاد الجزائري باستحالة اختراق تراب البلاد كان لهما أساسهما المكين بالنظر إلى الفشل المستمر للحملات الأوربية التي أرسلت ضد الأيالة و هذا باستثناء وهران التي كان يتداول حكمها الأسبان و الأتراك حتى رجوعها نهائيا إلى الحكم الجزائري سنة 1792م (سبنسر1980: 136).

ولد هذا الاعتبار من مولد الأسطول البحري الجزائري الذي جمعه خير الدين سنة 1530م بمدينة الجزائر حيث كان يتألف من ستون سفينة خشبية، و استطاع خليفته حسان من مجابهة الأسبان بأسطول عدد سفنه المحاربة 65 سفينة، أما سفن النقل فهي 460 تحمل 37000 جندي و بحار من بينهم 600 فقط من الأتراك و ما يقارب ألفا من العرب. و عدد هايدو سنة 1581م خمسين سفينة حربية لكل منها خمسة عشر إلى أربعة و عشرين مقعدا للجدف (لكل مقعد ثمانية جدافين)، زيادة عن ثلاثين سفينة أخرى من مختلف الأنواع المنتشرة آنذاك (De Haedo 1998: 99).

لم تتوقف مهارة الجزائريين في بناء السفن و إنما تصاعد ذلك إلى تسليحها أثناء الإبحار مما أدى بالدول الأوربية إلى مصادقة الجزائر في عدة مراحل بدل معاداتها و هذا بالرغم من الهجمات الجزائرية على هذه الدول في بعض الأحيان. و قد زاد قوة البحرية الجزائرية ارتداد بعض الأوربيين أنفسهم و اتخاذ مدينة الجزائر مقر لعيشهم الجديد و اعتناقهم الإسلام أو زعمهم بذلك، و نقلوا بذلك مهاراتهم في الملاحة و صناعة السفن و هم كثيرون (سبنسر 1998: 142).

نتيجة لكل هذه العوامل تعرضت مدينة الجزائر إلى عدة حملات أهمها حملات شارل كانت (Charles Quint) الخائبة بقيادة ملك اسبانيا و الجزر الأوربية الخاضعة له سنة 1541م، و الذي اتخذ من حجة مهاجمة أحد رياس البحر الجزائريين بعض السفن الاسبانية و مصادرتها و أسر من كان فيها لشن تلك الحملة. سمع حسان أغا الحاكم الذي نصبه خير الدين قبل سفره إلى اسطنبول سنة 1535م، بتجهيزات و استعدادات الأسبان، فقام بدوره بتحصين المدينة و بناء الأسوار و سد الثغرات الضعيفة و أمر بتسليح كل نقطة دفاعية، كما أمر بقطع الأشجار المحيطة بالمدينة حتى لا يتخذها الأعداء ملاذا لهم.

في يوم 20 أكتوبر من نفس السنة، وصل الأسطول الاسباني إلى خليج الجزائر و اتخذ من رأس تامنتفوست ملجأ له لحين بدء المعركة (لوحة رقم 2).



لوحة رقم2: إنزال شارل كانت برأس تامنتفوست و تقدمه نحو المدينة (Girouin 1953-54: Pl2)

كان عدد الأسبان 90.000 رجل (De Paradis 1891 in R.A: 183) شارك في الحملة كل نبلاء اسبانيا، ألمانيا و ايطاليا حيث بارك هذه الحملة البابا يوحنا الثالث و اعتبرها من واجب كل من يعتقد بالمسيح عليه السلام. و ليؤكد على أهمية الحملة بعث البابا بحفيده مع الجيش، كما بعثت رهبنة مالطا خيرة جنودها و عددهم 140 فارسا، و 400 من المشاة ووصل عدد الجيش حوالي 24.000 رجل و ألفي فرس. أما الأسطول فكان مكونا من 450 سفينة نقل، و 65 سفينة حربية كبيرة تحمل 12.000 بحارا تحت قيادة أندريا دوريا (Andrea Doria) (المدني 1984: 281-282).

كان شارل كانت متأكدا من نجاح حملته من خلال ما وصله من أخبار من الابن الأكبر للكونت ألكوديت (Comte Alcaudete) حاكم وهران آنذاك، الذي شارك بخيرة رجاله في الحملة. وصلت الأخبار مفادها أنه لا يوجد جيش قوي بالمدينة يجابه هذا الحشد الكبير و قد قدر عدده 8000 من مسلمي الأندلس، 800 جندي تركي، و 1400 مرتد و تكون المجموعة الأخيرة الحامية الأساسية في الدفاع عن المدينة لكنها لا يمكن أن تقدم الكثير دون مساعدة العرب علما أن هناك فتنة مابين العرب و الأتراك و تكاد أن تندلع (Ruff 1998: 85). بدأت المناوشات من الجانب

الجزائري ليلة وصول الأسطول عندما خرجت فرقة من أبواب المدينة و تسللت وسط حشود الأسبان و بدأت بالهجوم و التهليل فاعتقد الأسبان أن عدد الجزائريين يفوق عددهم و بدا إطلاق النار عشوائيا على بعضهم البعض إلى جانب ضربات الأهالي المنهالة على العدو .

وصلت أخبار الهجوم إلى الملك فجمع قادته لدراسة الوضع و قال: "أليس هؤلاء من قلتم عنهم لا يمكنهم الدفاع عن أنفسهم و أنهم ضعفاء؟" (De Paradis 1891: 183).

في اليوم التالي تقدم العدو أكثر من أسوار المدينة لكن ضربات المدافعين كانت كثيفة مما أدى بهم إلى الانسحاب إلى هضبة كدية الصابون خلف المدينة لتنظيم صفوفهم و شن الهجمات من خلالها لكن ذلك لم يمنع الأهالي من شن هجمات مباغتة و استعمال حرب الكمائن التي أرهقت العدو و يقول أحد فرسان مالطا في تقرير له حول المعركة: "إن هذه الطريقة في الحرب قد أذهلتنا، لأننا لم نكن نعرفها من قبل" و قد كان المدافعون الجزائريون يحسنون استعمال كل مرتفع و منخفض من الأرض (المدني 1984: 285).

في ليلة 24 أكتوبر بعث الملك رسولا إلى محمد حسن أغا يحثه على الاستسلام لكن نائب خير الدين أبى و قرر الدفاع عن المدينة و رد عليه "... يوجد عندنا كتائب ستموت لتدافع عن المدينة و سترى نتائج حملتك، استعمل كل قوتك و لا تتراجع و سيعلم الكافر ما سيلقاه... أليست هذه المدينة التي ألحقت بكم الهزائم على أيام عروج ريس و خير الدين باشا؟ و مع هذا ستلقون الهزيمة هذه المرة أيضا بإذن الله" (Rousseau 1841: 102-103* و De Paradis 1891: 191).

حينها كانت عاصفة قد بدأت تضرب المدينة في ليلة ممطرة جدا فرمت بقسم كبير من سفن الاحتلال إلى الشاطئ و أغرقت منها الكثير ووصل عددها 150 سفينة مدمرة (المدني 1984: 289) بينما هاجم الجزائريون السفن الأخرى و قاتلوا فرسان مالطا و اسبانيا ببسالة. صباح اليوم التالي هاجم الأهالي و القبائل التي وصلت لمد يد العون، الجيش من كل الاتجاهات و ألحقت به خسائر جمة. على اثر هذه الأحداث هرب الملك و قائده دوريا إلى الضفة اليسرى من وادي الحراش لكن فرق من عرب النواحي و القبائل تبعت الجيش المنهزم و ألحقت به خسائر جمة. في صباح يوم 28 أكتوبر لم يستطع الجيش العبور إلى الضفة الأخرى من الوادي بسبب ارتفاع منسوب المياه، فبنوا جسر من الخشب المتناثر من بقايا السفن المدمرة ليلقاهم أيضا جموع من العرب و يوقعوا بهم خسائر أخرى، في حين واصل الملك مسيرته باتجاه تامنتفوست ليستقل ما بقي

---

* مترجم عن مخطوط باللغة العربية" الزهرات النيرات" للمؤلف محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلالي بن رقية المعروف بالتلمساني، ألف هذا الكتاب لحشد همة الجزائريين للدفاع عن وطنهم أمام الغزوات الصليبية.

من سفنه و يعود إلى وطنه منكسرا و محبطا للهزيمة النكراء، و تم إجلاء كل الأحياء منهم و الجرحى يوم 3 نوفمبر 1541م ليصبح هذا التاريخ وصمة عار على الجيش الاسباني، الذي خلف وراءه 12.000 قتيلا من جيشه و عدته الحربية من مدافع و سيوف و خناجر و بنادق (De Paradis 1891: 193).

إن ما يهمنا من ذكر تفاصيل المعركة هو النظام الدفاعي الذي كان قائما بالمدينة، و هل حقا كان فعالا لمجابهة تلك الحملة و ما ذكر في رسالة الملك بقوله "إن لم أتمكن من المدينة الآن فسأحاصرها..."، فهل هذا يعني أن الجيش لم يكن مجهزا أحسن تجهيز أو أن المدينة كانت جيدة التحصين؟ و لما يوجد تضارب في التقارير حول فعالية التحصينات الدفاعية. و من النقاط الأخرى التي شدت انتباهي من خلال تفاصيل المعركة الفراغ الذي وجد في بعض الأماكن مما أدى بالعدو إلى استغلالها إما للنزول أو الاحتماء بها، أو اتخاذها كنقطة لقصف المدينة أو الهروب عبرها و عدم وجود حامية عسكرية توقف هذا التسلل.

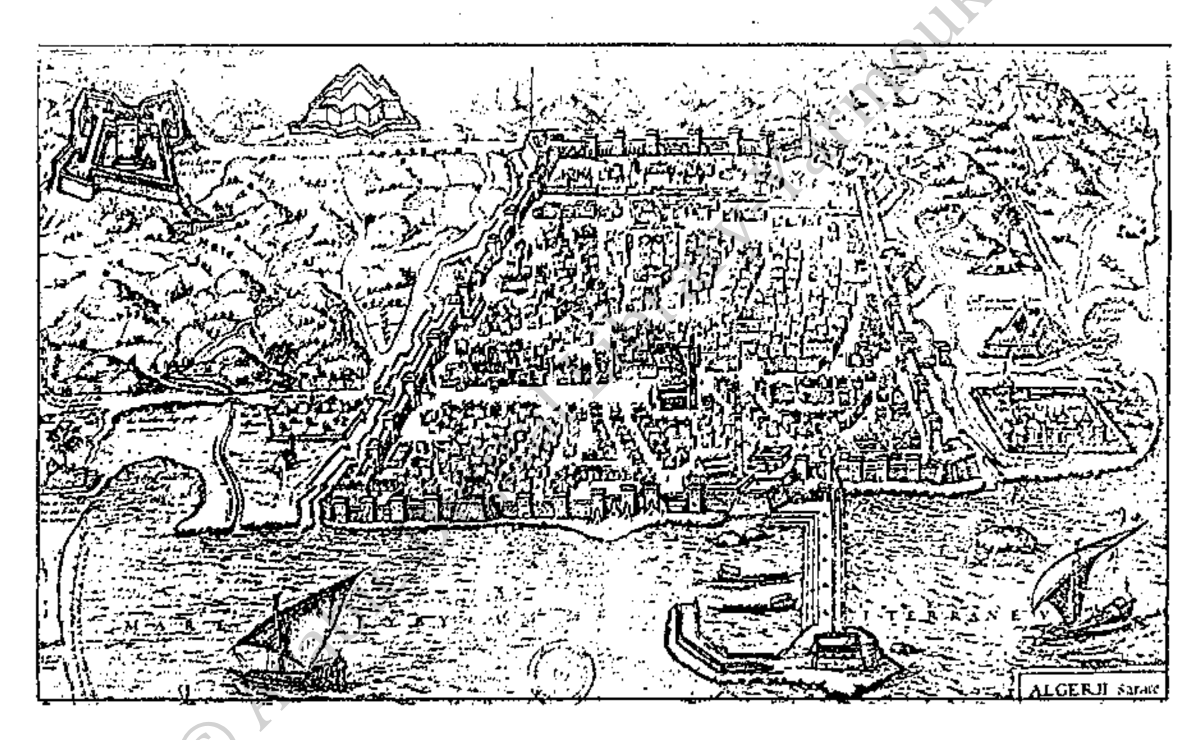
و هذه النقاط هي: جهة تامنتفوست الواقعة في الجزء الشرقي من خليج الجزائر و كانت حينذاك غير محصنة أو محروسة، مما سهل نزول العدو و تقدمه باتجاه المدينة برا.

يتحكم رأس تامنتفوست في مدخل جون الجزائر من الناحية الشرقية و الشمالية الشرقية الذي كانت تلجأ إليه السفن الغازية للرسو و الإنزال البري خاصة في فصل الصيف حيث يكون الشاطئ محميا جيدا من الرياح (Shaw 1980: 309).

تفطن أهالي الجزائر لهذه المنطقة الحساسة و أقاموا برجا لحماية الميناء الذي كان يعمل بالتناوب مع ميناء الجزائر، فالأول كان يستخدم صيفا ضد الرياح الشرقية و الثاني شتاء تجنبا للرياح الغربية (خلاصي 1991: 107).

ثانيا كدية الصابون و التي لم يستغلها الجزائريون للحفاظ على أمن المدينة من الجهة الخلفية و تركيزهم على تحصين الميناء فقط و ما جاوره، مما سمح للعدو باتخاذها نقطة مهمة في قصف أسوار المدينة الخلفية ومنطلقا هاما لهجماته بالإضافة إلى احتلال بعض التلال المجاورة فأضحت المدينة مطوقة من عدة جهات (المدني 1984: 283). ثالثا و أخيرا وادي الحراش و ضفتاه حيث تركت دون حماية مما ساعد العدو أيضا من اتخاذها نقاطا سهلة في التحرك.

اهتم الحكام بتحصين المدينة و تجديد أسوارها و بناء الأبراج و الحصون و تحصين الميناء مباشرة بعد هذه الحملة (Gramaye 1998: 62). لكن الباشا توفي سنة 1544م و لم يكمل إصلاحاته بالمدينة. و في سنة 1547م توفي خير الدين أيضا و كان حريصا جدا على تحصين المدينة و تقوية أسوارها لأنه كان على علم بحكم تجربته و تعامله مع الأسبان، أنها لن تكون آخر حملة لهم و أنهم راجعون لا محال. و مع ذلك عرفت المدينة بعد حملة " شارل كانت" نشاطا عمرانيا واسعا تمثل في بناء القصور و المساجد إلى جانب الحصون، كما عرفت الجزائر لأول مرة حدودها الثابتة دون تدخل الدول المجاورة، بل على العكس أصبحت الحصن البحري المنيع أمام الغزاة و عرفت باسم الجزاير المحروسة (لوحة رقم 3).



لوحة رقم 3: تطور تحصينات المدينة و ضواحيها في النصف الثاني من القرن 16م (Esquer 1929: Pl1)

زادت هيبة و سيطرة المدينة في منتصف القرن السادس عشر ميلادي حين أصبحت و ما بعد ذلك القوة الضاربة في الأسطول العثماني في حروبه ضد أوربا فشارك الأسطول الجزائري في عدة معارك كمعركة مالطا سنة 1564، قبرص 1570 و ليبانت (Lépante) عامي 1571 و 1630م في حملة لمساعدة السلطان مراد الرابع ضد البندقية و حملة 1759 و 1774 لمساعدة السلطانين مصطفى و عبد الحميد ضد الروس و اليونانيين (Gramaye 1998: 63-64).

بالرغم من هذا كله لم تسلم الجزائر من الهجمات بل على العكس اجتمعت عليها كل الأمم الأوربية و يسجل التاريخ ذلك، فحقد الأسبان على الجزائر جراء هزيمة 1541م بقي في أذهان كل أوربي، فكانت سنوات 1603، 1604، 1607، 1608، 1610، 1613م كلها سنوات حملات فاشلة على المدينة من اسبانيا و حلفائها، لذلك اتخذت اسبانيا إستراتيجية فرق تسد و ذلك بإبرام اتفاقيات مع بعض شيوخ القبائل المناهضين لحكومة الجزائر و أيضا مع ملك جبال كوكو، فغرست جواسيسها في قلب المدينة. و في سنة 1603م قاد نائب ملك مايورقا حملة ضد المدينة على أساس اتفاق مع ابن ملك كوكو عبد الله، و عندما وصل الخبر إلى سليمان باشا هدد عبد الله فتراجع هذا الأخير عن خطته فباءت الحملة بالفشل و قتل كل من كان في السفن الاسبانية (De Grammont 2002: 135) و هكذا استمرت المحاولات الاسبانية دون جدوى.

سنة 1620 وجهت أول حملة انجليزية ضد المدينة بأمر من الملك جاك الأول، و قام قائد الحملة بتدمير جزء من الأسطول الجزائري الذي كان بالميناء، كما أحدث أضرارا معتبرة في تحصينات المدينة. لكن الانجليز لم يتلقوا شيئا و لم يبرموا حتى اتفاقا يضمن سلامة سفنهم من السفن الجزائرية، بل العكس سرعان ما انسحبت السفن الانجليزية التقت في طريق العودة بالسفن الجزائرية عائدة فهاجمها الجزائريون و تم الاستيلاء على 40 سفينة انجليزية جلبت إلى الميناء كغرامة على الأضرار التي ألحقت بالمدينة (Gramaye 1998: 26-28).

كانت سنة 1681م من أشد السنوات تأزما على الجزائر، حيث أعلنت الحرب بين الجزائر و فرنسا البلد الذي لطالما كان حليفا أساسيا ضد التدخل الاسباني، و ذلك بسبب عدم التزام فرنسا بالمعاهدة القائمة بين الطرفين و هي إطلاق الأسرى الجزائريين المحتجزين لديها. و كذلك عدم رد الملك لويس الرابع عشر على رسائل الداي بابا حسن، فنفذ صبر الداي و أعلن الحرب على فرنسا و ألغى كل الاتفاقات و معاهدة الصلح. كان القنصل الفرنسي آنذاك بالجزائر قد حذر الديوان الملكي من مغبة هذه الأوضاع، لأن سفن تجارية فرنسية كثيرة كانت بالمياه الجزائرية و احتجازها يعني خسائر اقتصادية معتبرة و المئات من الأسرى (Misermont 1905: 1-22).

سرعان ما ألغيت الاتفاقيات حتى سلح البحارة الجزائريون سفنهم و بدأ الهجوم على السفن الفرنسية. فبعث القنصل لو فاشي **"Le Vacher"** بتاريخ 13 ديسمبر 1681م، رسالة موجهة إلى كهان مدينة مرسيليا يدعوهم للتدخل، و ذكر أنه في ظرف ستة أسابيع أسر الجزائريون 300 أسير فرنسي و صادروا 29 سفينة بها حمولات تقدر 250.000 ايكو* **"Ecu"** كما سيطروا أتم السيطرة

ايكو: وحدة نقدية فضية ضربت بفرنسا ما بين منتصف القرن السابع عشر و حتى نهاية القرن الثامن عشر وزنها 29.5غ.

على البحر و لم يتورعوا حتى على إحتجاز سفينة ملكية عليها رسول الملك شخصيا و أربعون ممن كانوا معه في طريقهم إلى السواحل الايطالية (Misermont 1905: 23).

بدأ قصف المدينة بتاريخ 20 أغسطس 1681، و كان قصفا مستمرا ألحق بالبيوت و المساجد و الدكاكين خسائر كبيرة، لكن الرد الجزائري كان عنيفا أيضا لأن التحصينات كانت جيدة خاصة من جهة الشمال و الجنوب من المدينة حيث كانت حصون باب عزون و حصن باب الوادي و حصن 24 ساعة تصد القذائف من جهة الميناء، و كان حصن رأس بيسكاد يصد الهجمات من جهة البر كما كان محيط الميناء كله مزود بالمدافع (Misermont 1905: 34).

استمر قصف المدينة بلا هوادة في يومي 25-26 أغسطس بينما بعث القائد دوكسن (Duquesne) برسول إلى الداي للاستسلام. لكن هذا الأخير رفض و استمر القصف و الدفاع عن المدينة إلى يوم 12 أيلول، حيث بدأ الجو يتغير و بدأت الأمواج تلتطم بالسفن الفرنسية بقوة، فاحدث فزعا بين صفوف العدو مما أدى إلى تراجع جزء من هذه السفن إلى مدينة تولون في حين بقيت أربعة منها قبالة الميناء لمنع السفن الجزائرية من الخروج و مباغتة العدو.

توقفت الحملة بأمر من الملك حيث بدأت مراسلات بين الطرفين لفض النزاع و إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه. و مع هذا كان دوكسن يستعد لحملة أكبر و أقوى ضد المدينة، أفهمه الملك خلالها أنه لم يكن راضيا عن الحملة الأولى و أنه مطالب بتحقيق نصر ساحق و إنهاء حكم مدينة الجزائر بالمنطقة (Misermont 1905: 46).

انطلقت الحملة الثانية في بداية شهر مايو من عام 1683م، لكن البحر و اضطرابه أعاق مسير الأسطول و دمر جزء منه فتأخرت الحملة إلى شهر حزيران حيث اتخذت مكانها قبالة الميناء و بدأ القصف ليستمر مدة ساعتين ألقيت خلالها 80 إلى 90 قذيفة معبأة كل واحدة منها باثني عشر إلى خمسة عشر ليبرة* من البارود. كان القصف مستمرا و المفاوضات جارية، و هدفها ليس تدمير المدينة فحسب و إنما إذلالها لأن الشروط التي و ضعت من قبل دوكسن كانت مهينة و نصها:

- الاستسلام و إعادة كل الغنائم لفرنسا.
- إطلاق سراح كل الأسرى، و الاعتذار للملك الذي كانت أوربا كلها خاضعة له.

---

* ليبرة: تساوي في فرنسا نصف كلغم و في انجلترا 435.592غ (Doty 1 982: 116)

- التعويض عن تكاليف الحرب.

كل هذا مقابل توقيف القصف، لكن الداي رفض و فضل أن تصبح المدينة رمادا على تسليمها. و نتيجة للمفاوضات انشق مجلس الحرب بين مؤيد للهدنة و معارض و كان من بين هؤلاء قائد في مجلس الحرب و معارض لسياسة الداي و هو ميزومورتو (Mezemorto)، حيث رفض الاستسلام و حرض الجيش على الداي الذي قتل في الأخير بعدما اتهم بتخاذله اتجاه الفرنسين. نصب على إثرها القائد المتمرد دايا و طلب إمهاله مدة لجمع الأموال المطلوبة، لكنه كان يرمم و يصلح ما أحدثه القصف، و بعد 23 يوم من الهدنة أطلق الفرنسيون قذيفتين للإنذار فرد ميزومورتو بالمثل و هدد بقتل كل الأسرى إذا لم يتوقف القصف. يوم 29 يوليو، اشتد القصف و طلب الجنرال الفرنسي الأموال المستحقة فرد عليه الداي أنها من حق الجزائريين لترميم البيوت المنهارة، في نفس الوقت كانت بعض المراكب الفرنسية تحاول اقتحام الميناء فانقض عليها الجزائريون و أسروا طاقمها و نفذ فيهم حكم إعدام برميهم من فوهات المدفعية و على مدى كل أيام القصف استمر هذا الفعل انتقاما لما حل بالمدينة. مع هذا تعنت الجنرال و رفض التحاور حتى مع القنصل العارف بطبيعة الجزائريين و الأتراك (Misermont 1905: 75). استمر حصار المدينة إلى يوم 11 أيلول، فأمر الملك مرة أخرى انسحاب الحملة تخوفا من انقلاب الموازين جراء اقتراب الشتاء و هكذا عاد دوكسن و أسطوله إلى فرنسا دون أن يحقق الأهداف المرجوة و اكتفى باسترجاع الأسرى.

كلفت هذه الحملة الخزينة الفرنسية 400.000 ليرة، كما خسرت الكثير من الامتيازات في المياه الجزائرية كاحتكارهم لصيد المرجان لفترات طويلة بالإضافة إلى أنواع أخرى من التجارة، مما أنهك كاهل الملك فأمر بإنهاء الحرب و العمل على إنجاح المفاوضات. و في تاريخ 2 نيسان 1684م، بعث الملك بوفد إلى الداي يدعوه لعقد المصالحة و انتهت المفاوضات بوضع الداي شروطه و هي:

1. تبادل الأسرى رأسا برأس، و إذا زاد عدد أحد الأطراف يحدد السعر المتفق عليه.
2. عدم دفع الجزائر أي مستحقات كتعويض عن خسائر الحملة الفرنسية.
3. عدم الحديث عن أي أموال مستقبلا و نسيان ما حصل بالإضافة إلى شروط أخرى.

لم يوافق الملك في البداية لكن توصل الطرفان إلى معاهدة تضم 29 شرطا أخرها إمضاء معاهدة سلم لمدة 100سنة (Misermont 1905: 91).

لم تكن الأوضاع الداخلية أيضا مبشرة، فالفوضى و الفتن و الدسائس كانت تعم المدينة، بالإضافة إلى مرض الطاعون و الزلازل المدمرة. أما الحكام فكانوا منهمكين في محاولاتهم لتحرير مدينة وهران من بطش الاستعمار الاسباني (Misermont 1905: 225).

خلال السنوات اللاحقة لهذه الأزمات تمرد الحكام على الباب العالي و فصل الأمر حيث أصبحت أمور المدينة تسير من طرف الحكام دون الرجوع إلى السلاطين العثمانيين. كان اهتمام الحكام منصبا على حماية المدينة من الأخطار الاستعمارية الأكيدة، فاهتموا كثيرا بإصلاح الأسوار و المعالم الدفاعية و بناء المزيد منها كلما تراءت مخاطر حملة ما على المدينة (Misermont 1905: 227).

و هكذا مضت السنون و بقيت الجزائر في نفس الأوضاع مرة تعلن الحرب على أعدائها و مرة أخرى تعلن الحروب عليها. ففي سنة 1770م، توجهت حملة دانمركية إلى الجزائر و عند وصولها إلى خليج المدينة لقيت مقاومة عنيفة مما أدى بها إلى الانسحاب بعد ستة أيام. و بعد سنتين من ذلك رجعت الدانمرك تطلب هدنة مع الجزائر فكلفها ذلك كثيرا حيث لم تقبل الجزائر بالهدنة إلا بعد دفع: 50.000 سوكه (suca) لمحاولة الدنمارك تحطيم المدينة، أربعة مدافع كبيرة من البرونز، 400 قنبلة، 40 مدفع من الحديد، 4000 قاذفة أو كرة حجرية، 500 قنطار من البارود، 50 سارية سفن كبيرة، عدد كبير من الحبال و السلاسل المخصصة لرسو السفن بالإضافة إلى الكثير من الأخشاب و أخيرا دفع ضرائب السنوات المتأخرة منذ نقض الهدنة (الجيلالي 1994: ج 3، 239-240 و بوعزيز 1993: 21).

و قد عدد المؤرخون أهم الحملات البحرية التي تعرضت لها مدينة الجزائر هي:

1. محاولات اسبانية متتالية سنوات 1516-1518-1541م، و شنها كبار القادة العسكريين في تلك الفترة و هم دييغو دي فيرا (**Diego De Vera**)، هوقو دي مونكاد (**Hugo De Moncade**)، و أخيرا شارل كانت (**Charles Quint**)(Klein 1913: vol 6, 92-94) (الخريطة رقم 4).
2. سنوات 1622-1665-1672م، قصف انجليزي للمدينة في حملات عدة قادها، منسال (**R.Mansell**)، لاوسن (**Lawson**) و ماربورو (**Marborough**).
3. حملة هولندية سنة 1680 بقيادة رويتر(**Ruyter**).
4. حملات فرنسية منذ سنة 1661م ثم سنة 1665م بقيادة دي بفور(**De Beaufort**) و سنة 1682-1683م بقيادة دوكسن (**Duquesne**) و استري (**Estrées**)) سنة 1688م.

5. محاولة دنمركية قادها الأميرال كاس (**Caas**) سنة 1770.
6. حملات اسبانية بقيادة أور يلي (**Oreilly**) و بارسيلو (**Barcelo**) سنة 1775-1783-1784م.
7. سنة 1816 قصف انجليزي هولندي قاده كل من اللورد اكسموث (**Exmouth**) و فون كابيلو (**Von Capellon**) (Laye Yves 1951: 32) و (Klein 1913: vol 6, 96-99).
8. 1824م محاولة انجليزية بقيادة نيال (**Neal**).
9. 1827- 1829م محاصرة فرنسية للجزائر.
10. 1830 م احتلال فرنسا للمدينة (Belhamissi 1990: 15).

من خلال ما تقدم وجب التوقف عند تحصينات المدينة و أنواعها و طرق بنائها و مدى فعاليتها في صد هجمات الأعداء، علما أن الكثير من المشككين الذين زاروا المدينة نفوا وجود نظاما دفاعيا قويا و أن فشل الحملات الأوربية كان إما لعدم التنظيم الجيد أو من باب الصدفة. و هنا يرد السؤال كيف كانت التحصينات الدفاعية للمدينة و ما مدى الدور الذي أدته في حفظ أمنها؟

شدت الجزائر إليها أنظار الكثير من المؤرخين و الباحثين من الناحية العسكرية و إستراتيجيتها الدفاعية، و اهتموا كثيرا بمعرفة مميزاتها آنذاك و اتفق هؤلاء في تقاريرهم على كون الجزائر من المدن الحربية (المجاهدة) بفضل سيطرتها على التجارة البحرية، و قوتها الدفاعية من خلال أسوارها و حصونها العديدة.

و يذكر احدهم في نصوص القرن 17م، أن الجزائر المرعبة تفوق كل المدن البربرية تحصينا فأسوارها العالية المبنية بالحجارة ذات السمك الكبير تعطي الانطباع بأنها مدينة لا تقهر و يستحيل احتلالها (Meyzie 2004: 6).

2. الأنظمة الدفاعية في مدينة الجزائر:

في تاريخ 13 يوليو 1767م قدم الأميرال أنجلو ايمو (Angelo Emo) إلى الجزائر على رأس حملة بعث بها مجلس شيوخ جمهورية البندقية في مهمة لتجديد معاهدة السلم لسنة 1763م بين البندقية و الجزائر(سبنسر1980: 42). رفض الداي علي محمد الاستماع إلى الأميرال فانسحب هذا الأخير بعد تدوين كل المعلومات حول التحصينات الدفاعية و الميناء و يقول في تقريره: "لا يحمي المدينة من جهة البر إلا سور قديم غير صالح و هو بدون خندق، و يمكن لهذا السور أن يكون نافعا في بعض هجمات المغاربة و هم غير مسلحين، و لكنه لا ينفع مع الأوربيين إذا ما جندوا جيشا قويا و دخل من هذه الجهة. أما من جهة البحر فيحصن المدينة مجموعة من الأبراج الصغيرة يمكن أن تجعل نزولنا صعبا لكنه ليس مستحيلا. كما يحصن الميناء القريب من المدينة رصيف تحرسه مجموعة بطاريات مسلحة بمائة و أربعون مدفعا أغلبها من العيار الكبير، أما في محيط الميناء و بالقرب منه فيوجد مجموعة أخرى من الأبراج المختلفة الأشكال و المزودة بالمدافع الكبيرة قد يصل عددها إلى 300 مدفع لحماية المدينة. إن معظم المعالم و البطاريات بالرغم من شكلها الغريب إلا أنها بنيت بذكاء كبير حيث يمكنها أن تقف بالمرصاد لكل السفن و الزوارق إذا ما اقتربت من الميناء. يوجد أيضا أبراج أعلى الهضبة و أطراف المدينة واحد منها يعد الأكبر، لكن هذه الأبراج التي يعتمد عليها الجزائريون كثيرا ليست بالمهمة ذلك أن موقعها المتواري إلى البر يجعل من ضرباتها غير مصيبة كثيرا خاصة السفن الحربية الجيدة. أما بالنسبة لبطاريات رصيف الميناء و الأبراج المجاورة له، و بالرغم من عددها و قوة التصدي لنا إلا أنها تفتقد البناء الجيد القوي ذلك أن جوانبها الخلفية ليست مبنية بالتراب المركوم مما يجعلها ضعيفة أمام ضربات السفن إذا ما كانت مسلحة بالمدافع الكبيرة و استمر القصف لساعات طويلة فإنها ستنهار. إن تدمير المدينة أصبح وشيكا و لا يحتاج إلا لساعات فقط و أربعة فقط من السفن الجيدة البناء و التسليح (Sacerdoti 1951 in R.A: 187-188).

هكذا كان تقرير الأميرال ايمو (Emo) حول أوضاع تحصين مدينة الجزائر في تلك الفترة، و هنا نتساءل إذا كانت مدينة الجزائر تفتقر إلى نظام دفاعي قوي ما الذي جعلها تصمد أمام كل الحملات الأوربية المتتالية؟ و إن كان عكس ذلك فما مميزات هذه المعالم و التي جعلت من المدينة تقف بالند مع الدول الأوربية. فتوفير الحماية العسكرية للمدينة ضد أي هجمة كانت الشغل الشاغل لحكام المدينة على امتداد الفترة العثمانية كلها. لكن اللافت للانتباه هو أن التحصينات القوية كانت موجهة إلى البحر بحكم الحركة المستمرة للأسطول الجزائري و القصف القادم من البحر أيضا. و

هنا نلاحظ أن كبار المخططين في تحصين المدينة أغفلوا إمكانية الاعتداء من جهة البر كما حدث لاحقا مع الاستعمار الفرنسي، و هذا ما سأوضحه من خلال استعراض المباني الدفاعية للمدينة.

2. 1. الأسوار:

اهتم عروج منذ مجيئه إلى الجزائر بتقوية أسوار المدينة و سار على نهجه أخاه خير الدين و خلفاؤه من بعده و قد تولى حسان بن خير الدين بنفسه إعادة بناء الأسوار ليصل ارتفاعها ما بين 11 و 13م حيث تزيد في الاتساع و الارتفاع كلما اتجهنا نزولا إلى البحر(Klein 1937: 71).

وصف ليون الإفريقي أسوار مدينة الجزائر قبل سنة 1517م بأنها أسوار جميلة و قوية جدا مبنية بالحجارة الكبيرة (Jean-Leon 1956: T2, 349) (لوحة رقم 4).

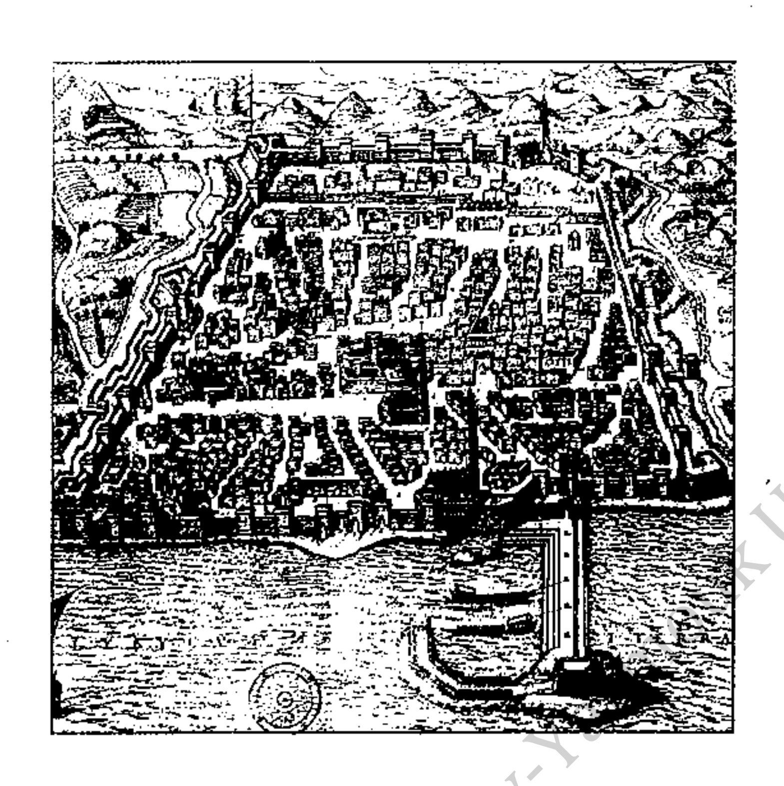
يحيط بجزائر المغازي و الجزائر المحاربة سور يبلغ سمكه 12 قدم* (3.66م)، ارتفاعه 40 قدم (12.20م) من جهة البحر و 30 قدم (9.15م) من جهة البر(J.M.H.B 1830: 38) و طوله الكلي 3400 خطوة** (2591 م).

و في سنة 1541 ذكر أحد الأسرى الأسبان في المدينة أن أجزءا كبيرة من الأسوار مبنية من اللبن و الأجزاء السفلية منها مطلية بالجص (Missoum 2003: 123) و بعد سنوات ذكر هايدو في كتابه أيضا أسوار المدينة قائلا أنها مبنية بالجص و الرمل تتخللها فتحات. يصل ارتفاع الأسوار جهة البر 6 أمتار و من جهة البحر 8 أمتار (Haedo 1998: 37)، بينما وصفها أسير برتغالي في النصف الأول من القرن الثامن عشر على أنها مبنية من الآجر على قواعد من الحجارة المصقولة ارتفاعها من جهة البر 10 أمتار و من جهة البحر أكثر من 13 مترا.

---

* القدم: وحدة قياس تساوي 30.48 سم.

** الخطوة: تساوي 2 قدم و نصف القدم.



لوحة رقم 4: أسوار مدينة الجزائر في القرن 16م (Esquer 1929: Pl1)

في بداية القرن التاسع عشر بعث نابليون قائد السرية بوتان (Boutin) إلى الجزائر لدراسة أحوال المدينة و وضع إستراتيجية احتلالها (Missoum 2003: 123) . و جاء في دراسته أن السور يتخذ شكلا مثلثا متساوي الأضلاع تقريبا، يرتكز أحد أضلاعه على البحر و الضلعان الأخران يرتفعان على نتوءات مختلفة عند طرف تل مائل و هذا راجع إلى طبوغرافية المدينة. ينتمي هذا التل إلى مجموعة من التلال المحيطة بالمدينة، أعلى نقطة فيها مخصصة لمراقبة الميناء(و موقعها بالتحديد فوق جبل بوزريعة على ارتفاع 407 م باتجاه شمال- شمال شرق المدينة (Boutin 1927: 18).

بني السور على تراب مركوم عرضه ما بين 3 إلى 5 أقدام(0.91 م إلى 1.52 م) يعلوه متراس سمكه ما بين 1 إلى 3 أقدام(0.30 م إلى 0.91 م) يتخلله فتحات للرماية و للمدفعية، و بهذا يكون السمك الإجمالي لسور المدينة يتراوح ما بين 5-8 أقدام أو أكثر(1.52 م – 2.44 م). يوجد بين مسافة و أخرى سلالم تؤدي إلى التراب المركوم الذي يتراوح ارتفاعه عن سطح أرض المدينة ما بين 8-20 قدم (Boutin 1927: 32-33).

بني السور بالآجر يربطه الملاط الكلسي الدهني و التربة الحمراء و الرمل، و يرتكز في بعض المواضع على أسس من الحجارة الكبيرة المشذبة و على بقايا سور ايكوزيوم الرومانية يدعمه على بعد مسافات صغيرة أبراج مربعة الشكل تقريبا قليلة البروز و 16 حصنا تتخللها 214 فتحة مدفعية

(Lespes 1930: 118). يتوج ارتفاع السور المقدر ما بين 11 و 13م مجموعة من فتحات الرماية و 214 فتحة للمدفعية، بالإضافة إلى ممشى حراسة عرضه 2م. كان السور في بعض المناطق مزدوجا و في أماكن أخرى ثلاثيا (Klein 1912: vol 4, 75).

تعرضت أسوار المدينة للتخريب و التدمير على يد الاحتلال الفرنسي سنة 1844م و استمر ذلك أيضا سنة 1871م حيث دمر الجزء الممتد من القصبة إلى أطراف المدينة من جهة باب الوادي (Devoulx 2003: 63) و لم يبق اليوم منها إلا الأجزاء القليلة متناثرة هنا و هناك جراء التهيئة العمرانية الجديدة للمدينة المتواصلة (Klein 1912: vol 3, 74-76).

2. 2. الخندق:

أمر بحفر الخندق حسن أغا سنة 1535م و جاء على شكل مثلث تقريبا في كل جهة منه يوجد منحدر من التراب. يقدر عمقه ما بين 6 و 8 م و يحيط به من الخارج سور ارتفاعه 6 إلى 8 أقدام و سمكه 12 إلى 15 بوصة* (Boutin 1927: 32)، أما عرض الخندق فيقدر ما بين 18 و 25م. و كان جافا و مردوما بالأتربة و الأعشاب إلى أن أمر الباشا أعراب أحمد بتنظيفه و توسيعه سنة 1573م ابتداء من القلعة إلى البرج المشكل للزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة بالقرب من باب عزون حيث أصبح عمقه 7 أقدام و عرضه 20 قدم (Devoulx 2003: 95) ثم قام مصطفى باشا سنة 1598م بتنظيف الخندق و توسيعه مرة أخرى من كل الجهات.

2. 3. أبواب المدينة:

ينفتح في أسوار المدينة خمسة أبواب رئيسة و هي المعروفة و المتداول بأسمائها إلى يومنا هذا بالرغم من اندثارها كليا و عدم التمكن من تحديد موقعها الأصلي و هي: باب الجديد و يقع في الجهة الجنوبية الغربية من القصبة و يدخل عبرها القادمون من الغرب و من البليدة. باب عزون و يقع جنوب المدينة و هو من أهم البوابات حيث تؤدي إلى الطرق الداخلية للمدينة. باب البحر أو كما كان يطلق عليه باب السردين أو الصيادين أو باب الجمارك و هي أسماء تتناسب مع الدور أو المهن التي كانت تؤدى من خلاله و تقع في الجهة الشرقية و يؤدي مباشرة إلى البحر. باب الجزيرة و يعرف أيضا بباب الجهاد حيث كان يخرج المجاهدون منها لمجابهة الغزاة و الرد على هجماتهم، و يؤدي مباشرة إلى الرصيف، أطلق الفرنسيون عليه اسم باب فرنسا عند احتلالهم الجزائر، و يعد أشد الأبواب متانة و مناعة كان بجانبه العديد من الثكنات للانكشارية البحرية. و أخيرا باب الوادي

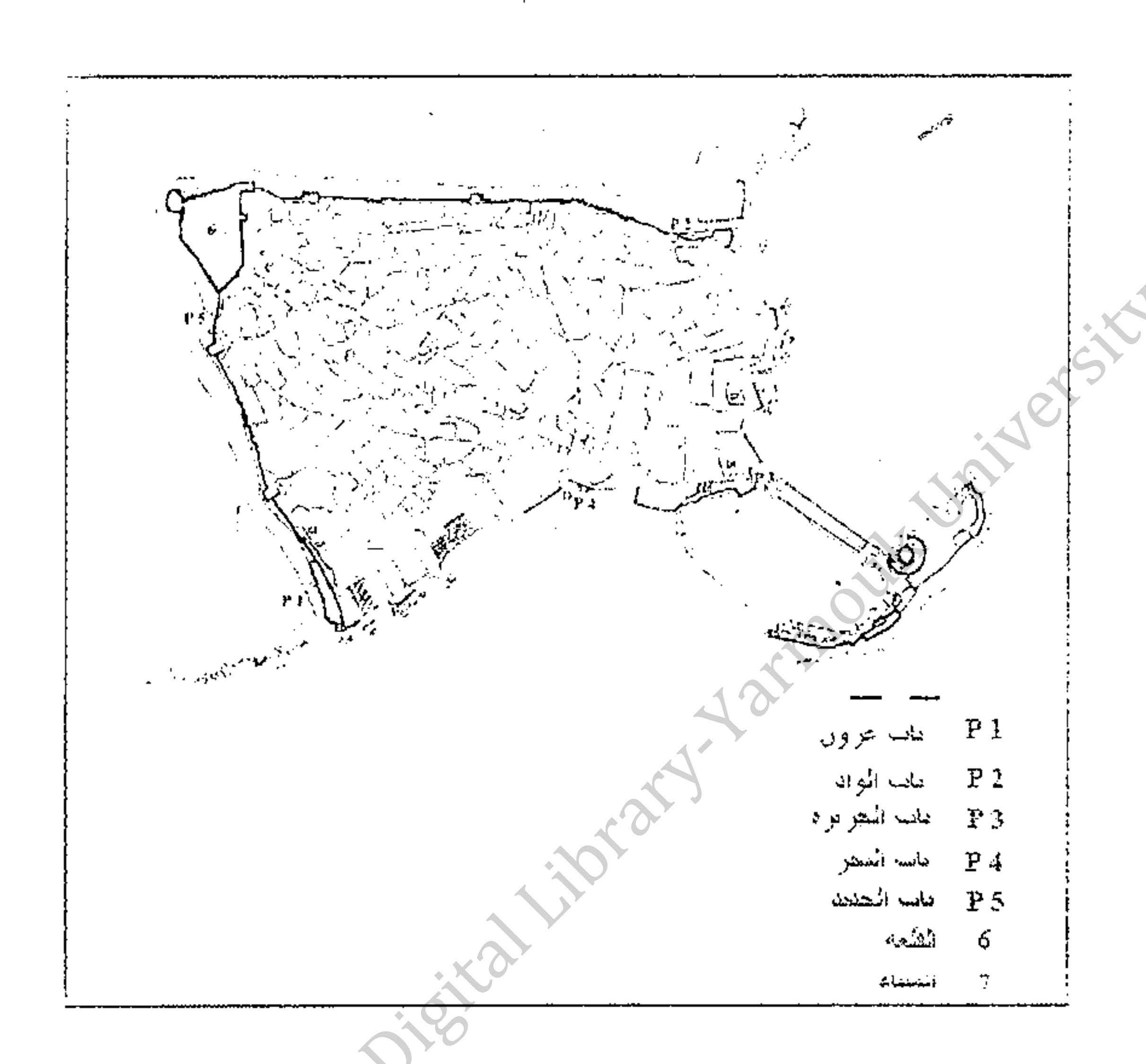
---

* بوصة: أو انش و تساوي 2.54 سم.

في الشمال نسبة للوادي الذي يمر بجانبها. (Laye 1951: 32-33 و المدني 1984:،233- 234) (لوحة رقم: 5).

هذا و قد اختلف المؤرخون حول عدد الأبواب حيث يذكر هايدو في نهاية القرن السادس عشر على أنها تسعة أبواب تسهل دخول و خروج السكان حيث أضاف إليها بابا القصبة و بابا دار الصناعة(De Haedo 1998: 38-39).

لم يذكر المؤرخون بعد هذه الفترة سوى خمسة أبواب لأنها الرئيسية و قد يكون هناك أبواب أخرى ثانوية. يخضع فتح و غلق الأبواب إلى نظام خاص بالمدينة يلتزم به الجميع كما يحرس كل بوابة عدد من الحراس يسهرون على سير النظام بها و مراقبة السلع التي تدخل عبرها، خاصة باب عزون لأن عبرها يخرج الناس إلى البساتين و الحقول و عبرها أيضا يدخل سكان القبائل و المناطق المجاورة لبيع محاصيلهم و الطريق المؤدي إليها يربط بين المدينة و شرق البلاد و كان لباب عزون جسر يرفع عند الخطر. تغلق الأبواب عند الغروب و لا تفتح لأي من الأسباب إلا عند الشروق من اليوم التالي، و توضع المفاتيح عند قائد الحرس حيث يستلمها الحراس عند الصباح. و في أيام الأعياد و الجمعة كان باب الجزيرة يقفل و لا يفتح إلا بعد الصلاة و ذلك تحسبا لهروب الأسرى و حدوث ثورة وفقا للاعتقاد الذي كان سائدا أن زوال المدينة سيكون يوم جمعة حيث يتمكن منها المسيحيون (Missoum 2003: 130).



لوحة رقم 5: أبواب المدينة (ميسوم 2003: 139)

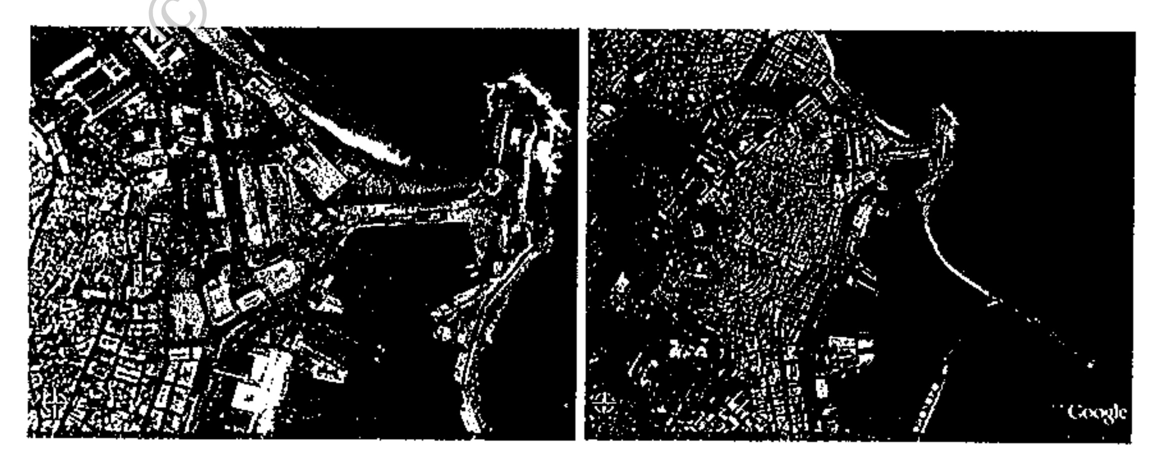
كان لهذه الأبواب دور اقتصادي أيضا حيث تفرض الضرائب على المواد التي تصدر و تخرج من باب الجزيرة أي عن طريق البحر و باب عزون عن طريق البر يلتزم بها كل التجار. و نظرا لأهمية الأبواب في المدينة فقد كانت تدعمها أبراج دفاعية و بطاريات تحرسها و غالبا ما تتخذ هذه الأبراج اسم البوابات، كبرج باب عزون و برج باب الوادي و برج باب البحر، لكن غرماي يقول إن هذه الأبراج و البطاريات لم تكن قوية و قد تداعى عليها الزمن لكن الشيء المخيف بها هو المدافع ذات العيار الكبير و القوية التي تحرسها بالرغم من قلة عددها (Gramaye 2002: 74).

أما بقية المعالم فتتوزع في عدة أشكال و مناطق فمنها على الساحل ومنها التي تدعم الميناء و أخرى تحرص البر و الجهات الخلفية للمدينة و أيضا أقصى نقاط خليج المدينة كبرج تامنتفوست في الجهة الشرقية المقابلة و برج رأس بيسكاد أو مرسى الدبان كما عرف سابقا في الجهة الغربية

من المدينة، و قد بني كل معلم على فترات مختلفة وفق وجهة الحملات العسكرية لاستدراك نقاط الضعف.

2. 4. تحصينات الميناء:

منذ مجيء الأتراك عرفت المدينة حركة عمرانية كبيرة خاصة في مجال العمارة العسكرية، و اكتظت الواجهة البحرية بأجمل الحصون و الأبراج على حد قول غرماي لحماية الميناء الذي يعد النواة الحية للمدينة (Gramaye 2002: 69)، و لما كانت جهة الميناء الأكثر أهمية في المدينة أصبح حي البحرية المكان الأكثر تحصينا، فكان يضم لوحده ثمانية معالم دفاعية تربط فيما بينها مجموعة بطاريات مكونة بذلك سلسلة دفاعية متواصلة. و كانت تبدأ من الطرف الشمالي إلى الجنوب من الرصيف الكبير و تتخللها فتحات للمدفعية و الرماية موجهة كلها إلى البحر. تضم في المجموع ما بين 200 إلى 300 مدفع من العيار الكبير. و قد توزعت تحصينات الميناء على ثلاث جبهات: الجبهة الشمالية، و الجبهة الشرقية و الجبهة الجنوبية (Bouyahiaoui 1997: 99-100). و هي كالآتي: من الجهة الجنوبية نجد برج السردين و برج القومان و برج رأس المول. في الوسط نجد برج ما بين و باتجاه الشمال نجد برج الجديد و برج الفنار و في الطرف مقابل الجهة الشمالية و الشمالية الشرقية يوجد برجا رأس عمار القديم و الجديد (Lespes 1930: 116-117). كانت معظم هذه المعالم تضم عدة طوابق و ذكر بوتان سنة 1808م، أنها كانت مسلحة بحوالي 180 مدفع أكثرها من العيار 36 و 48 و يضيف قائلا: "أظن أنه من الخطر و من غير الضروري ضرب المدينة إلا إذا كانت الحملة مجهزة خصيصا لمثل هذه الظروف" (Boutin 1927: 35-36).



صورة رقم1: صور جوية للميناء

2. 4. 1. تحصينات الجبهة الشمالية للميناء:

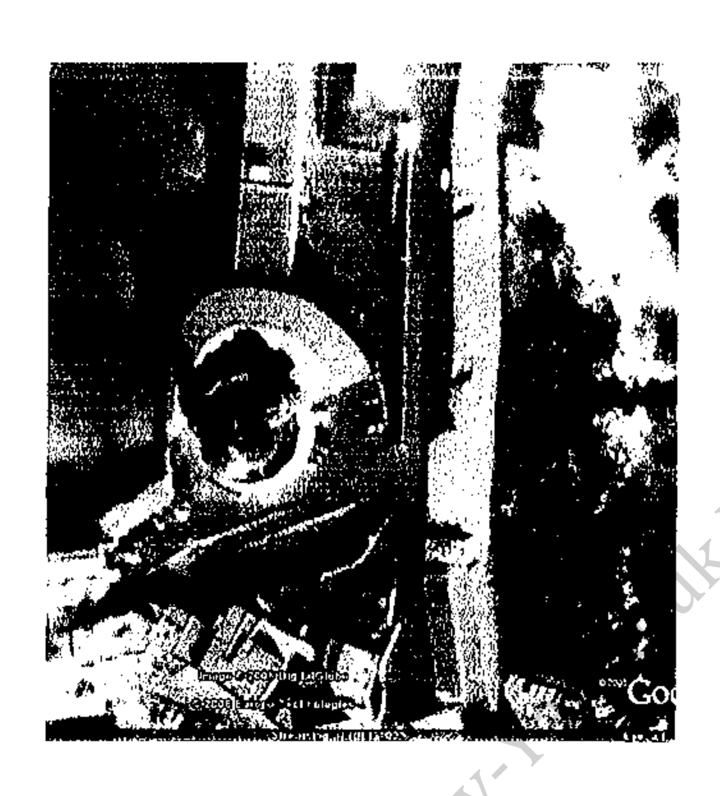
برج الفنار أو حصن المنارة:

أطلق عليه أيضا اسم حصن البنيون (**Pègnon**) و الحصن المستدير، بناه أعراب أحمد باشا سنة 1573 م في موضع الحصن الاسباني الذي استولى عليه خير الدين سنة 1529م لتخليص الجزائر من تهديدات مدفعية الأسبان قبالة الميناء على بعد 300م (Berbrugger 1860: 7) تحسبا لحملة دون جوان النمساوي (**Don Juan d'Autriche**).

يقع في الجزء الشمالي الشرقي من الميناء و هو خماسي الأضلاع محاط بسور. بني فوق أكبر صخرة من الصخور الأربعة المكونة للجزيرة المقابلة للمدينة (Devoulx 1875 in R.A: 294) به خمس قطع من المدفعية لحماية مدخل الميناء، يوضع به أحيانا منار لتوجيه السفن ليلا، يسهر على حراسته ثمانية من الأهالي على طول الرصيف بينما يحرس اثنا عشر آخرون على متن مركب عند مدخل الميناء(Dan 1649: 92).

بني البرج على قاعدة دائرية الشكل قطرها حوالي 60 مترا يحيط به من اليابسة خندق عرضه خمسة أمتار و يطل من الناحية الغربية على البحر ليكون طابقين بذلك أسفلها عبارة عن ملجأ تنفتح فيه سبع عشرة فتحة مدفعية مسلحة بمدافع كبيرة (Bouyahiaoui 1997: 101).

في نهاية القرن السابع عشر زاد الاهتمام أكثر بتحصين المدينة، فأصبح الحصن يضم ثلاثة طوابق كلها مسلحة بالمدافع و بقي على الشكل المثمن تتوزع في كل أضلاعه فتحات للرمي و المدافع. و في سنة 1816م اثر قصف اللورد اكسموث المدينة رمم و أضيف طابق رابع له به خمسة و خمسون مدفعا، ثم أصبح به خمسة طوابق سنة 1826م على يد آخر دايات الجزائر الداي حسين (صورة رقم 2).



صورة رقم 2: صورة جوية لبرج الفنار

كان يشرف على إدارة الحصن بش طوبجي (Bach topji) و تعني قائد المدفعية، و يضم الحصن أيضا قاعة لاجتماع المدفعيين، و صهريج مياه و مصنع بارود و مقر سكن قائد المدفعية الذي يحتفظ بكل مفاتيح مصانع البارود بالمدينة (Klein 1937: 76). تعرض الحصن للتدمير سنة 1845م جراء انفجار مخزن قديم للسلاح و البارود لم يكن معلوما لديهم لكن أعيد بناؤه.

تم العثور على لوح كتابي في بناية على يسار الحصن الذي أعاد الفرنسيون بناءه مثبتة عند البوابة لكن مكانه الأصلي غير معروف فرجح على أنه يخص حصن المنارة. و هو لوح من الرخام يتخذ شكلا مربعا ارتفاعه 0.53م و عرضه 0.53م، مكتوب بخط النسخ الشرقي و نصه: (Colin 1901: 70-71)

تم بحمد الناصر القوي	**صرح الجهاد الفاضل العلي**
في دولة الأمير و هو الأسعد	**فخر الملوك الفاضلين احمد**
بغرة الشهر جماد الثانية	**لماية من بعدها ثمانية**
قبلها مضى الف من السنين	**من هجرة النبي خير المرسلين**

يتضح من خلال النص أن هذا الحصن بني للجهاد المقدس سنة 1108م من السنة الهجرية في عز حكم الأمير أحمد و تقابل هذه السنة في التاريخ الميلادي سنة 1697-1696م و كانت هذه السنة

على أيام حكم الباشا الحاج أحمد الذي حكم المدينة ما بين 1695-1698م (شاكر ج2، 1993: 1811).

بطارية رأس عمار القديم: بطارية أو طبانة أصلها كلمة تركية "طوب خانه" و تعني مركز عسكري مسلح بالمدافع.

يمتد مرورا ببرج الفنار و حتى الجزيرة الشمالية سلسلة صخور تشكل رأسا على طول 160م بنيت على حافته الشمالية بطارية رأس عمار القديم من قبل محمد عثمان باشا بعد معركته مع الأسبان سنة 1784م و شاركه في بنائه سكان المدينة. اتخذ البرج شكل نصف دائري و هو مسلح بثلاثة و خمسين مدفعا و كانت موزعة على النحو الآتي: 25 مدفعا في الطابق السفلي و 28 مدفعا في الطابق العلوي بالإضافة إلى بعض مدافع الهاون موجهة إلى عرض البحر Bouyahiaoui (1997: 103).

برج رأس عمار الجديد:

يقع هذا البرج بين برج رأس عمار القديم و بطاريات المنارة، يضم 34 فتحة مدفعية موزعة على طابقين السفلي منها محصن. بني هذا البرج أواخر أيام الحكم العثماني بالجزائر بأمر من الداي حسين الذي حكم منذ 1818-1830م ليردم قناة كانت تفصل بين البرج السابق و برج المنارة، و سمي البرج كذلك لكونه أحدث من سابقيه(Bouyahiaoui 1997: 103).

2. 4. 2. تحصينات الجبهة الشرقية للميناء:

البرج الجديد:

تستمر التحصينات من الشمال إلى الجنوب بواسطة البرج الجديد الذي بناه محمد عثمان باشا عام 1774م. يحتوي البرج على واحد وعشرين فتحة مدفعية موزعة على طابقين: يضم السفلي تسعة فتحات، بينما العلوي فيضم 12 فتحة (Klein 1912: 76). فوق مدخل البرج يوجد لوح تذكاري من الرخام يخلد بناء البرج مكتوب باللغة التركية و نفذ بخط النسخ و طريقة الحفر البارز، قياسات اللوح هي: ارتفاعه 0.77م و عرضه 0.85م و النص هو (Colin 1901:137-139):

بحمد من لا يجري في ملكه إلا ما شاء و قدر
دام بالبر ذكره ما دار في برجه الشمس و القمر
زهى دولت نفعى عام ايجون قودى اثر
اوله شفيعي سيد البشر يوم المحشر
نصيري ظهري قل هو الله اكبر
جون جوده سى قوندى بال يمز طوبلر
تكميل اولدى بناء برج محمد باشا كما أمر و دبر
ساسى اولدى مرصص بناسي مجصص و مبرور و مستقر
سعيي مشكور فعلى مبرور اوله رحمة حق مظهر
شرابي اوله رحيق مختوم ابي ما كوثر
عدوى في دين خاك زمين اوله مقهور و مدمر
قل الله حافظ تاريخ البرج المفخر سنة 1187

ترجمة النص:

بحمد من لا يجري في ملكه إلا ما شاء و قدر
دام بالبر ذكره ما دار في برجه الشمس و القمر
يا للسعادة لمنفعته العامة، نصبه كالأثر التذكاري
فليشفع له سيد البشر يوم المحشر
نصيره و ظهيره قل هو الله أكبر
بما انه جهزه بسخاء بمدافع لا تأكل العسل
تم بناء البرج كما أمر و دبر محمد باشا
أساسه مرصص و بناؤه مجصص و مبرور و مستقر
سعيه مشكور و فعله مبرور و عليه رحمة الحق
شرابه رحيق مختوم و ماء الكوثر
فليقهر و يدمر أعداءه الكفار كغبار التراب
قل الله حافظ تاريخ البرج المفخر سنة 1187(خلاصي 1991: 59)

من خلال النص التأسيسي علمنا أن البرج بني من طرف محمد بن عثمان باشا الذي حكم المدينة ما بين (1766-1791م) في السنة الهجرية 1187 و التي يقابلها بالتاريخ الميلادي 1773-1774م.

برج ما بين:

بناه الداي حسين **عام** 1823-1824م و لم يعط لهذه البطارية اسما فعرفت ببرج مابين لوجودها بين البرج الجديد و برج السردين. و لكون هذا البرج يشرف على بقية تحصينات الميناء فقد تكفل القائمون عليه بالرد على تحية السفن الحربية القادمة لغرض الزيارة. و كان للبرج 18 فتحة للمدفعية (Klein 1912: 77) موزعة بالشكل الآتي: أربعة فتحات موجهة نحو الشمال، 13 اتجاه الشرق و فتحة واحدة باتجاه جنوب غرب. يتم الدخول إلى البرج عبر مدخلين، الأول ينتمي لأحد مرافق الميناء و الثاني يؤدي إلى مخازن فسيحة مقببة تستعمل لوضع مستلزمات السفن و تستعمل أيضا كممرات تؤدي إلى عدة حصون بالميناء تسهل عملية الاتصال فيما بينها خاصة عندما يشتد القصف على المدينة. و كان كل مدخل يعلوه لوح رخامي يضم كتابة تذكارية باللغة التركية لتخليد ذكرى بناء البرج (خلاصي 1991: 59). و جاء في اللوحين التذكاريين نفس التاريخ 1239هـ و

يقابله بالتاريخ الميلادي 1823-1824 م، و هو تاريخ بناء برج ما بين، لكن اسم الباني الداي حسين لا يظهر على هذين اللوحين (Colin 1901: 223).

برج السردين:

كان لهذا البرج الدور الفعال في تواصل خط دفاع الميناء حيث يطل من الناحية الشرقية على البحر و يتصل من الناحية الشمالية ببرج ما بين و بمسجد البحرية. يحمي هذا البرج اثنان و ثلاثون مدفعا موزعة على طابقين، الأعلى يضم 18 مدفعا بينما يضم الثاني 14 مدفعا. يقع مدخل البرج في الجهة الجنوبية و به إطار من الرخام يحتوي على لوحين عليهما نصان تذكاريان باللغة التركية، نفذا بخط النسخ الشرقي. تعلو الكتابة الأولى المدخل في الجهة الأمامية للقبو الجنوبي، نفذت على لوح يغطي كل مساحة الباب و نقشت بطريقة الحفر البارز، يبلغ ارتفاع اللوح 0.79 م، و عرضه 0.98 م وتمثل هذه الكتابة مناسبتين: الأولى هي تاريخ البناء و الثانية تاريخ الترميم. و نص الكتابة الأولى جاء موزعا على ثمانية أسطر (Colin 1901: 60):

ايا سلطان محمد خان غازى صدر عد لكدن
جزائر قصرينه ضم اولدى بر طوبخانه عظما
انك بناسنه زيادى اولان باشاى احمدر
عسكر منصور اتدى جهد اقدام ابتداء
سعادتله تمام اولدي ديدى جرمي اكا تاريخ
رمى صائبى اور زهي طوبخانة زيبا
على يد الفقير إبراهيم بن موسى
عام سبعه و سبعين و ألف 1077

ترجمة النص:

يا سلطان محمد خان غازي من عدلك العالي
أضيف إلى تحصينات مدينة الجزائر حصن عظيم
و الذي أضافه و أتم بناءه هو أحمد باشا
ابتدأه العسكر المنصور بجهد و إقدام
و تم بسعادة أعطى (له) جرمى تاريخ
اقذف قاذفات من المدفعية و ابلغ هدفك يا أجمل حصن
على يد الفقير إبراهيم بن موسى
عام سبعة و سبعين و ألف 1077. (خلاصي 1991: 60)

تدل الكتابة الأولى على أنها الأقدم 1077هـ و تقابل بالتاريخ الميلادي 1666-1667م، و يتناسب هذا التاريخ مع فترة حكم علي أغا الذي حكم من سنة 1665-1671م. و قد ترك هذا الحاكم المهمة للجيش لإتمام البرج (Gaid 1992: 137)، أما اسم أحمد باشا بالنص فيدل على أنه تولى إتمام بناء البرج فقط و كان قد حكم المدينة ما بين 1653-1658م (شاكر ج2، 1993: 1811). و عن ذكر اسم السلطان العثماني محمد الرابع (1649-1687م)، فليس إلا تعظيما له و لا علاقة له ببناء البرج. و كلمة جرمي قد تكون حتما اسم الفنان الذي نقش الكتابة و اسم إبراهيم بن موسى هو المشرف على البناء. و جاءت الكتابة الثانية أيضا موزعة على ثمانية أسطر (Colin 1901: 61-62):

طوبخانه بى قهر العدو ايجون تجديد ايدن غازى
محمد باشا بن عثماندر ذو الاقبال و الكما
عدونك اوكنده اولمشدر سد اسكندر كى قوى بنا
جزاسى قيامتده موفور و يره اكا بارى خدا
بعون الله تمام اولوب اولدي اكا تاريخ
ايدر كافر اهلاك شهاب كبى نار يله
عام تسعين و ماية و الف
سنة تجديده 1190

ترجمة النص:

الذي قام بتجديد هذا البرج لقهر العدو هو الغازي
محمد باشا بن عثمان ذو الإقبال و الكمال
سيكون أمام العدو بناء قوى كحاجز الاسكندر
جزاه الله الخالق خيرا يوم القيامة
تمت بعون الله و أعطى تاريخ
تهلك الكافر بنيرانها مثلما تفعله الشهاب
عام تسعين و ماية و ألف
سنة تجديده 1190 (خلاصي 1991: 61)

تدل الكتابة الثانية و هي أحدث من الأولى 1190هـ، على الترميمات التي أجريت على البرج على يد محمد بن عثمان الذي حكم ما بين 1766-1791م، و يقابل السنة المذكورة في النص بالتاريخ الميلادي سنة 1766-1777م.

كان هذا اللوح يزخر بزخارف و نقوش بارزة تمثل مسجدا بجانبه شجرتان و يعلو هذه النقوش لوح آخر من الرخام عليه نقش بارز يمثل سمكتين متقابلتين و سفينتين شراعيتين و يشرف على هذه الصور في الوسط أسد واقف يحمل بين أطرافه الأمامية كرة. و قد سمي البرج ببرج السردين نسبة إلى صور السمكتين باللوح، كما عرف باسم برج حاج علي. أضاف الداي مصطفى للبرج طوابق أخرى مسلحة بالمدافع ما بين عامي 1800 و 1805م (Colin 1901: 63).

2. 4. 3. تحصينات الجبهة الجنوبية للميناء:

برج القومان:

سمي كذلك نسبة إلى حبال مراكب البحرية التي كانت تحفظ بالطابق السفلي منه. و يقع على الرصيف الجنوبي الغربي الممتد من الشرق نحو مدينة الجزائر بحوالي 115م، يتصل جانبه الشرقي بالقبو الواقع عند مرفق الرصيف أما جانبه الغربي فيتصل مباشرة ببرج رأس المول.

يضم البرج ثلاثين قطعة مدفعية موزعة على طابقين، 17 قطعة في الطابق العلوي، و 13 قطعة بالطابق السفلي (Meunier 1961: No.3, 5). يوجد المدخل في الحافة الغربية لقبو المرفق تعلوه كتابة تأسيسية لبناء البرج نفذت بطريقة الحفر البارز و بخط النسخ الشرقي على لوح من الرخام ارتفاعه 0.75م و عرضه 1.22م وزعت على خمسة أسطر كل سطر يضم شطرين. يتضح من الكتابة أن عمر باشا هو الذي تولى البناء سنة 1231هـ\1815-1816م و النص هو (Colin 1901: 200) (لوحة رقم 6):

واردیا* بك كهلنه اولمش ديوا ولدى التزام — حمد لله اولدي بتدى شمديا بولدى نظام

في الصل دو طوب ايله بر وارديا كم وارايدى — شمدى شش طوب ايله بربرج اولدر بويله السلام

بانيسى اولدى فاتحك همشهرسى عمر باشا — دنيالر طوردقجة طورسون تا الى يوم القيام

خوشجه كوزلك بولب ليماندرر ساعتجيلر — طوبجيلر سزده وارك طوبلره ايدك اهتمام

علوى نوبت كلدى ايسه دى سنده تاريخي — بيك ايكى يوز سال اوتوز برنده اولمشدر تمام

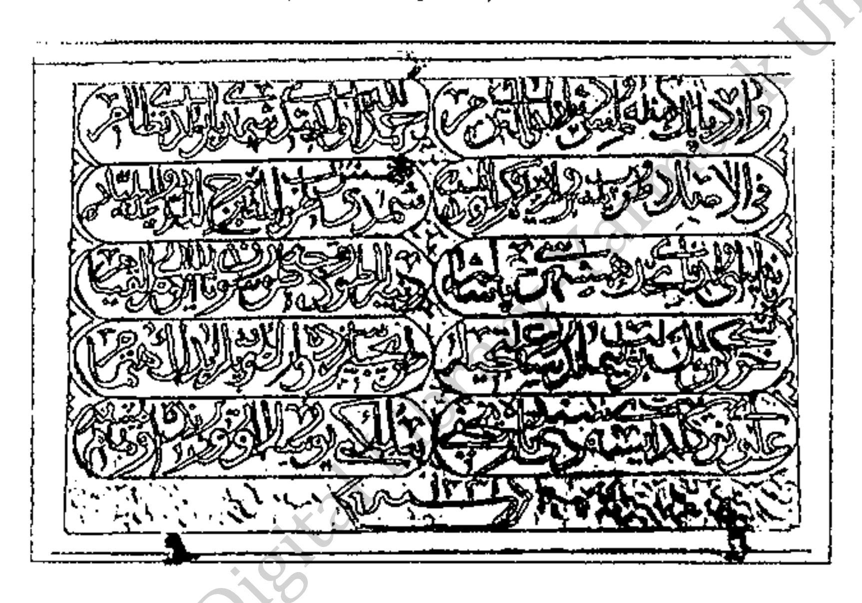
سنة 1231

* لفظ "وارديا" يعني مرقب و كان عبارة عن برج صغير بناه أعراب أحمد باشا سنة 1573م، و ذكره هايدو على أنه قليل الأهمية و لا يحتوي على مدفعية(Haedo, op-cit, p 43).

ترجمة النص:

رغم أن المرقب أصبح جد قديم و لكنه ضروري	الحمد لله هو الآن منظم و انتهى من بنائه
في الأصل لم يكن للمرقب إلا مدفعين و هذا قليل	الآن أصبح برج بست مدافع انه الأمان
بانيه هو عمر باشا صاحب الفاتح	أدام الله بقاءه ما دامت الدنى إلى يوم القيامة
أيها الحراس راقبوا جيدا كل من يتقدم نحو الشواطئ	أيها المد فعيون أعطوا رعاية و اهتمام إلى مدافعكم
على إذا حان الوقت قل: فيك نجد تاريخه	تم في عام ألف و مائتين و إحدى و ثلاثين

سنة 1231 (خلاصي 1991: 63)



لوحة رقم 6: النص التأسيسي لبرج القومان

بني البرج في مكان المرقب و كان يحتوي على طابقين: السفلي يضم 13 فتحة للمدفعية بالإضافة إلى 16 فتحة في الطابق العلوي، و بذلك يكون مجموع فتحات المدفعية يقدر ب29 فتحة. و يشرف على البرج قائد المدفعية (Bouyahiaoui 1997: 108).

برج رأس المول:

يقع عند الحافة الغربية للرصيف الجنوبي الغربي و هو بذلك يغلق تحصينات الميناء و يشرف أيضا على مدخل المرسى و يحميه من الناحية الشرقية. سمي البرج كذلك نسبة لموقعه المتمثل في حماية و تأمين الميناء و ضواحيه و توجيه السفن الداخلة ليلا إلى الميناء كما يستخدم كملجأ للحراس، و لفظة المول تعني رصيف (Devoulx 2003: 119) تم العثور في الجدار الخارجي لمئذنة السلاطين على لوح من الرخام يبلغ ارتفاعه 0.50م و عرضه 0.40م به كتابة تذكارية باللغة

العربية نفذت بخط النسخ بطريقة الحفر الغائر و جاءت مكفتة بالرصاص وزعت الكتابة على سبعة أسطر و هي كالأتي (Colin 1901: 74):

الحمد لله قد
تم بناء هذا الحصن
على يد المعلم الجل
محمد المعلم عراب
ابن محمد بن المعلم علي
غفر الله ذنوبه و استر عيبه
في شهر ربيع الثاني عام 1115

من خلال هذه الكتابة يتضح أن البرج بني في السنة 1115هـ\1703-1704م و هذه الفترة تدخل ضمن فترة حكم الداي الحاج مصطفى (1700-1705م) بالجزائر. ووفقا لكتابة أخرى فانه تم ترميم البرج خمس سنوات بعد بنائه أي سنة 1120هـ\1708-1709م (Bouyahiaoui 1997: 109) أي تحت حكم الداي محمد بقطاش. و وجدت الكتابة على الحائط الخارجي لمئذنة السلاطين موزعة على ستة أسطر و نصها (Colin 1901: 75):

الحمد لله قد تم بناء هذا الحصن
المبين على يد المعظم الأجل
المعلم محمد أعراب
ابن محمد بن المعلم علي
غفر الله ذنوبه و ستر عيوبه بمنه
في شهر ربيع الثاني عام
1120

كما وجدت كتابة ثالثة فوق قبو مدخل البرج، نفذت بخط النسخ على لوح من الرخام يبلغ ارتفاعه 0.60م و عرضه 0.60م. نقوشه بارزة مغطاة باللون الأسود وزعت على ثمانية أسطر كل سطر ينقسم إلى شطرين (Colin 1901: 86):

حصن بديع قاهر — أعداء ربي الناصر .
ترمي جوانبه اضر — في جوف من هو خاسر
قد تم بمنه بناءه — و سعد نجمه ظاهر
في دولة المولى الذي — لا زال فعله يشكر
السيد الباشا علي — ابن حسين القاهر
في شهر شعبان الذي — لا زال فضله يذكر
من عام أربعة و عشرين — و زد كي تبصر
ألف و بعدها المابة — فانصر الهي الأمر

توضح هذه الكتابة آخر عملية ترميم للبرج عام 1124هـ\1712م-1713م و تعاصر فترة حكم علي باشا شاوش للجزائر ما بين 1710-1718م. و تظهر كتابة رابعة باللغة العربية أيضا كانت تزين عضادتي باب المدخل، كتبت بخط النسخ بطريقة الحفر الغائر و المكفت بالرصاص و كسيت بالألوان و هي موزعة على أربعة أسطر كل اثنين منها داخل إطار (Colin 1901: 87):

لا اله إلا الله
الملك الحق
المبين محمد
رسول الله

يقول كلاين أن البرج مبني من طابقين و مسلح بثلاثين قطعة مدفعية، يتم الدخول إليه عبر بوابة الأسود الواقعة تحت مئذنة السلاطين، إطارها من الرخام (Klein 1912: 77) يزينها أشكال نباتية و خاتم سليمان يتوسط هلالا و هو رمز الدولة العثمانية بالإضافة إلى كتابات عربية تمثل أدعية و عبارات دينية، أما العقد الذي يعلو المدخل فكان يزينه أيضا زخارف نباتية و زخرفة معمارية و أشكال حيوانية و شعار و تاج، كما يتكرر شكل خاتم سليمان و الهلال (Bouyahioui 1997: 12).

و حسب مؤلف مجهول، كان للبرج خندق من جهة البحر، ثم أضيف إليه مبنى بعد قصف اللورد اكسموث (Lord Exmouth) للمدينة عام 1816م من جهة الميناء على شكل قوس نصف دائري يحتوي من جهة الشاطئ على فتحتين للمدفعية في الطابق السفلي و فتحتين أخريين في الطابق العلوي (Devoulx 2003: 121).

تطور تحصين الميناء عبر السنين في ظل الحكم العثماني بالجزائر، فبدءا من خير الدين إلى حسان أغا الذي خلفه عندما انشغل بتسيير الأسطول العثماني، حيث اهتم حسان بتحصين المدينة و

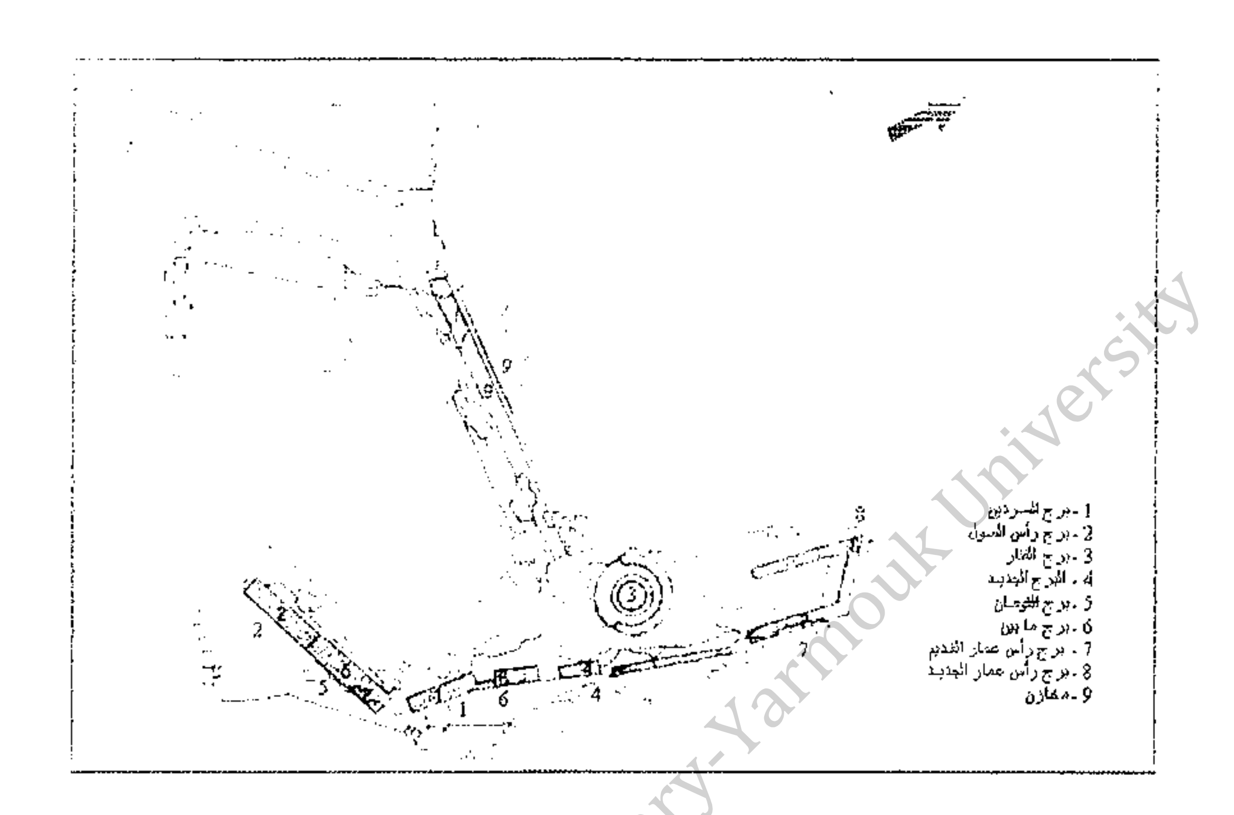
الميناء بدوره سرعان ما جاءته أخبار استعدادات.شارل كانت لقصف المدينة. و في سنة 1573م تولى إتمام العمل أعراب أحمد باشا و حصن كل جزيرة الميناء بأسوار ما عدا الجهة الجنوبية التي كان يدعمها سور سميك ارتفاعه أقل من بقية الأسوار حيث يعتبر حاجزا لكسر قوة الأمواج التي كانت تضرب الميناء أيام الشتاء و كان مدعم بفتحات للمدفعية في حالة تقدم العدو لمنعه من السيطرة على الميناء (Berbrugger 1870 in R.A: 419).

في بداية القرن السابع عشر لم تشهد المدينة بناء كبير في المجال الدفاعي، حتى جاءت سنة 1683م حيث ظهرت نقاط الضعف بالمدينة، الأمر الذي جعل الحكام يأمرون ببناء و تجديد بعض المواقع بعدما أصبحت المدينة عرضة لقصف الحملة الفرنسية بقيادة دوكسن.

صرح شو (Shaw) سنة 1732م أن المدينة كانت جيدة التحصين من جهة البحر حيث شهد الميناء تدعيما كبيرا في تحصيناته حتى أنه لا يمكن إيجاد مكان فارغ دون برج أو بطارية مسلحة بمدافع كبيرة من البرونز (Devoulx 2003: 98).

كانت الواجهة الخارجية للميناء مدعمة ببطاريات دفاعية عادية و مزدوجة، كما أصبح حصن المنار ذات ثلاث طوابق يضم 140 قطعة مدفعية من العيار الكبير. و كان بالميناء سنة 1816م قبل قصف اكسموث 220 مدفعا، 44 منها موجودة في بطارية نصف دائرية موزعة على ثلاثة طوابق شمال الرصيف، و 48 مدفعا في برج المنار و 66 موزعة دائما على ثلاثة طوابق في البطارية الكبيرة من الجهة الشرقية و 60 مدفعا موزعة أيضا في أربعة بطاريات متواجدة جنوب الميناء. و اثنان يوجدان في مدخل الميناء من العيار 68 مم طولها كبير جدا (Chabaud in R.A 1875: 197) (لوحة رقم 7).

و بعد القصف تأثرت التحصينات كثيرا مما جعل السكان يضاعفون أعمال البناء و التشييد من جهة البحر خاصة في فترة حكم أواخر الدايات: الداي عمر(1815-1817م) و الداي حسين (1818-1830م) (Bouyahiaoui 1997: 115).



لوحة رقم 7: تحصينات الميناء

2. 5. تحصينات أسوار المدينة:

كان يتخلل سور المدينة اثنتا عشر بطارية مربعة الشكل يشرف بعضها على الميناء و بعضها الآخر يشرف على الأبواب كما كانت تدعم الحصون المجاورة كما بنيت أخرى على مدى طول شواطئ المدينة بهدف حراستها و تدعيم أبراجها أيضا (Lespes 1930: 118).

و للبطاريات الموجهة لحماية الشواطئ أهداف كثيرة تتمثل في النقاط التالية:

1. توفير وسائل اعتراض أي هجمات و انزالات كبيرة للسفن من هذه الجهات.
2. حماية ملاحة السواحل و فرض احترام السفن الطالبة للجوء في حالة متابعتها من طرف عدو مشترك.
3. حماية المدن و القرى الصغيرة الواقعة على الشواطئ من أي هجوم مباغت من طرف الأعداء الذين يعتمدون على الهجمات العابرة.
4. حماية المرافئ و المراسي المخصصة لتجمع الأساطيل الكبيرة و ما تحتاج إليه عند تعرضها لظروف طبيعية أو بشرية و سد كل ثغرة يمكن أن تتسرب منها محاولة التوغل

إلى المدينة أو الميناء المؤدي إليها. و وجب لذلك دراسة دقيقة للموقع و محيطه و متطلباته في حالة طلب المساعدة و دور هذا المعلم إن كان دفاعي أو تدعيمي.

5. إن البطاريات الموجهة للتصدي إلى الأنزالات الكبيرة تكون في النقاط و الشواطئ الأكثر بروزا ذلك أن العدو يتخذها في الأغلب لرسو سفنه و النزول ثم إبحار قواته عبرها من جديد.
6. الهدف منها أيضا هو ربح الوقت في تجمع القوات و تصديها و إنهاك العدو حتى قبل نزوله إلى الشاطئ.
7. إن البطاريات خاصة تلك الواقعة في النقاط الأكثر أهمية و التي تكون قادرة على الوصول إلى كل المراسي هي مسلحة بالمهارس و المدافع ذات العيار الكبير.
8. غالبا ما تحتل البطاريات القريبة من الموانئ الكبيرة رؤوس الخلجان المتقدمة و تكون موازية لمرافئ يمكن للعدو استخدامها دون عناء لكونها قليلة الارتفاع، حيث تصبح في النهاية بخطر و يمكن الاستيلاء عليها، لذلك كان من الضروري إيجاد حل تمثل في بناء مداخل مموهة تحميها عناصر معمارية مهيأة من الداخل تظهر قوتها و نجاعتها عن قرب عند محاولة العدو التوغل بالقوة (Michaud: 178-185).

2. 5. 1. بطاريات السور الشمالي:

بطارية حمام المالح:

كانت تقع في الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة بنيت على بعد 45م من باب الوادي و على بعد 130م من بطارية سبع تبارن(Devoulx 2003: 123). لا يعرف من بنى هذه البطارية على وجه التحديد و إن أشار البعض إلى انه علج علي سنة 1559م لكن هذا الباشا حكم المدينة سنة 1567م (شاكر1993: ج2، 1809) كانت مسلحة بعشرة مدافع لكنها اندثرت عام 1866م في إطار حملة شق طرقات جديدة بالمدينة(Klein 1937: 75).

بطارية سيدي رمضان:

تبعد عن باب الوادي حوالي 230م سميت بهذا الاسم لوقوعها بجانب مسجد عرف بنفس الاسم، كما عرفت ببطارية قطع الأرجل نسبة لفرض حظر التجوال في المكان بعد ساعة معينة من الليل (Devoulx 2003: 66).

يقول كلاين أنها بنيت على يد يحي رايس في القرن السادس عشر لكن أعيد بناؤها ثانية خلال القرن ذاته و كانت مسلحة بثلاثة عشر مدفعا (Klein 1937: 75) وعلى بعد 30م كانت توجد بطارية مربعة الشكل بها 7 مدافع و كانت مجهولة الاسم.

بطارية طاحونة الريح:

على بعد 225م إلى الأعلى وجدت بطارية طاحونة الريح بها أربع فتحات للمدفعية و كان يشرف عليها باش طوبجي (قائد المدفعية) الذي يتولى الإشراف على الأسوار من جهة سيدي رمضان إلى القصبة تعرضت هذه البطارية كسابقتها للتدمير ما عدا بطارية سيدي رمضان (Klein 1937: 75).

البطارية رقم 10:

تقع على بعد 30 متر من البطارية أعلاه أعطي لها الرقم 10 و كانت تعتبر جزء من سور المدينة، كانت تحتل قمة منحدر و ترتفع أرضيته 88م فوق مستوى سطح البحر كانت مسلحة بثمانية مدافع.

2. 5. 2. بطاريات السور الجنوبي:

بطارية باب الجديد:

كانت توجد في الجهة الجنوبية الشرقية للقصبة و هي مسلحة بتسعة مدافع (Klein 1937: 74) و قد أشار هايدو: "يشرف على باب الجديد من الجانب الأيسر برج صغير مبني بدون تراب مركوم يبلغ ارتفاعه 23 شبرا (58,42سم) و يحتوي على ستة فتحات للمدفعية اثنتان من الجهة الأمامية تطل على الجنوب و اثنتان على جانبي البرج لكن المدافع غير موجودة" (Haedo 1998: 42).

بطارية حومة(حي) السلاوي:

تقع على بعد 225م أسفل بطارية الباب الجديد و قد أطلق الأهالي عليها هذا الاسم كان بها تسعة فتحات للمدفعية يشرف عليها قائد المدفعية الذي يتكفل بحراسة الأسوار إلى غاية الباب الجديد. دمرت هذه البطارية سنة 1870م عندما بنيت أحد شوارع المدينة (Klein 1937: 74).

بطارية العسل:

بنيت على بعد 75م من باب عزون و على بعد 45 خطوة من البحر و سميت كذلك لمحاذاتها لفندق العسل الذي كان يقصده باعة العسل و سميت أيضا ببطارية نهج باب عزون لقربها من باب المدينة الذي يحمل نفس الاسم. اتخذت شكلا مربعا طول ضلعها 20م و ارتفاعها 25م و كان يدعمها تراب مركوم على طول أضلاعها (Devoulx 2003: 80) كان بها تسعة فتحات للمدفعية، ثلاثة منها موجهة إلى الجنوب غرب، و ثلاثة إلى الجنوب شرق و ثلاثة إلى الشمال شرق، لكن لا يوجد بها سوى ثلاثة مدافع من العيار الصغير(De Haedo 1998: 42). سنة 1875 أزيلت البطارية أيضا لغرض شق الطريق.

2. 5. 3. تحصينات الواجهة البحرية

بطارية المارستان:

سميت كذلك لوجودها بالقرب من مصح للمجانين و هي على بعد 70م من بطارية العسل، بها أربع قطع من المدافع و لكنها دمرت كسابقتها لفتح الطرق.

بطارية قاع السور:

تقع بالقرب من إحدى الزوايا السفلية للجامع الجديد، و على بعد 20م من برج باب البحر و كان بها أربعة مدافع (Klein 1937: 75).

بطارية الجامع الكبير:

تقع على بعد 80م من بطارية قاع السور و في الزاوية الشمالية الشرقية من ساحة الجامع الكبير، بنيت هذه البطارية لتدعم حماية مدخل المرسى من الجهة الغربية و تنضم بذلك إلى برج رأس المول الموجود مقابلها. و قد سلحها الداي عمر بأربعة مدافع مباشرة بعد قصف سنة 1816م (Devoulx 2003: 87).

بطارية الأندلس أو بطارية الجمرك:

تقع على بعد 120م شمال بطارية الجامع الكبير و بالقرب من باب البحر(الجزيرة) الذي تشرف على حمايته و مراقبته. يوجد بها 17 فتحة مدفعية تسعة منها موجهة إلى الشرق، اثنتان إلى

الجنوب و أربع فتحات على مدخل المرسى و اثنتان إلى الشمال حيث باب البحر (Bouyahiaoui 1997: 120). بنيت من قبل القائد صفا سنة 1551م عندما تولى تسيير شؤون المدينة في غياب حسان باشا بن خير الدين و يبلغ طول هذا المعلم 30 خطوة(22.86م) و عرضه 40 خطوة(30.48م) و هو مدعم بالتراب المركوم و محصن في أهم النقاط لكن لا يوجد به فتحات و يحتوي على متراس يمتد من الشمال إلى الجنوب مشرفا على الميناء. يوجد على امتداد المتراس ثلاثة و عشرون مدفعا من البرونز يمثلون أحسن سلاح في المكان كله. ستة أو ثمانية مدافع منها فقط مركبة على ركائزها بينها المدفع المشهور بستة فوهات الذي جلبه رمضان باشا سنة 1576م من فاس و نقله الفرنسيون إلى باريس سنة 1830م، يتداول حراسة البطارية جنود يشرف عليهم قائد المدفعية (De Haedo 1998: 43).

بطارية سبع تبارن:

و تعني بطارية سبع حانات و تقع على بعد 190م شمال باب البحر و بين الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة. عرفت أيضا باسم بطارية ساباط الحوت نسبة للأحياء المجاورة لها و أيضا بطارية مامي أرناؤوط نسبة إلى اسم الرايس الذي كان منزله مجاورا لها و كان بها أربعة مدافع، اتخذت بعد الاستعمار الرقم 13 (Devoulx 2003: 93).

2. 6. التحصينات الدفاعية خارج أسوار المدينة:

كانت المدينة مدعمة أيضا بمجموعة من المباني الدفاعية خارج الأسوار للتصدي لأي إنزال خاصة من جهة الخليج (Laye 1951: 33)، و كانت هذه البطاريات موزعة على طول الشاطئ لحراسته و لتدعيم الأبراج و الحصون المجاورة لها أيضا. و منها المطل على اليابسة بحيث تكون مفتوحة عند المدخل و أخرى يغلقها جدار ارتفاعه 6 إلى 7 أقدام(1.82- 2.13م) و سمكه 12الى 18 بوصة(30.48سم- 45.72سم) كما كان بها متاريس (حواجز) من الحجارة، أما فتحات المدفعية فكلها موجهة إلى البحر (Boutin 1927: 38).

2. 6. 1. بطاريات شمال المدينة:

و هي مجموعة من البطاريات بنيت خصيصا لتدعيم الأبراج المجاورة لها من بينها:

بطارية الطابية:

تقع على بعد 125م شمال برج الجديد و هي مسلحة بأحد عشر مدفعا.

البطارية الحمراء:

و تبعد عن البطارية أعلاه بثلاثين مترا فقط، و هي مسلحة بثمانية مدافع.

بطارية سيدي كتاني:

بنيت على بعد 200م من البطارية الحمراء و سميت كذلك نسبة إلى وجود قبر أحد الأولياء الصالحين بالقرب منها، اتخذت شكل حدوة الفرس و هي مسلحة بأربعة عشر مدفعا و لكن هذه البطارية و كسابقتها اندثرت عند بناء أسوار المدينة كما اتخذ من موقع هذه الأخيرة مكانا لبناء حمامات عمومية (Klein 1937: 80).

بطارية عيون بني مناد:

كانت تقع بالقرب من مصنع ملح البارود و منبع عيون بني مناد، حولت في عهد الاستعمار الفرنسي إلى مرقص.

بطارية رأس النادر:

بنيت بين برج الانجليز و برج مرسى الذبان عرفت أيضا ببطارية قلعة الفول نسبة لنمو هذه النبتة بمحيطها و كانت مسلحة بثمانية مدافع (Klein 1937: 80). كان بها سنة 1830م ثمانية مدافع يشرف عليها ستة و خمسون مدفعيا بمعدل سبعة على كل مدفع و كانت بالقرب منها بطارية أخرى تتخذ نفس الاسم أطلق عليها البطارية السفلى بها أربعة مدافع فقط يشرف عليها خمسة و ثلاثون مدفعيا (Devoulx 2003: 133) و لم يعد لهاتين البطاريتين وجود.

بطارية مرسى الدبان:

كانت تقع في الناحية الغربية خلف برج مرسى الدبان القديم على تل صخري يحده البحر من الجهة الغربية و كانت على شكل نصف دائري (Devoulx 2003: 138)، بها اثني عشر مدفعا رمى بهم الأتراك في البحر عند احتلال الفرنسيين للمدينة (Klein 1937: 81).

بطارية سيدي فرج:

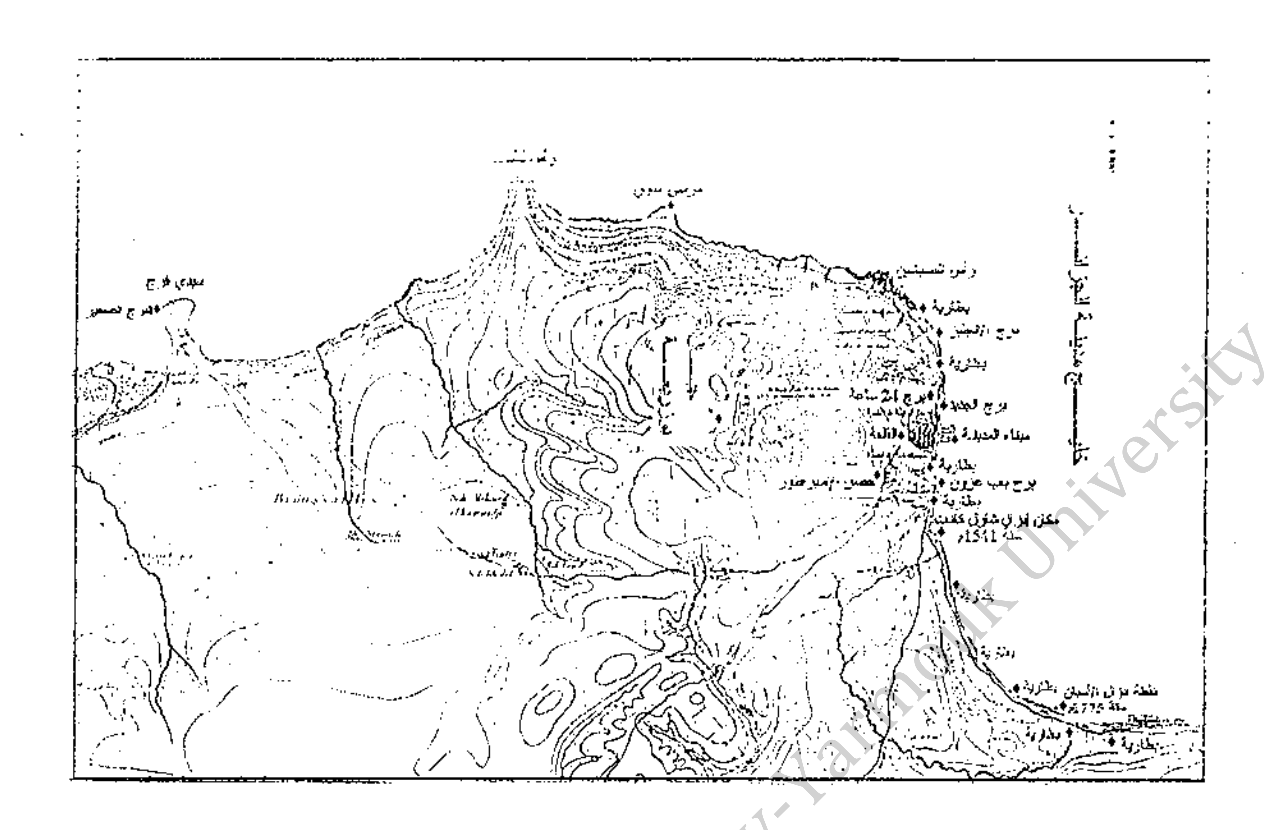
كانت تقع على بعد 400م من الناحية الغربية لبرج سيدي فرج، بناها الجزائريون سنة 1808م (Devoulx 2003: 141). حسب بوتان فان هذه البطارية كانت مسلحة بمدفع واحد فقط بينما يذكر روزي (Rozet) أنها بنيت بالآجر و كان يحميها 13 مدفعا و كان بها مخزن للبارود و مسكن صغير للحامية العسكرية (Rozet 1833: T3, 159).

كانت هذه البطاريات كلها تحت إشراف الأهالي و بدخول الفرنسيين إلى المدينة استولوا على مبان كثيرة خصصت للقادة و العسكر كما بدأت بتدمير العديد من المساجد و الأضرحة و المحلات و البيوت و البطاريات لشق و توسيع الطرقات من بينها نهج باب الوادي و باب عزون و أيضا شارع البحرية (Aumerat 1898 in R.A: 175)، و نتيجة لهذه الأعمال اندثرت معالم دفاعية كثيرة بالمدينة.

و في الجهة الجنوبية و الجنوبية الشرقية للمدينة وجدت مجموعة أخرى من البطاريات مبنية على الشاطئ أيضا، أعطيت لها أرقام منذ قدوم الفرنسيين إلى الجزائر بدل الأسماء و كانت من الرقم 1 إلى 18 لكل منها موقع و دور في تدعيم برج معين. كانت هذه المعالم منتشرة من برج باب عزون إلى حصن تامنتفوست و مسلحة بحوالي 120 قطعة مدفعية صادرها الفرنسيون عند احتلالهم المدينة. استأجرت هذه البطاريات بعد سنة 1850 حسب الحاجة إليها و منها ما دمر(Klein 1937: 82 و Boutin 1927: 38).

2. 6. 2. تحصينات خليج المدينة:

كان على السفن المعادية للاقتراب من المدينة أن تمر بنيران حصن تامنتفوست الذي يحرس خليج المدينة من الناحية الشرقية و نيران حصن رأس بيسكاد المقابل في الجهة الغربية، ثم عليهم تجاوز نيران الحصون و الأبراج العديدة الممتدة على مدى طول شاطئ الخليج و أغلبها موجهة إلى البحر (لوحة رقم 8).



لوحة رقم 8: تحصينات مدينة الجزائر و ضواحيها (Boutin 1808: Pl14)

البرج الجديد:

يقع هذا البرج على بعد 100 خطوة (76.20م) عن أسوار باب الوادي عند الزاوية الشمالية الشرقية لمدينة الجزائر، بني لتدعيم بطارية حمام المالح و الجبهة الشمالية للميناء الذي يوجد على يمينه و برج 24 ساعة الموجود على يساره. و كان لا يفصل هذا البرج عن المدينة سوى عرض الخندق. قام ببنائه مصطفى باشا عام 1802-1803م، و عرف بعدة تسميات كبرج باب الوادي لمحاذاته هذا الباب و برج الزوبية (مكان تجميع قمامة المدينة باللهجة المحلية) (Bouyahiaoui 1997: 122).

بني البرج على أنقاض معلم دفاعي آخر بناه رمضان باشا سنة 1576م، كان يحتوي على طابقين مدعم بـ27 مدفع أربعة منها موجهة إلى البر (Klein 1937: 78) و 14 منها موجهة إلى البحر، و تسعة منها في الطابق العلوي و كان كل طابق في البرج يحتوي على باب كما كان في القسم السفلي باب سري يؤدي إلى الشاطئ يسمح بمرور زوارق مجهزة بالمدافع إلى مخزن واسع مقبى كما احتوى البرج على مخازن أخرى للبارود و هي مقباة أيضا و مبنية بالآجر (Devoulx 2003: 124).

وجدت كتابة تذكارية تعلو مدخل الطابق العلوي و هي باللغة التركية تشير إلى تاريخ البناء و هي بخط النسخ الشرقي الجميل على لوح من الرخام ارتفاعه 0.37م و عرضه 0.65م، كتبت على سطرين كل سطر به شطرين يحيط بها إطار مستطيل الشكل، النص (Colin 1901: 181) (اللوحة رقم 9):

كوهر كان مروت هم وزير برسخا … امر ايدوب برج انشا ايلدى نيك بخت

قيل تماشا مصطفى باشا قيجون ايله دعا … مولا اتميمه سمند دولتن بى زين و رخت

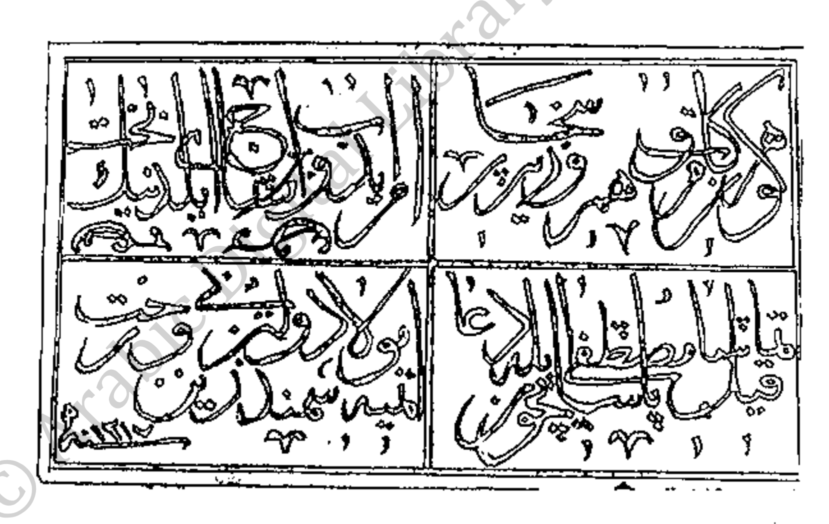
سنة 1217

ترجمة النص:

جوهرة منجم الإنسانية الوزير السخي … قد أمر بتشييد هذا البرج المحظوظ

تأمل و اجعل التمنيات في فائدة مصطفى باشا … مولانا لا يحرم فرس دولته من السرج و اللجام

سنة 1217هـ (خلاصي 1991: 121)

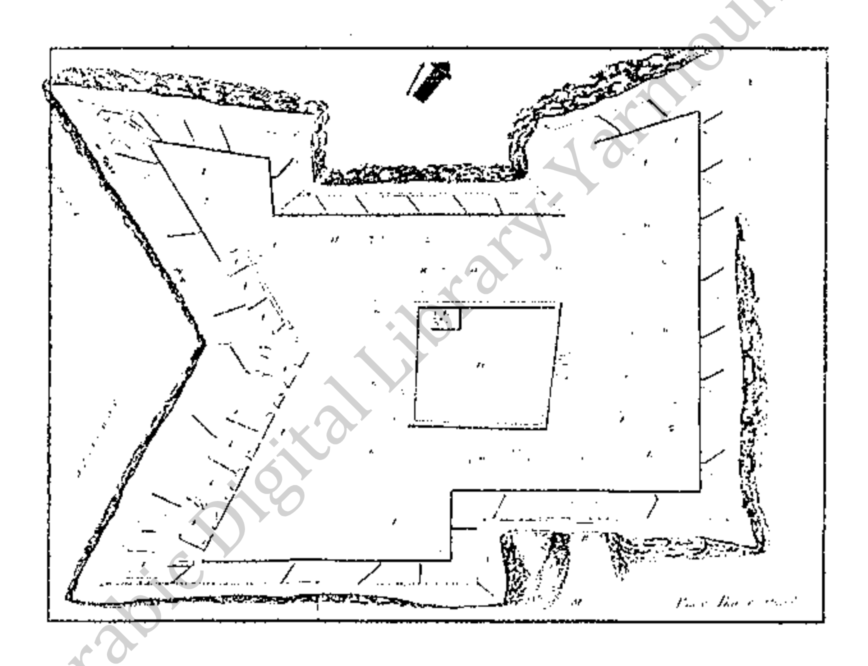


لوحة رقم 10: النص التأسيسي لبرج الجديد

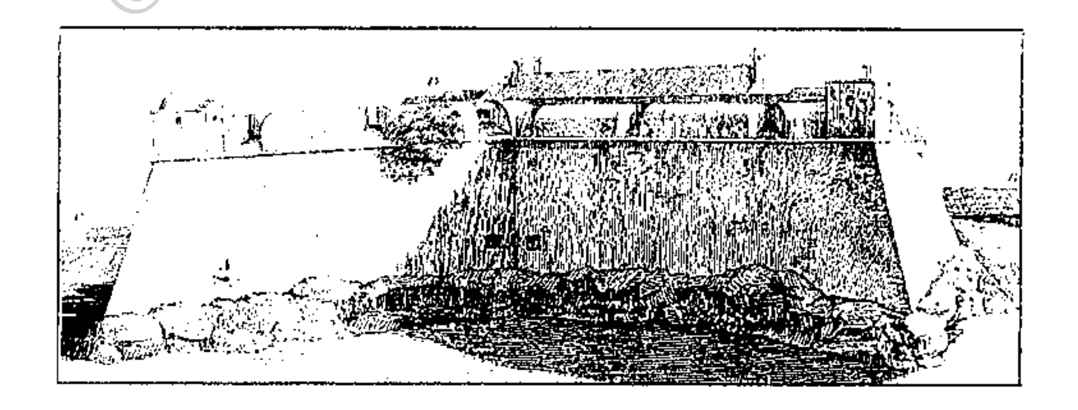
برج ستي تاكليلت:

أطلق عليه الأهالي اسم برج ستي تاكليلت، و هي تسمية باللغة القبائلية وتعني السيدة الزنجية كما عرف ببرج علج علي و برج باب الوادي و ذلك لوقوعه على بعد 370 خطوة(281.94م) غرب الباب. أما الأوربيون فأطلقوا عليه اسم برج الأربع و عشرين ساعة لأسباب غير مؤكدة تاريخيا، كبنائه خلال 24 ساعة فقط، و احتلال الانجليز للحصن لمدة 24 ساعة (Gramaye 1998: 69).

بني البرج على هضبة مربعة الشكل ثلاث من واجهاته محصنة تتخللها فتحات للمدفعية أما الرابعة فجاءت مطلة على المدينة يحميها حاجز واحد فقط و من الجهة الشمالية لا يوجد إلا فتحة واحدة تقع في الجزء السفلي. و البرج عامة مسلح بثمانية مدافع متوسطة العيار، أما قطر الصحن الداخلي فيقدر بـ30 خطوة(22.86م) يتوسطه صهريج ، أما من الخارج فلا يحمي البرج خندق (De Haedo 1998: 45). شرع في بناء البرج سنة 975هـ\1567-1568م محمد باشا من أول الحكام الذين تولوا تحصين هذه الجهة بهدف حماية شاطئ صغير مكشوف في الجهة الشمالية الغربية و الذي كان سهل المنال في حالة إنزال العدو و أتم بناءه علج علي (Berbrugger 1854: 58) (مخطط رقم 1).

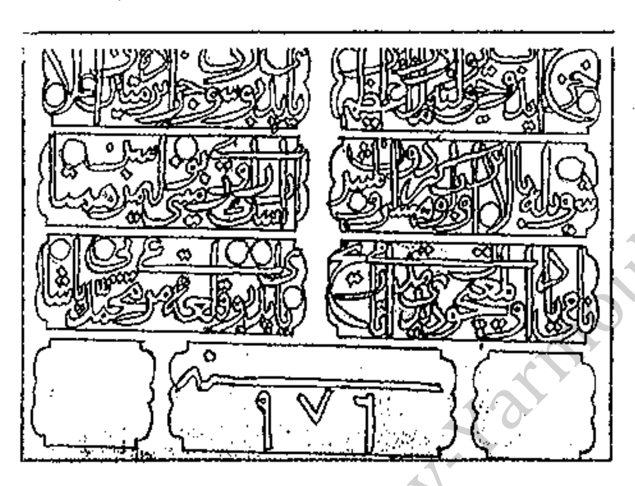


مخطط رقم1: برج ستي تاكليلت (Berbrugger 1854: Pl2)



صورة رقم 3: برج ستي تاكليلت (Berbrugger 1854: Pl3)

يشير نص باللغة التركية كان يعلو مدخل البرج الواقع في الجهة الجنوبية، إلى تاريخ البناء و جاءت الكتابة بخط النسخ الشرقي منفذا بطريقة الحفر البارز على لوح من الرخام مستطيل الشكل ارتفاعه 0.58م و عرضه 0.90م. الكتابة موزعة على ثلاثة أسطر كل سطرين مكون من شطرين و اللوح محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة (Colin 1901: 22).



لوحة رقم 11: النص التأسيسي لبرج ستي تاكليلت

النص (Berbrugger 1854: 58-59):

خرج ايدوب حق يولنه مال وزير اعظم	**يابدى بو سورى جزاير ده متين و اعلا**
شويله بالاتر اولوب كردون همسر اولمش	**اراسك روي زميني بوليمزسن همتا**
نامي باد اولمغيجون ديدي مدامي تاريخ	**يابدى بو قلعة يي مرعي محمد باشا**

سنة 976

ترجمة النص:

لقد أنفق الوزير الأعظم أموالا في سبيل الله	**و بنى بمدينة الجزائر هذا السور العالي المتين**
بفضل علوه الشامخ يصل إلى ارتفاع السماء	**لا تجد له مثيلا على سطح الأرض**
قال: ليكون اسمه خالدا و كذا تاريخ حكمه	**بنى محمد باشا هذه القلعة المحروسة**

سنة 975 (خلاصي 1991: 122)

الظاهر أن الفنان الذي كتب النص وقع في خطأ بالتاريخ، ذلك أن سنة 976هـ لا توافق فترة حكم محمد باشا الذي ذكر في النص، هذا الأخير حكم من سنة: 1567 إلى 1568م التي يوافقها بالهجري سنة 975. أما التاريخ المدون فيصادف حكم الباشا علج علي الممتد من 1568م إلى 1571م.

برج قامة الفول:

كان يقع على قمة صخرة عند شاطئ البحر على بعد 1000 خطوة شمال غرب المدينة. بني سنة 1580م من طرف جعفر بإذن من حسان باشا و رمم عام 1770م على يد الحاج علي. يطلق عليه أيضا اسم برج الانجليز (Klein 1937: 80) كان يعلو باب البرج كتابة تأسيسية منفذة بالحفر البارز على لوح من الرخام ارتفاعه 0.50م و عرضه 0.47م موزعة على خمسة سطور يحيط بها إطار و اللوح محفوظ أيضا في المتحف الوطني للآثار القديمة و نصه كالتالي (Colin 1901: 65):



لوحة رقم 12: النص التأسيسي لبرج قامة الفول

هاتف غيب بوبرجة تاريخ

ديدى بوبيت عديم البدلى

ايلدى بونده بناسن برجك

راى عاليسى ايله حاجى على

در زمان سنة اسماعيل باشا

1080

ترجمة النص:

صوت غامض هتف كتاريخ لهذا البرج

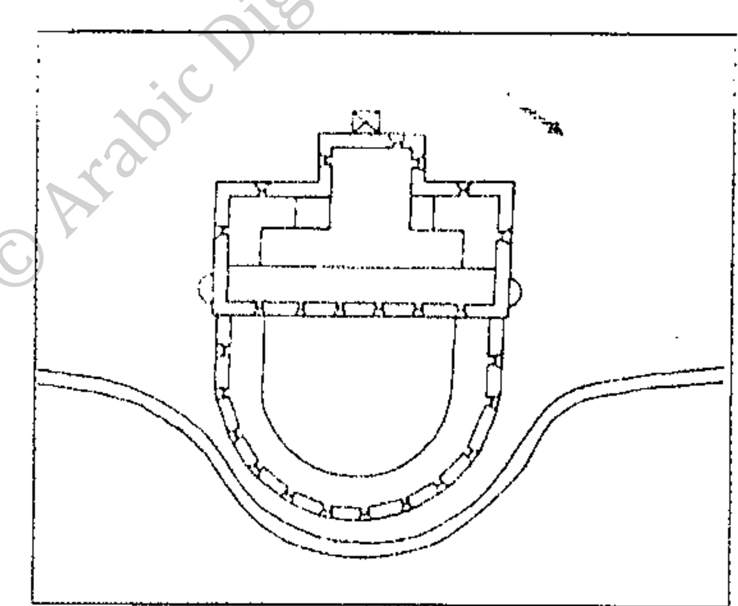
هذا البيت الشعري لا مثيل له

شيد قلعة بهذا المكان

الحاج علي بتصميمه العظيم
في عهد إسماعيل باشا سنة
1080(خلاصي 1991: 124)

يقابل هذه السنة بالتاريخ الميلادي سنة 1669-1670م و هي فترة حكم الحاج علي باشا الذي أمر ببناء هذا البرج أيام الحكم الاسمي لإسماعيل باشا و الذي بعث به السلطان العثماني إلى الجزائر.

سمى الأهالي البرج بقامة الفول لما كان يحيط به من حقول الفول، أما الأوربيون فأطلقوا عليه اسم برج الانجليز بعد حملة اللورد اكسموث سنة 1816م (Devoulx 2003: 129). شكل البرج مستطيل يحتوي حسب مخطط بوتان على 13 فتحة مدفعية موزعة على النحو التالي: ستة موجهة إلى الجهة الشمالية الشرقية و خمسة إلى الجهة الجنوبية الغربية و فتحة واحدة في كلتا الجهتين الغربية و الشرقية. في الجهة الشمالية يوجد متراس دائري الشكل أقل ارتفاعا من الحصن و يحتوي بدوره على تسعة فتحات للمدفعية أما من الخارج فكان يحيط بالبرج خندق (Boutin 1808: 29). يتم الدخول إلى البرج عبر جسر خشبي بني في الجهة الغربية و يؤدي إلى الباب الوحيدة و هي مغطاة بقبيبة. بنيت أسوار البرج بالحجارة المصقولة و الدبش و الآجر (Devoulx 1878: 130) (مخطط رقم 2).



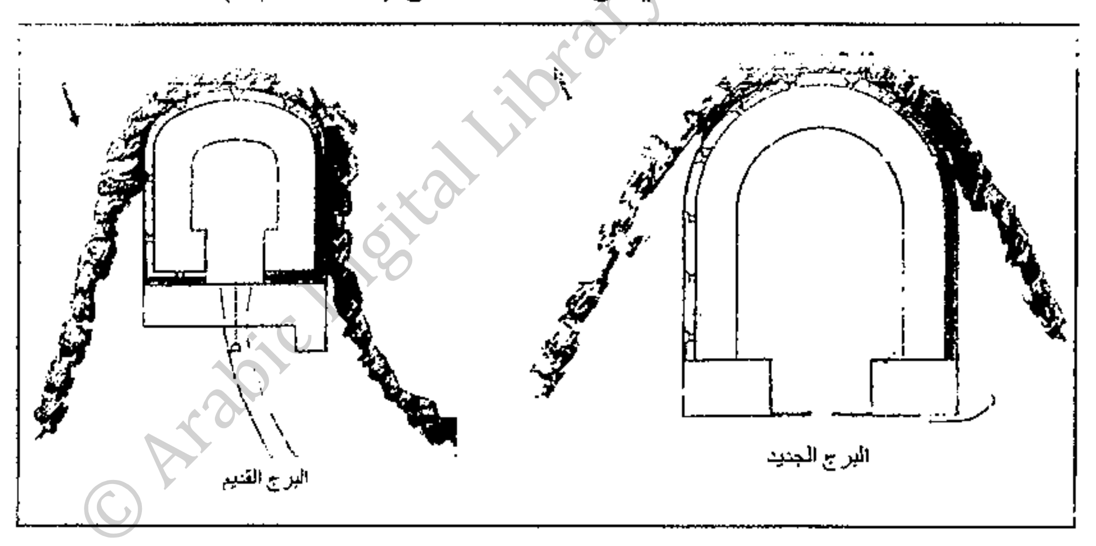
مخطط رقم 2: برج الانجليز حسب الورقة 10 من مخططات بوتان

برجا مرسى الذبان أو برجا رأس بيسكاد:

يبعدان بحوالي 7 كلم شمال غرب المدينة و كانا يتوليان حراسة ما يعرف اليوم بشاطئ بلكين (بولوغين) و الجهة الغربية من خليج مدينة الجزائر.

البرج القديم:

كان يرتفع عند نهاية الرأس الضيق و المنحدر الذي يشكل إحدى جهات خليج المرسى، بناه الحاج علي أغا سنة 1671م و رممه محمد بن حسان باشا عام 1724م. يحرس البرج 15 جنديا و به ستة قطع مدفعية و يضم مصنعا للبارود (Klein 1937: 81) اتخذ هذا البرج شكل حذوه الفرس حسب الورقة رقم 11 من مخططات بوتان، و يوضح الرسم وجود تسعة فتحات للمدفعية موزعة كالتالي: ثلاثة موجهة إلى الجهة الشمالية، فتحتان في كلتا الجهتين الشرقية و الغربية و فتحتان موجهتان نحو الجهة الجنوبية التي يقع بها مدخل البرج (مخطط رقم 3).



مخطط رقم 3: برجا مرسى الذبان عن الورقة 11 من مخططات بوتان

البرج الجديد:

و يبعد بحوالي 50 م عن الأول بني سنة 1823-1824م عندما وصل خبر للداي حسين باقتراب حملة فرنسية على المدينة و ستفصل الباحثة فيه لاحقا.

برج سيدي فرج:

يقع على بعد 26 كلم غرب مدينة الجزائر و حسب بوتان فان هذا البرج ضعيف و هو مربع الشكل يبلغ ارتفاعه 16 إلى 20م، و كل ضلع منه يبلغ عرضه ما بين 3 إلى 5م. و البرج مسلح بمدفعية رديئة، سمي كذلك نسبة إلى الولي الصالح المدفون بالمكان (Boutin 1808: 24). و يذكر أن الأغا يحي زود البرج باثني عشرة مدفعا عندما بدأت بوادر الحرب تظهر بين الجزائر و فرنسا (خوجة 1833: 190).

برج باب عزون أو برج السفيد:

لأنه مبني على هضبة من الشيست الأسود برأس تافورة أطلق عليه الأهالي اسم برج رأس تافورة، كما عرف ببرج السفيد و يعني البرج الأبيض ذلك أن أسواره كانت مطلية بالجص الأبيض تماشيا مع عادة المسلمين بالمدينة (Colin 1901: 184). كان يقع عند منحدر حصن الإمبراطور و على بعد 800م من باب عزون و على ارتفاع حوالي 30 قدم فوق مستوى سطح البحر، و هو أول التحصينات الدفاعية الواقعة في الجهة الشرقية لخليج المدينة على مقربة من البحر. و موقعه جنوب المدينة وفي عمق الخليج جعله في مأمن من الهجمات القادمة من جهة البحر. أول برج بني بالمكان كان سنة 1071هـ\1661م على يد رمضان أغا اثر محاولة نزول سرية بالمكان من طرف فرسان مالطا (Delphin 1904 in R.A: 191-192) قام بتوسيعه مصطفى باشا عام 1798م.

كانت الواجهة المطلة على البحر تضم 19 فتحة مدفعية في الجزء العلوي منه و 18 فتحة في الجزء السفلي، أما الواجهة المطلة على الطريق فكان بها 18 فتحة في الجزء العلوي. الواجهة الجنوبية الشرقية بها صفين العلوي يضم 18 فتحة والسفلي خمسة فتحات، أما الواجهة الشمالية الغربية فيها 12 فتحة في الجزء العلوي و ثلاثة في الجزء السفلي. و في مقدمة البرج من جهة البحر يوجد بقايا برج قديم شكله نصف دائري و هو مسلح بأحد عشر مدفعا و عليه فمجموع المدفعية التي كانت تحرس البرج ستين مدفعا (Klein 1937: 78-79)، يحتوي البرج أيضا على صهريجين للماء متصلان ببعضهما و مساكن للجنود في الناحية الغربية منه يصل عددهم في الحالات العادية إلى 200 مدفعي و 100 جندي، كما أعدت إحدى الغرف كمسجد بحيث يبرز محرابه نحو الفناء (Delphin 1904: 195-196).

تم العثور على نصين تأسيسيين و كلاهما يدل على نهاية الأعمال بالبرج. الأول غير معروف المكان تم العثور عليه أثناء تهديم البرج سنة 1905م و يحمل تاريخ 1218هـ، أما الثاني فقد ذكره

كولان (Colin) و هو مؤرخ بتاريخ الانتهاء من البناء سنة 1219هـ و كان مثبت على مدخل البرج بالواجهة الشمالية. اهتم كولان بالثاني لكونه الأصل و قد نفذت كتابته بطريقة محترفة تدل على مهارة الصانع فجاء النص على لوح من الرخام بخط النسخ الشرقي و بطريقة الحفر الغائر المكفت بالرصاص. يبلغ ارتفاع اللوح 0.69 م و عرضه 1م، وزعت الكتابة على أربعة أسطر كل سطر به شطرين يحيط بكل واحد إطار و النص كالآتي (Colin 1901: 183):

تعالى الله زهى خير بلند كيم ايلدى ايجاد	**جزايره متانت هم اوله اسوده حال عباد**
او صدر عالى والى جزاير مصطفى باشا	**ايدوب همتنى مبذول بو برجى ايلدى بنياد**
قره طاش اوزره اساسن قوروب جون ايلدى تمام	**ديدى بورج سفيد اسمن ركوندر افرين اوستاد**
كلوب بر هاتف غيبى ديدى جاكرى تاريخن	**حصن عجيب بالا متين قلعة سنكين جهاد**

سنة 1219

ترجمة النص:

سبحان الله أنعم على من شيد هذا البناء المحكم	**فليكن قوة (مدينة) الجزائر و يحقق في نفس الوقت راحة العباد**
الصدر العالي حاكم الجزائر مصطفى باشا	**بذل قصارى جهده لبناء هذه القلعة**
شيد أسسها على صخرة سوداء و أتمها على هذا النحو	**قال: "اعترف أن اسمها هو برج السفيد" أحسنت يا أستاذ**
صوت خفي انبعث فجأة تشاكري تلفظ تاريخه	**حصن عجيب عالي متين قلعة راسخة كالصخر**

سنة 1219 (خلاصي 1991: 114)

يظهر من خلال الكتابة تاريخ البناء على أيام حكم الباشا مصطفى و أيضا الفنان الذي نفذ الكتابة إبراهيم تشاكري و الذي اشتهر أيضا بزخرفة جامع كتشاوة (Colin 1901: 184).

تم بناء البرج ليدعم جنوب المدينة حيث تتقاطع نيرانه مع حصن الإمبراطور الذي يعلوه بحوالي 150م كما كان يساهم في حماية أكثر أبواب المدينة ازدحاما و هو باب عزون. لعب الحصن سنة 1830م دورا كبيرا في صد السفن الفرنسية من الاستيلاء على بطاريات رصيف الميناء المقابلة له كما صد الهجوم من الناحية الغربية إلى جانب حصن الإمبراطور (Delphin 1904: 195).

كان البرج مكسوا بالحجارة الكبيرة المشذبة التي جلبت من موقع رسقونيا القديم. أما تلبيس الجدران الداخلية فكانت بالحجارة الطوفية* الضعيفة المقاومة و قد جلبت من محاجر بلكور أما

---

* طوف: صخر مسامي يتجمع من مقذوفات البراكين أو الترسبات حول الينابيع.

أرضية السطوح فكانت جيدة البناء بحيث يكسوها آجر مصنوع من قطع شديدة الدقة و جيدة الحرق يغطيه طبقة من الرمل سمكها 10سم و قد ولد هذا النمط في البناء نوعا من المطاطية في المنحدر مما يخفف ضغط قوة المقذوفات قبل سقوطها على منشآت البرج (Delphin 1904: 193-197).

برج القنطرة:

بني على ربوة عند الضفة اليسرى لمصب وادي الحراش الذي يبعد عن مدينة الجزائر حوالي 12 كلم و على مقربة من القنطرة التي بناها الحاج أحمد باي سنة 1697م و رممها إبراهيم بن رمضان عام 1737م. أما البرج فقد بني سنة 1724م، و للموقع علاقة بأحداث هروب الإمبراطور شارل كانت و فلول جيوشه المنهزمة على أسوار المدينة سنة 1541م و قد ذكرت الأحداث أعلاه.

سمي البرج كذلك لأنه كان يحمي قنطرة الحراش كما كان يشرف على الطرق الرئيسية القادمة من الشرق إلى المدينة (حليمي 1972: 242)، و عرف أيضا باسم البيت المربع نسبة إلى شكله المربع و أيضا برج الأغا نسبة إلى يحي أغا حيث أعاد بناءه بين سنتي 1822-1824م. و كانت الحملات العثمانية تنطلق منه لجمع الضرائب من سكان و قبائل السهل المتيجي المتمردة (Klein 1912: 68-69). تفطن الفرنسيون إلى الأهمية العسكرية لموقع قنطرة الحراش و البرج المربع فاتخذوه موقعا متقدما لهم لحراسة الجهة الشرقية من المدينة (Berbrugger 1843: T1, 28).

شكل البرج مربعا طول ضلعه 85م يحيط به مجموعة من الأقواس تحتها مباشرة يوجد معلف للخيول كما يتوسط البرج معلف آخر يحتوي على إسطبلات للخيول و مخازن للعلف. على طول المربع يوجد غرف طويلة و ضيقة فتحت بها نوافذ تطل على الفناء كما وجدت فتحات أخرى تطل على السهل للتهوية و مراقبة ما يجري في هذه الناحية (Rozet 1833: 176).

إلى جانب هذه الأبراج يوجد برج تامنتفوست الذي ستخصص له الباحثة فصلا مستقلا جنبا إلى جنب حصن الإمبراطور الواقع في أعالي المدينة.

2. 6. 3. تحصينات أعالي المدينة:

تحتل الجهة الجنوبية من المدينة و من أهم تحصيناتها حصن السلطان خلاصي أو حصن مولاي حسان أو حصن الإمبراطور كما يطلق عليه غالبا، و لأهميته الفعالة في الدفاع عن المدينة سنتركه إلى الدراسة الميدانية، و القصبة في أعالي المدينة لا تقل أهمية عن التحصينات السابقة الذكر.

القصبة:

تقع في أعلى نقطة بالمدينة على ارتفاع 118م على مستوى سطح البحر و تحتل الناحية الغربية منها، تطل القصبة من الجهة الشرقية على المباني التي تنزل متدرجة باتجاه البحر و على أسوار و أبراج و حصون المدينة المحيطة بها كما تطل على الميناء و تحصيناته و على البحر المقابل لها. أما من الناحية الجنوبية و الغربية فتطل على الريف و على حصني الإمبراطور و حصن النجمة.

بدأ عروج بناء القلعة سنة 1516م و أحاطها بالأسوار مباشرة بعد استقراره بالمدينة و جهزها بالمدفعية و نصب بها حامية تركية تشرف عليها. أتم بناءها خضر باشا عام 1590م (De Haedo 1880 in R.A: 58) لتصبح مقر سكن دايات الجزائر منذ حكم علي خوجة (1817-1818م) عندما بدا الجيش يثير الثورات ضد الدايات و أصبحت القصبة على إثرها محكمة التحصين و التسليح بالمدافع المجهزة و الموجهة إلى المدينة في حالة نشوب ثورة ما.

وصف هايدو القصبة في القرن السادس عشر قائلا: "القصبة و هي القلعة القديمة بالمدينة و هي جزء من سور ارتفاعه 25 شبر يبرز عن مجمل سور المدينة بحوالي 3-4 خطوات و يمتد على مسافة 100 خطوة من الشمال إلى الجنوب ثم يعود مشكلا زاوية ليتصل بالسور الرئيسي من جديد و يحيط بالقصبة سور آخر على نفس امتداد السور الأول لكنه اضعف منه. يبلغ طول القلعة 100 خطوة و عرضها 60 خطوة و هي منفصلة نوعا ما عن بقية التحصينات. يدعم سورها الخارجي تراب مركوم يبلغ سمكه 20 شبرا و يظهر منه برجان مدعمان أيضا بالتراب المركوم يضمان بدورهما فوق مساحة ضيقة ثمانية مدافع ذات عيار صغير و يسكن القصبة ستون من الجيش الانكشاري و الذين يقومون على حراستها ليلا نهارا" (De Haedo 1998: 41-42).

أما مارمول كربخال (Marmol Carvacal) فجاء في وصفه للمدينة ذكر للقلعة: "... و ترتفع أسوارها شيئا فشيئا فوق التلال ثم تتجه نحو الجنوب مكونة رأس مثلث مرتفع يظهر من بعيد و في قمته قلعة ترى من مسافة بعيدة في البحر..." (كاربخال 1989: ج2، 363).

كان بمدخل القصبة نص تأسيسي يخلد تاريخ الانتهاء من البناء في سنة 1000هـ\1591-1592م، جاءت الكتابة على لوح رخامي ارتفاعه0.65م و عرضه0.62م، و قد نفذت كتابته بطريقة الحفر الغائر موزعة على ستة أسطر كل سطر به شطرين، بينما كتب التاريخ وسط السطر السادس و إمضاء ناقش الكتابة. و نصها كالآتي (Colin 1901: 26-28):

اول خدا حقى كه رحمت اندن امر و خاص و عام
شول حبيب محترم اولدرر خير الانام

جونكى وردك رفعتى سن سها اشيو مقامه
اخرك معمور اولوب جهانده اولغل سن بنام

بو نيتهكيم جرخ كردون ايدوب دور روش دولان
دينده دولتك يانينه بو حبهان طوته نظام

و لطف حاصل كمالك خوميوس بويننه
جانمز قلدق فدا نام شريفك مستدام

حنك خضر باشا بر كاتب ددى تاريخنى
سعد اكبر كون مبارك كامل اولدى السلام

كاتب الحروف محمد بن خضر سنة 1000
غفر الله له و لوالديه و للمسلمين

ترجمة النص:

بحق الله الذي تفيض عنه الرحمة للخاص و العام
و بالحبيب المحترم خير الأنام

شموخك يا صرح و صل إلى النجم القطبي
فلتعمر مبانيك في هذه الدنيا إلى يوم الحساب

بهذا الحل يسقط كل من يريد الخداع
إذ تحصلت الدولة على نظام دقيق يخص شؤون الدين و الدنيا

بهذه الطريقة بفضل عما النعم الإلهية المنتشرة
العادة في أسى شديد و أشخاصنا في أمان الأزلي

كاتب خضر باشا السعيد قال تاريخه
تم بناءه في يوم مبارك في أكبر سعادة و سلام

كاتب الحروف محمد بن خضر سنة 1000
غفر الله له و لوالديه و المسلمين(Colin 1901: 27)

تشكل القصبة مثلثا محيطه 530م يتوج قمته بطارية منكسرة الزوايا، أما ضلع المثلث الشمالي الغربي فهو امتداد لسور باب الوادي و الضلع الجنوبي الغربي امتداد لسور باب عزون، بينما الضلع الثالث المواجه للبحر من الناحية الشرقية يمثل الحد الفاصل بين المدينة و القلعة و قد فتح بهذا الأخير المدخل الرئيسي إليها حيث يشرف عليه بطارية بها خمسة فتحات للمدفعية واحدة من جهة الشمال و ثلاثة من جهة الشرق و واحدة في الزاوية الجنوبية الشرقية (Devoulx 2003: 72-73).

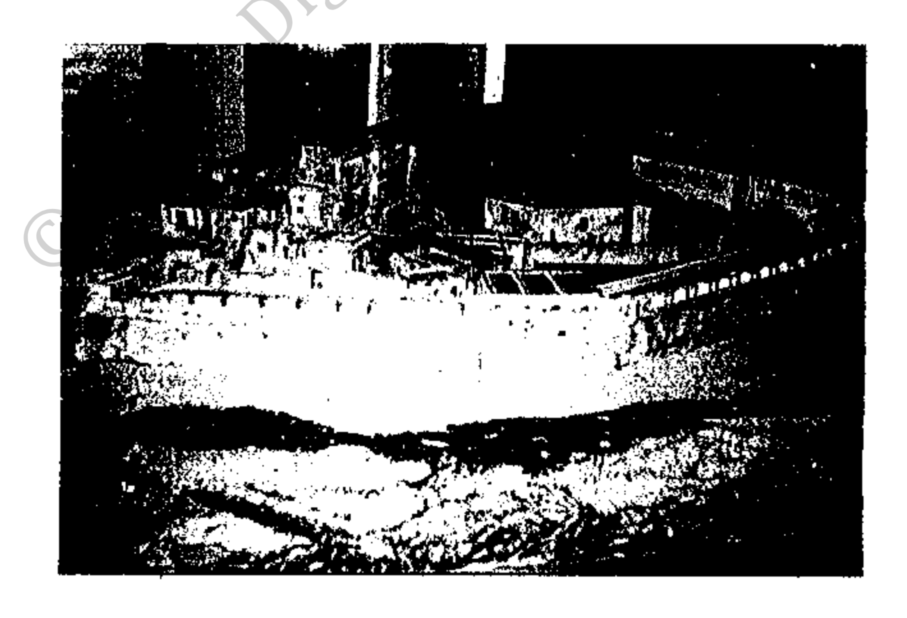
يدعم القصبة سبع بطاريات موزعة على كل اتجاهاتها يتخلل كل بطارية مجموعة فتحات للمدفعية و مزاغل للرماية و كان مجموع المدافع بها ثمانية و ثمانين مدفعا يقوم عليها ثلاث صفرات (حاميات عسكرية) مجموعها تسعة و خمسون جنديا يتم تغييرهم كل ربيع من كل سنة و يشرف عليهم قائدان للمدفعية و قد كان يتوسط القصبة مصنع للبارود ثماني الأضلاع بني على قاعدة مربعة قطره 25م (Devoulx 2003: 74-75).

يذكر كلاين: "أن القصبة سنة 1830م كانت محصنة بأسوار ضخمة مبنية بالآجر يحيط بها حصون مسلحة بخمسين مدفعا و اثني عشر مهراسا، سبعة و عشرون منها كانت موجهة إلى الميناء و عشرون أخرى موجهة إلى الريف" (Klein 1912: vol 3, 51-52).

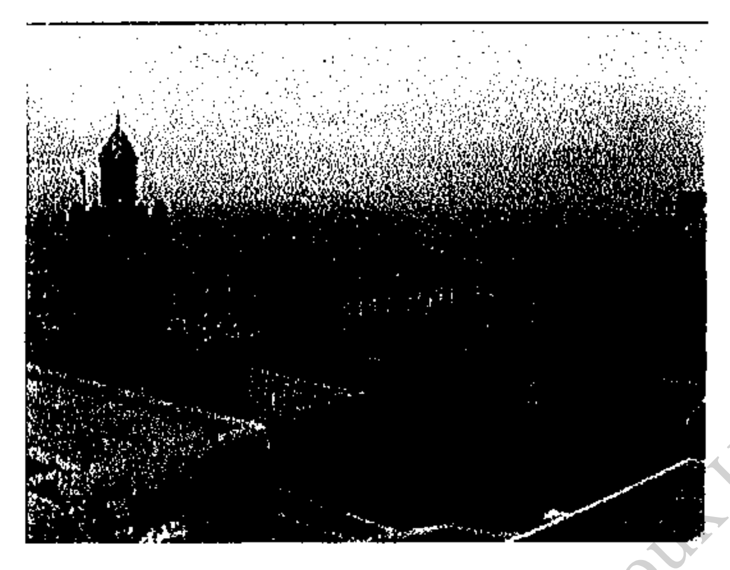
تعد القصبة مجمعا معماريا متكاملا حيث يضم مجموعة منازل كانت مخصصة للداي و مسجد و ثكنات عسكرية وحمام و مطابخ و مصنع مهم للبارود، بالإضافة إلى جناح الحريم و الحدائق و المخازن المعبأة بمختلف السلع كالشمع و الصوف و الرصاص و السكر و الملح و المدافع و البنادق و الخناجر و كل ما يحتاجه ساكني القلعة (Klein 1912: 23). (صورة رقم 4-5-6)

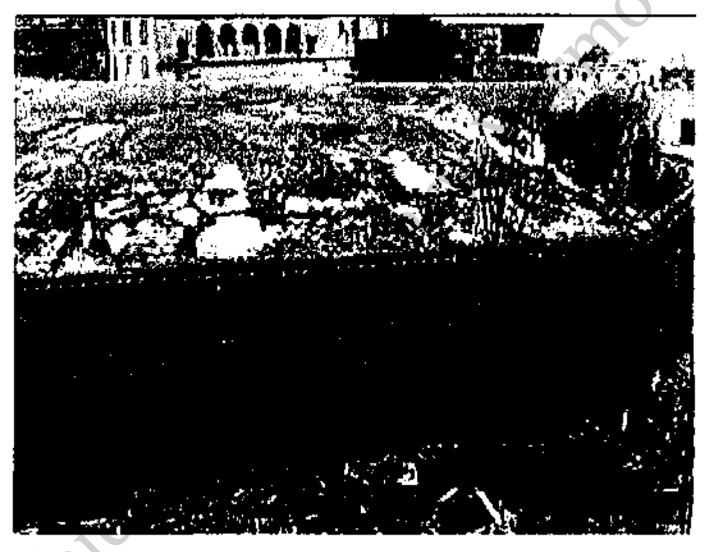


صورة رقم 4: صورة جوية لقلعة الداي



صورة رقم 5: مجسم لقلعة الداي و تحصيناتها





صورة رقم 6: منظر لمسجد القلعة و مصنع البارود

برج محمد باشا أو برج النجمة:

يقع برج محمد باشا على بعد حوالي 150م جنوب القصبة بني سنة 1568م و أشرف عليه مصطفى الصقلي الذي تولى بنفسه تحصين مدينة حلق الوادي التونسية. يقول هايدو: "يعد من بين الثلاثة حصون الدفاعية الأقوى بالمدينة و يقع على بعد 600 خطوة جنوب غرب القصبة يتخذ شكلا خماسيا، قطره 50 خطوة بما فيها 25 خطوة للفناء، أسواره مبنية بالتراب المركوم إلى الأعلى و ارتفاعها 30 شبرا و سمكها 20 شبرا، يتخلل كل واجهة أربع فتحات للمدفعية بينما يضم الفناء ثمانية غرف صغيرة مخصصة للحامية العسكرية و صهريج ماء كبيرو مخزن للذخيرة.

كان البرج مسلحا بثمانية مدافع ذات العيار الصغير و هي غير مركبة" (De Haedo 1998: 47-48). أما كلاين فيقول أن البرج كان مسلحا بعشر مدافع و قد أطلق الأوربيون عليه اسم برج النجمة نسبة إلى شكله، لم يعرف شيء عن تاريخ اندثار البرج و نقل عن الأهالي أن جارية أضرمت النار في مخزن البارود مما ولد انفجارا كبيرا انتقاما من سيدها الذي كان حاكما عليه (Klein 1937: 79) و (Boutin 1901: 35).

بعد استعراض المعالم الدفاعية بمدينة الجزائر عامة و التي أنشئت على مراحل مختلفة ارتأت الباحثة انتقاء بعض النماذج لدراستها ميدانيا بهدف استخلاص نمط البناء و أهم الخصائص التي تشترك فيها هذه الأبنية، و قد وقع الاختيار على أربعة أبراج لا تزال قائمة تتوزع على نقاط مختلفة من المدينة لكل دورها في حمايتها. و هي: برج تامنتفوست، حصن الإمبراطور، برج الكيفان و برج مرسى الذبان الجديد.

الفصل الثالث

النماذج المختارة للدراسة الميدانية

مقدمة: دوافع اختيار المواقع

خلال سرد أهم الحملات التي تعرضت لها الجزائر تحت الحكم العثماني، تعرضت الباحثة إلى حملة شارل كانت التي عرفت كأكبر حملة على المدينة آنذاك و أولتها بعض التفصيل في الأحداث. ذلك أن اسبانيا و الدول المجاورة لها الخاضعة للإمبراطورية الاسبانية شاركت في الحملة و كرست لها أموالا طائلة و جهز الأسطول المعروف آنذاك بالأرمادا الاسبانية وتعني الأسطول الحربي الكبير أحسن تجهيز. انطلقت الحملة باتجاه المدينة عازمة القضاء عليها دون هوادة لكن الإرادة شاءت أن تقلب الموازين و تخرج الجزائر منتصرة و ملحقة أضرارا جمة بالعدو.

أولى مؤرخو الغرب و المسلمين على حد سواء اهتماما كبيرا في سرد تفاصيل هذه الحملة لما كان لها من وقع سلبي على الأوربيين لاندحارهم و خسائرهم الفادحة، و من وقع ايجابي على المسلمين خاصة في شمال إفريقيا حيث نشبت عدة ثورات بعدها على الحكام الأسبان بالمدن الجزائرية الأخرى.

قد يتساءل القارئ ما علاقة هذه الحملة باختيار مواقع الدراسة الميدانية؟ و الرد على ذلك هو تفاصيل الحملة و كيف نزلت و أرست سفنها بالناحية الشرقية من خليج المدينة ثم سارت الجيوش باتجاهها لتتخذ من هضبة كدية الصابون موقعا لنصب خيمة الإمبراطور شارل كانت و توجيه المدافع منها إلى الأسوار الخلفية للمدينة (لوحة رقم 2-3)، و كذا إعطاء الأوامر لتحرك الجيش في حين أغفل الجزائريون تحصين هاتين الجهتين و اهتموا كثيرا بتدعيم و تحصين الميناء الذي كان و بقي النواة الحية للمدينة. وجد العدو فرصة التحرك بحرية تامة والاقتراب من المدينة و أسوارها و عند انهزامه اتخذ نفس المسلك للعودة إلى السفن الراسية بتامنتفوست باتجاه اسبانيا. و هنا كانت الثغرة واضحة في تحصينات المدينة حيث منعت شجاعة المدافعين و بسالتهم القضاء على المدينة.

أما بالنسبة للبرج الثالث و بالرغم من تأخر فترة بنائه إلا أن موقعه و قيمته الأثرية شد انتباه الباحثة و ارتأت تخصيصه في البحث إلى جانب البرجين الأولين. كما بني برج الكيفان لتدعيم برج تامنتفوست و تحصينات الجهة الشرقية من خليج المدينة، و ساهم في صد بعض الحملات المتسللة من هذه الجهة.

1. برج تامنتفوست

1. 1. أهمية الموقع:

يحتل هذا البرج موقعا مهما بالنسبة للمدينة، فهو يقع عند رأس تامنتفوست الذي يتحكم في مدخل خليج المدينة من الناحية الشرقية و الشمالية الشرقية و الذي كانت تلجأ إليه السفن الغازية للرسو و الإنزال البري خاصة في فصل الصيف حيث يكون الشاطئ محميا جيدا من الرياح (Shaw 1980: 309).



صورة رقم 7: صورة جوية لبرج تامنتفوست

و البرج عبارة عن حصن متقدم يحرس إلى جانب الميناء و الشاطئ الجهة الشرقية للمدينة و يرد بالمدفعية على نيران العدو المتسلل من هذه النقطة لتدعيم تحصينات مدينة الجزائر و سد الثغرات الموجودة بها و تقوية نقاط ضعفها. كما كانت تطلق منه الطلقات الشرفية عند قدوم أو خروج حكام المدينة و الأساطيل الداخلة أيضا و الخارجة من المرسى. و قد كان لحملة شارل كانت على المدينة نقطة تحول كبيرة في تحصين و تدعيم المدينة بالأبراج و الحصون و الأسوار و البطاريات.

1. 2. الأهمية المعمارية:

لم تتصف تحصينات المدينة بالطابع الموحد أو التخطيط الواحد فقد كانت كل منطقة في المدينة يبنى فيها برج أو حصن وفقا لطبوغرافية الموقع، فقد تنوعت تضاريس المدينة بين البحر و الجبل

لذلك وجدت تحصينات على شاطئ البحر كما وجدت في أعالي المدينة على بعض المرتفعات و الجبال المحيطة بها، و منها ما كانت على جزر صغيرة مقابلة للميناء. و اتخذت هذه التحصينات الشكل المربع و المستطيل و المضلع و حذوة الفرس و غيرها و كان يتحكم بالشكل اختيار الموقع كما مر معنا.

لكن و مع هذا يبقى برج تامنتفوست من بين الأبراج الفريدة في التخطيط و الشكل بالمدينة و كونه أيضا من بين المعالم الدفاعية القليلة بالمدينة المحاطة بخندق.

1. 3. الأهمية الأثرية:

تكمن أهميته الأثرية في كونه لا يزال قائما بمعالمه الدفاعية الواضحة بالرغم من تعرض أجزاء منه لتغييرات كثيرة نتيجة عدة عوامل إلى جانب تقادم الزمن عليه، فتعددت استعمالاته و أدخلت إضافات و تعديلات عليه بمواد مختلفة عن الأصل لكنه اليوم يخضع للترميم في محاولة لإعادته لما كان عليه سابقا.

لا يزال اليوم برج تامنتفوست شامخا و صامدا برغم تقادم الزمن عليه و تعرضه لعدة عوامل خاصة الطبيعية كالزلازل التي تضرب المنطقة بشكل متواصل آخرها الزلزال العنيف الذي ضرب مدينة الجزائر بتاريخ 21-05-2003 حيث أحدث أضرارا بشرية و مادية جسيمة بينما بقي البرج صامدا، و هذا دليل على براعة البناء الجزائري في التصدي للحملات الشرسة التي كانت تتعرض لها المدينة. و قبل التطرق إلى العمل الميداني رأيت أنه من الواجب التطرق إلى المدينة التي يقع بها البرج و علاقتها و دورها في حماية مدينة الجزائر من هذه الناحية.

1. 4. الموقع الجغرافي لمدينة تامنتفوست:

تقع مدينة تامنتفوست على بعد 25 كلم شرق العاصمة و هي تحتل الجزء الشرقي من خليج الجزائر. يحدها من الشمال و الغرب البحر الأبيض المتوسط و من الشرق بلدية عين طاية، أما من الجنوب فبلدية برج البحري و يكتسي هذا الموقع الجغرافي أهمية إستراتيجية كبيرة لكون المدينة تطل على الساحل. بنى الأتراك البرج في القسم الجنوبي الغربي للمدينة الذي يشرف على الجهات الثلاث و هي: الشمال و الغرب و الجنوب (Berbrugger 1845: 5).

1. 5. تاريخ المدينة و أصل التسمية:

شهدت المدينة بحكم موقعها الاستراتيجي تجمعات سكانية منذ القدم، إذ تمركز بها الفينيقيون و أسسوا مستوطنة و مرفأ صغير بها يحمل اسم رسقونيا "Resgunae" و أصبح هذا الميناء مركزا تجاريا هاما في القرن الرابع قبل الميلاد (شارل 1978: 109).

أما عن معنى التسمية فقيل أن الشطر الأول من الكلمة"رس" يعني قمة أو رأس. و الشطر الثاني" قونيا" يعني الأدغال و منهم من فسره على أنه كلمة أمازيغية الأصل يعنى بها: ينام، و المعنى الأقرب إلى الصواب هو الرأس الممتد (Berbrugger 1845: 3).

أما التفسير الثاني: فجاء على أن الشطر الأول مأخوذ من اللغة العربية "رأس" و الشطر الثاني من الأمازيغية القديمة "أغوني" بمعنى الدغل، فيكون المعنى الإجمالي هو: " رأس الأدغال". ويرى الباحث أن التسمية تتماشى مع عدد كبير من الأماكن الواقعة على الساحل الجزائري (Guery 1959-1965: 2).

أثناء الاحتلال الروماني للجزائر أصبحت رسقونيا (Rusguniae) مستعمرة رومانية ووسعت في ظل حكم الإمبراطور أغسطس سنة 27ق.م و قد دل على خضوعها بعض الكتابات الأثرية التي وجدت في موقع رسقونيا القديم: "Rusguniae Coloniae Augustae" بمعنى: رسقونيا مستعمرة أغسطس (Stephan Gsell 1911: 6)، كما تم العثور على الكثير من البقايا كالآبار و قناطر المياه و العيون و هي دليل على أن الرومان استغلوا المنطقة للزراعة (Klein 1937: 252).

بدخول الوندال تعرضت المدينة كغيرها من مدن شمال إفريقيا للتخريب، لكن أعاد البيزنطيون بناءها في منتصف القرن السادس ميلادي. لم ترد إشارات للمدينة بعدها إلى غاية القرن الثاني عشر ميلادي، عندما وصفها الإدريسي بقوله: "من الجزائر إلى تامدفوس شرقا ثمانية عشر ميلا، و تامدفوس مرسى حسن، عليه مدينة خراب و أكثر سورها قد تهدم، و قل أصلها و بقاياها بناء قديم و هياكل و أصنام حجارة، و يذكر أنها كانت من أعظم البلاد و أوسعها قطرا" (الإدريسي 1864: 114).

و في هذه الفترة ظهرت تسمية تامنتفوست و هي كلمة باللغة المحلية تعني: الأيدي الثمانية، بينما يذكر الباحث كلاين أن الكلمة تؤدي معنى الجهة الشرقية بحكم موقعها بالنسبة لمدينة الجزائر . (Klein 1937: 252)

أما مارمول كاربخال فقال بشأنها: "مدينة قديمة بناها الرومان على الساحل شرقي المدينة السابقة (يقصد بها الجزائر) لها مرسى جيدة ترسو بها سفن الجزائر لأن الساحل معرض للرياح الهوجاء و ما فيه من الخلجان الكبيرة على درجة من الخطورة. يسمي الأفارقة هذه المدينة تمانتفوس... كانت مزدهرة في عهد الرومان فدمرها القوط و اتسعت مدينة الجزائر بما حمل منها من الأنقاض" (كاربخال 1989: ج2، 371).

استرجعت المدينة مكانتها بقدوم الأتراك إلى الجزائر، بحكم موقعها على الساحل و إمكانية تحكمها في مدخل خليج الجزائر من الناحية الشرقية من جهة، و لتوفر مواد البناء في المنطقة خاصة الحجارة المصقولة التي بقيت جراء اندثار مدينة رسقونيا القديمة من جهة أخرى، حتى قيل أن: "أهالي الجزائر جعلوا من رسقونيا محجرة". و هذا ما أوضحه مارمول في نهاية كلامه عن تامنتفوست حين قال:" و اتسعت مدينة الجزائر بما حمل منها من الأنقاض" (كاربخال 1989: 371).

و بالفعل سنة 1529م كان أول اتصال بين الأتراك و هذا الموقع عندما استعمله خير الدين لشن هجوم على قلعة البنيون الاسبانية قبالة مدينة الجزائر فدمرها على أخرها و استعمل حجارتها لإعادة بناء أسوار المدينة و تقويتها و بناء رصيف مينائها(De Haedo 1998: 37).

كان لرسوخ أقدام الأتراك بمدينة الجزائر خيبة أمل على المسيحيين و تهديدا لمصالحهم، فاخذ شارل الخامس، ملك أسبانيا، عهدا على نفسه بأن يقضي على هذه الدولة الفتية التي أصبحت تهدد أمنه فقاد حملته سنة 1541م و تألفت عدته الحربية من عمارة بحرية تحمل 12.300 بحارا و جيش موجه إلى البر يقدر بـ24.000 جندي أما السفن فقدر عددها مابين: 400 و 450 سفينة مجهزة بالمدافع. وصل الغزاة و نزلوا برأس تامنتفوست ثم زحفوا باتجاه المدينة لتبدأ معركة دامية بين الفريقين انتهت لصالح الجزائريين، فتراجع الملك ومن تبقى إلى تامنتفوست مرة أخرى واحتموا بمينائها، إلى أن أبحروا إلى بلادهم من مرفأ تامنتفوست (De Paradis 1891 in R.A: 186-

193 و يفر المجلد6: 412).* اختلف المؤرخون عن عدة و عدد المشاركين في الحملة لذلك ارتأت الباحثة تدعيم البحث بهذا الجدول:

جدول رقم 5: مقارنة المعلومات حول عدة هجوم شارل كانت على المدينة سنة 1541م (كورين 1991: 132).

Hammer هامار	Vitegaignon فيليجينيون	Grammont غرامونت	Ghazaouet مخطوط الغزوات	Haedo هايدو	Mahkeme مخطوط المحكمة	Ch.A.Julien شارل أندري جوليان	Archives De Simanca أرشيف سيمونكاس	Julien De La Graviere جوليان دو لاغرافيير	Sander Rang ساندر رانج
الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية	الجيوش الاسبانية و السفن الحربية
74 سفينة حربية 200 سفينة 274 سفينة صغيرة	65 سفينة حربية 7000 اسباني 6000 ألماني 6000 ايطالي 13000 أخرين 400 من مالطا	451 سفينة 519 سفينة صغيرة 23900 جندي 12330 بحارا	400- 450 سفينة شراعية	500 سفينة شراعية	90000 جندي	516 سفينة شراعية		65 سفينة حربية 451 سفينة	65 سفينة حربية 451 سفينة
22000 مقاتل 1000 فارس 400 فارس مالطي						12330 بحار 24000 جندي		516 سفينة 24000 بحار	516 سفينة 32800 بحار
23400 رجل	26400 رجل	36230 رجل	50000 رجل			36330 رجل		36000 رجل	36230 رجل
جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية	جيوش جزائرية
500 فارس بعض الألاف من العرب	800 تركي 5000 مغربي		-------	3000 تركي و خليط من الأندلسيين و الأهالي	------	------	1000 تركي و 2600 من أهالي المقاطعات	800 تركي 5000 مغربي	-----

* انظر أيضا Ch.De Rotalier, Histoire d'Alger, de la piraterie des turcs dans la méditerranée au 16eme siècle tome1, 1841, p514-541

أظهرت هذه المعركة بالرغم من انتصار أهالي الجزائر، نقاط الضعف في الجانب الدفاعي، بحيث تمكن الملك الأسباني من اتخاذ مرفأ تامنتفوست ملجأ له و لسفنه عند الإنزال و عند الهروب و هذا دليل على أنه لم تكن توجد بالمنطقة حامية عسكرية أو أي استحكام عسكري. فتولى حكام الجزائر تحصين المدينة و سد الثغرات بها مباشرة بعد هذه الحملة تحسبا لحملات أخرى إلا انه سيتضح أن برج تامنتفوست لم يبن إلا بعد سنوات عديدة و هذا ما سيلفت انتباه القارئ للبحث حيث قد يتساءل إذا كان لهذا الموقع من الأهمية البالغة بالنسبة للمدينة فلماذا تأخر بناء البرج إلى سنة 1556م، و هو حسب الكثيرين تاريخ بناء البرج بالرغم من عدم اتفاق الباحثين عن سنة تشييده.

حاولت الباحثة جاهدة معتمدة على الوثائق الحصول على أجوبة مقنعة لذلك، لكن ما توصلت إليه أن السبب راجع لاهتمام الحكام بتحصين مدينة الجزائر و الميناء خاصة، اعتقادا منهم أن الهجمات كلها تأتي من هذه الجهة دون غيرها و هي الأسباب نفسها التي ستعمل على احتلال فرنسا للجزائر من الجهات المغفلة عن التحصين. و يبقى السبب مجهولا خاصة أن الفترة طويلة جدا بين فترة إنزال شارل الخامس سنة 1541م و فترة بناء البرج.

و قبل البدء في التحدث عن بناء برج تامنتفوست يجب ذكر الاسم الأخر الذي عرفت به المنطقة في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر بحيث أطلق عليها اسم رأس ماتيفو Cap Matifou(Berbrugger 1845: 4) بعد تحريفه عن أصله و هو ما حصل كثيرا في هذا العهد حيث حرفت أسماء المدينة و شوارعها عن الأصل و اتخذت أسماء فرنسية (Klein 1937: 50-70).

1. 6. تاريخ بناء البرج:

اختلفت الآراء بين المؤرخين و الباحثين حول تاريخ بناء برج تامنتفوست لأنه لم يتم العثور على كتابة تذكارية أو شاهد مادي يمكن اعتماده للجزم في تأريخه.

يرى برار(Bérard) أن البرج بني على أيام حكم الباشا محمد كورد غلي سنة 1556م (Bérard 1887: 166) و في نفس السنة بعث السلطان العثماني حاكما جديدا إلى الجزائر وهو محمد تكرلي، هذا الأخير أرسى بسفينته في مرفأ تامنتفوست و أطلق قذائف من المدفعية للإعلان عن وصوله، لكن الحامية المتواجدة لم ترد عليه بالرغم من أنها كانت عادة سائدة و ذلك لعدم رضا الجيش بمبعوثي الباب العالي. و في سنة 1571م غادر الباشا علج علي مدينة الجزائر متجها إلى اسطنبول و لكنه لم يتوقف بميناء تامنتفوست لأداء الطلقات الشرفية كما جرت عليه العادة (De

(Haedo 1880 in R.A: 286-411). اللافت للانتباه هنا هو أن هذا الميناء كان يشكل نقطة توقف و عبور إجبارية للأساطيل الداخلة و الخارجة من المرسى.

يرى بربروغر (Berbrugger) أن البرج بني من قبل خليل أغا سنة 1660م و ذلك باستناده إلى حوليات خطية كانت موجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر (Berbrugger 1845: 10) وقد حاولت العثور عليها لكن لم أتمكن من ذلك، بحيث علمت أن الكثير من الوثائق الخاصة بهذه الفترة ضاعت لأسباب مجهولة.

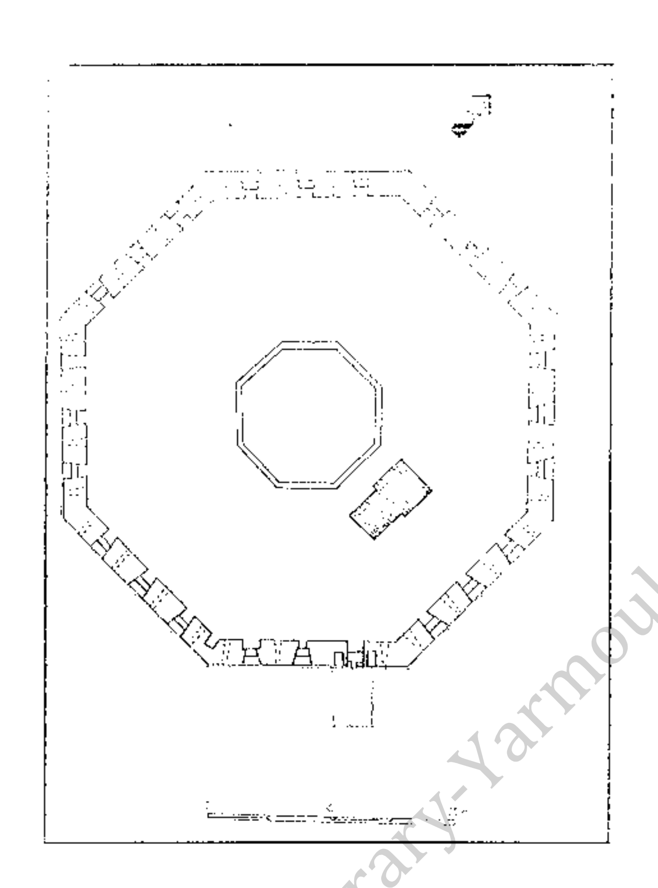
أما كلاين فيذكر أن البرج بني سنة 1661م بأمر من الباشا إسماعيل و أعيد تحصينه سنة1685م من طرف الداي حاج حسين بعد تخريبه أثناء حملة دوكسن (Duquesne) على الجزائر سنة 1683م (Misermont 1905: 57 و37 :Klein 1910).

أما الجاسوس الفرنسي بوتان (Boutin) فذكر أن البرج وضع في حالة دفاعية سنة 1685م، عندما حاولت بعض السفن الفرنسية الرسو في الجون الصغير الموجود أسفل البرج مباشرة (Boutin 1927: 30). و في سنة 1688م توجهت حملة فرنسية بقيادة المارشال دستري (d'Estrées) بأمر من الملك لويس الرابع عشر لقصف مدينة الجزائر و كان القصف عنيفا جدا حيث تعرضت المدينة إلى خسائر فادحة و أغرقت الكثير من السفن الراسية بالميناء، كما تحطم برج تامنتفوست و الخمس عشرة مدفعية التي كانت به (Grammont 2002: 256).

1. 7. الوصف الخارجي للبرج:

بني برج تامنتفوست على هضبة قليلة الارتفاع و شديدة الانحدار لا يتجاوز ارتفاعها 29م عن مستوى سطح البحر، لكنها تتمتع بقدرتها على كسر الرياح الشرقية و الشمالية الشرقية (صورة رقم7).

جاء تخطيط البرج مثمنا، الشيء الذي جعله معلما نادرا في العمارة العسكرية العثمانية بالجزائر،لكن مايترو (Maitrot) يقول حول شكل البرج انه بلا معنى بحيث أن المدفعية التي كانت به لم تكن لتستعمل كاملة و أن جزء منها فقط كان ليصد المحاصرين له، و في حالة احتلاله فستوجه مدافعه إلى المدينة (Maitrot 1912: vol1, 27) (مخطط رقم 4).



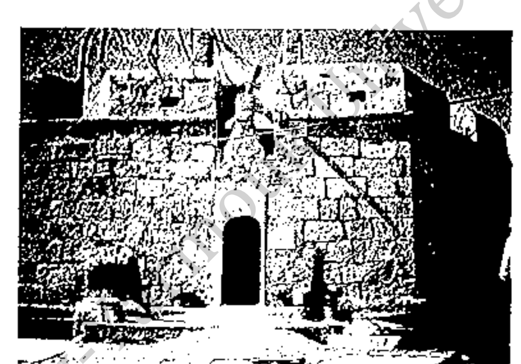
مخطط رقم **4**: مسقط علوي للبرج

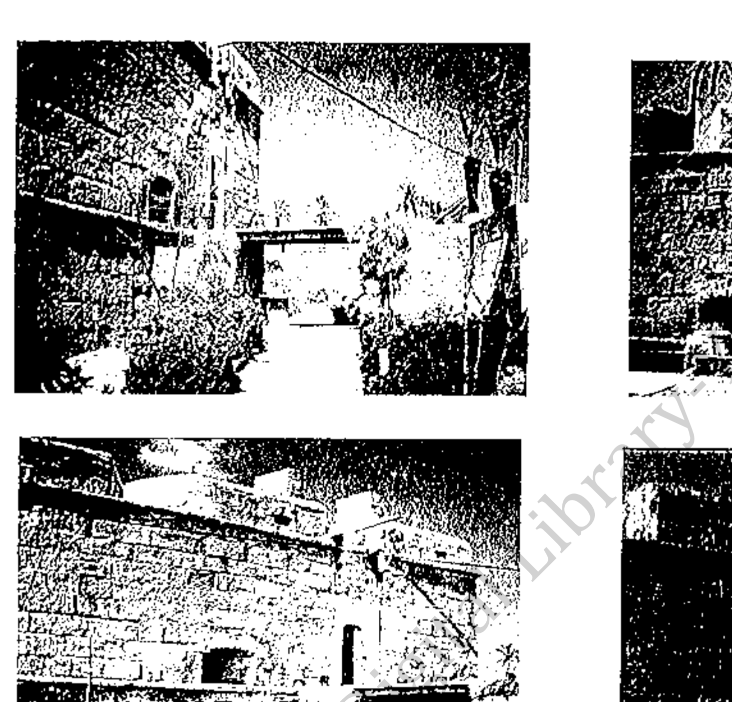
يظهر من الخارج أن للبرج ثلاثة طوابق يفصل بينها إفريز أسطواني أو فاصل بارز إلى الخارج بحوالي 20سم يمتد على طول كل الواجهات (صورة رقم 8). بني البرج من الحجارة الكبيرة المصقولة التي جلبت من موقع رسقونيا القديم الذي يقع على مسافة 1200م شمال غرب البرج.

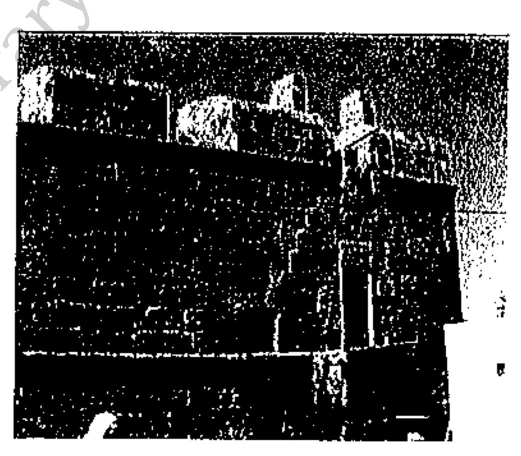


صورة رقم **8**: طوابق البرج

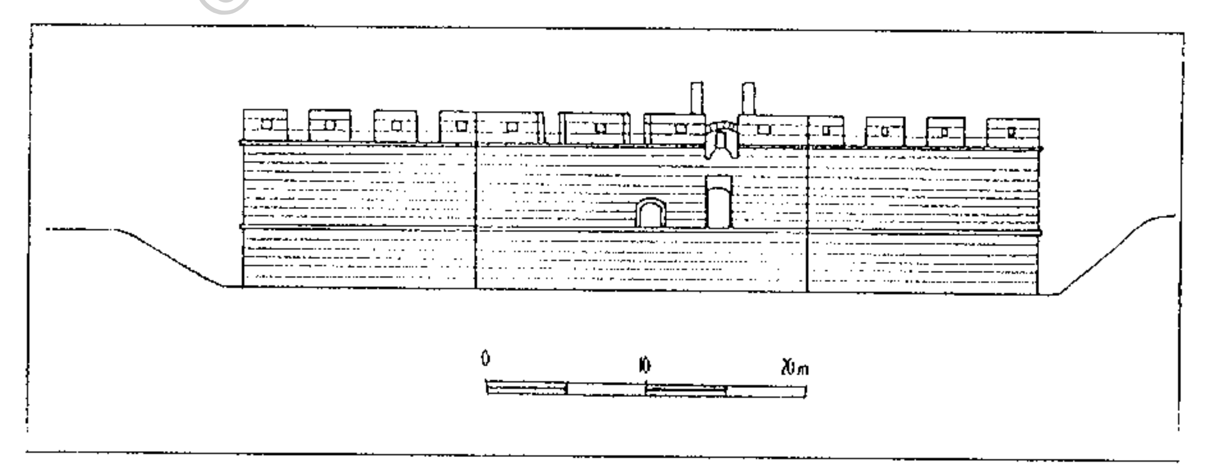
يحيط بالبرج خندق يعبره من الناحية الجنوبية الشرقية جسر خشبي متحرك يؤدي إلى داخل البرج و هو المدخل الوحيد، لكننا نلاحظ أن الباب الأصلي سد و استحدث مدخل جديد أقل حجما، أما الجسر المؤدي إليه فقد غيرت مواد بناؤه أيضا و أصبح مبنيا بالحديد و الآجر، طوله 5م و عرضه2م يخضع البرج لعملية ترميم واسعة خاصة أقسامه الداخلية (صورة رقم 9 + مخطط رقم 5).







صورة رقم 9: مدخل البرج و الجسر

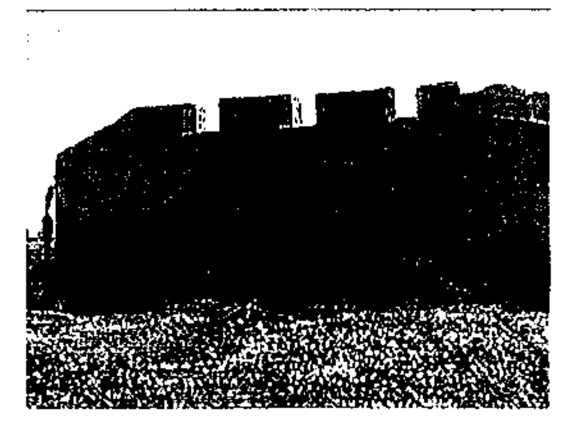


مخطط رقم 5: الواجهة الأمامية للبرج

يرتكز البرج على قاعدة مثمنة الأضلاع قطرها 40م حسب تقرير الوكالة الوطنية للآثار، ارتفاع أسواره من قاع الخندق إلى القمة ما بين: 9م و 9.5 م.

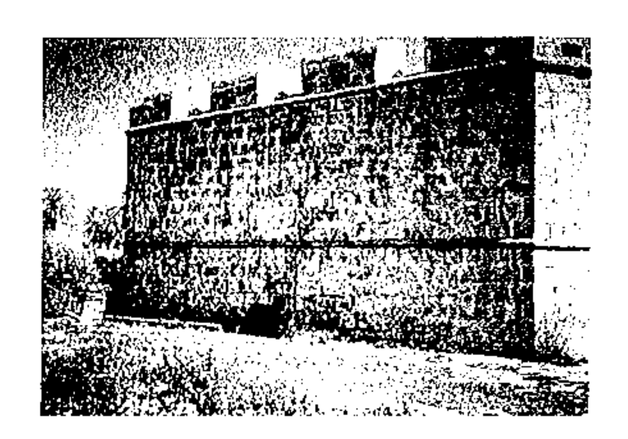
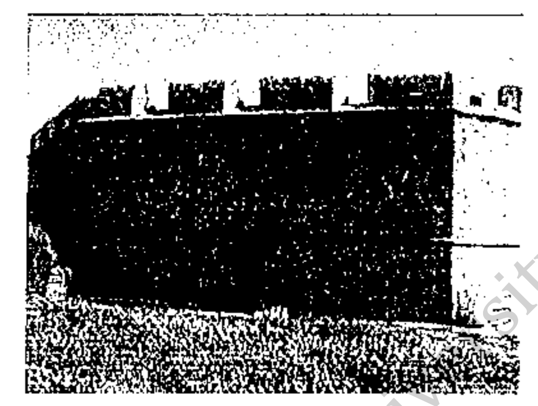
للبرج ثمانية أضلاع يتوجها متراس تتخلله مجموعة من فتحات المدفعية و فتحات للرماية موزعة على عدة جبهات. قامت الباحثة بأخذ قياسات الأضلاع و جاءت كالآتي بداية من يمين مدخل البرج:

- الضلع الأول: 16.90م
- الضلع الثاني: قياسه 16.90م.
- الضلع الثالث: 16.60م (صور رقم 10)
- الضلع الرابع: 16.95م (صور رقم 11).
- الضلع الخامس: 16.70م (صورة رقم 12).
- الضلع السادس: 16.70م (صورة رقم 13).
- الضلع السابع: 16.80م (صور رقم 14).
- الضلع الثامن: 16.30م (صورة رقم 15).

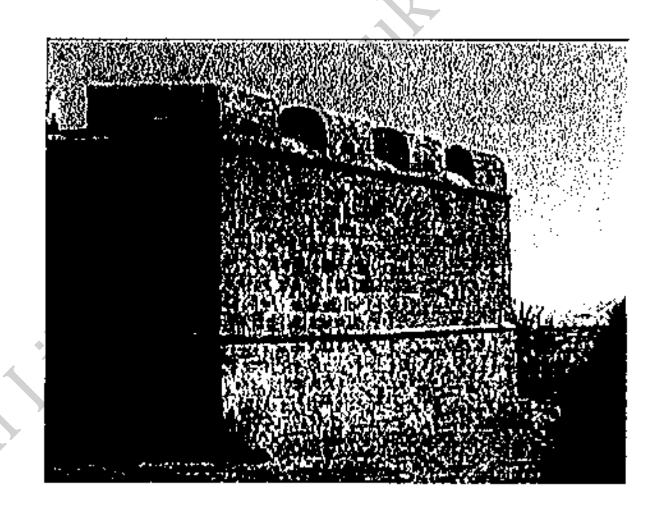




صور رقم **10:** الواجهة 1-2-3 بداية من يمين المدخل

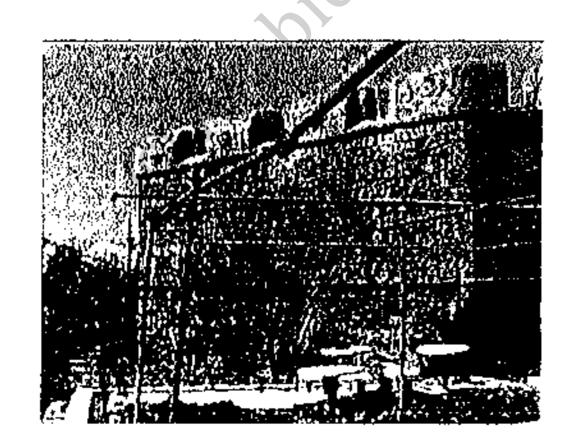
صور رقم 11: الضلع الرابع



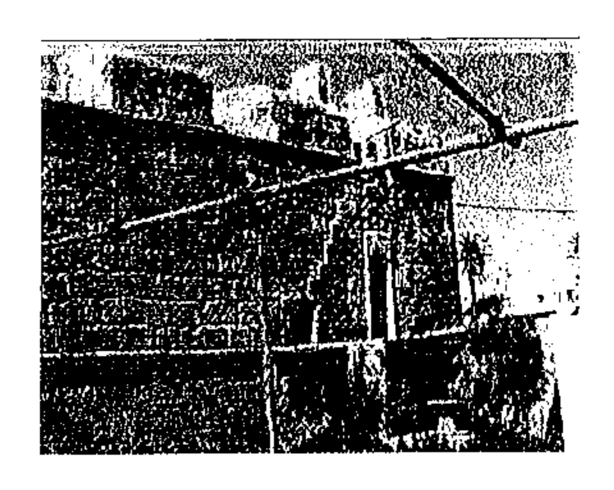
صورة رقم 12: الضلع الخامس



صورة رقم 13: الضلع السادس

صور رقم14: الضلع السابع.



صورة رقم 15: الضلع الثامن أو الواجهة الأمامية

1. 8. أقسام البرج من الخارج:

1. 8. 1. الخندق:

يحيط بالبرج خندق و يعد برج تامنتفوست من بين الأبراج و الحصون الدفاعية القليلة بالمدينة و التي يحصنها خندق و هو جاف يتراوح عمقه بين 2 و3م و عرضه 7.50 م، لا يزال يظهر الخندق بوضوح من جهة المدخل بينما يتناقص عمقه في الواجهات الأخرى خاصة الخلفية لتراكم الأتربة بمرور الزمن و غرس النباتات المزهرة بمحيط البرج (انظر الصور). و حسب بوتان فهو بدون أهمية و لا يشكل عائقا إذا ما حاولوا احتلال البرج (Boutin 1927: 30).

تشير الباحثة تعليقا على آراء بوتان، أنه كان للخندق فيما مضى أهمية كبيرة و إلا فما الدافع من انجازه علما أن الفترة التي كان بها بوتان بالجزائر و دون تقريره فيها سنة 1808م، قد تكون فترة أهمل فيها الخندق و تراكمت فيه الأتربة مما جعله غير فعال و عمقه تقلص كثيرا. و من خلال دراسة الباحثة لمساق مراكز التمدن الإسلامي و المدينة الإسلامية اتضحت لها رؤية مدى أهمية الخندق في تحصينات المدن الإسلامية على امتداد العصور و مدى أهميته في عرقلة مسيرة و تقدم الأعداء خاصة إذا ما اقتربوا من أسورا المدن و كيف كانت الخنادق تملأ بالمياه لتجهد قوى المعتدين بينما ينهال المدافعون من فوق أسوارهم عليهم بالمدفعية و قبلها بالسوائل الحارقة و السهام. لذلك و حسب ظني فانه ليس من المنطقي أن يضيع الجزائريون جهدهم و هم في حالة حرب مستمرة مع الأوربيين في شيء لا يصد عنهم المخاطر. و ما يمكن إضافته، أن بوتان عندما كان يتجسس على تحصينات المدينة قلل كثيرا من أهميتها بينما تؤكد المصادر التاريخية أو المصادر العسكرية القديمة أن الكثير من المحاولات الاستعمارية باءت بالفشل عند أسوار المدينة و

منذ ذلك الحين بدأت تعرف المدينة بعدة تسميات كالمحروسة و دار الجهاد. و إذا ما رجعت إلى فترة الاستعمار الفرنسي فأطرح سؤالا واحد على المشككين في فعالية التنظيمات الدفاعية للمدينة و هو: لماذا استغل الفرنسيون و بعثوا بجاسوسهم للبحث عن أضعف نقطة محصنة بالمدينة و اتخذوها موقعا للنزول و الزحف بعدها؟ و لماذا لم يقتربوا من الميناء أو أسوار المدينة المدعمة بالأبراج و الحصون؟

1. 8. 2. القسم السفلي:

يمثل هذا القسم قاعدة لبناء البرج و اتخذ شكلا مائلا نحو الخارج تختلف ارتفاعاته حول محيط البرج، فيبلغ أقل ارتفاع في واجهة المدخل 2.70م، بينما أقصى ارتفاعا في الناحية الجنوبية الغربية يقدر 4م.

1. 8. 3. الطابق الأول:

يبلغ ارتفاعه 5م فتحت في جهته الجنوبية الشرقية فتحة الباب الوحيدة للبرج ارتفاعها 2م و عرضها 1م. كان يعلو المدخل مرقب لكنه أزيل و بقيت فتحته غائرة و منها كان يرفع الجسر (انظر المخطط رقم5).

1. 8. 4. مستوى السطح:

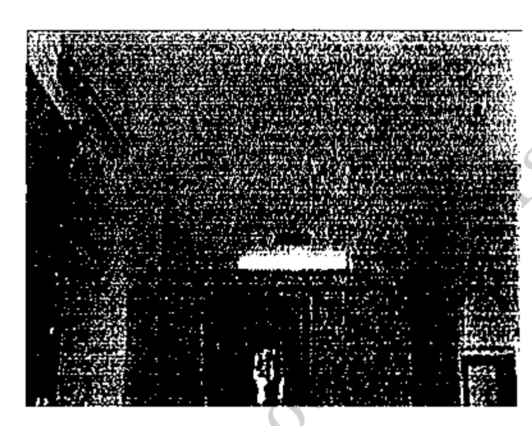
يتخلل السطح فتحات للمدفعية متسعة من الخارج و ضيقة من الداخل ليكون الرامي في مأمن من ضربات العدو ومثل هذه الفتحات شائعة في عمارة الأبراج والأسوار بالجزائر. مجموع عدد الفتحات هو: 23 فتحة موزعة بمعدل ثلاث فتحات في كل واجهة ما عدا واجهة المدخل تضم فتحتين فقط و تتخذ شكل مائل قليلا إلى الخارج، يتخلل هذه الفتحات، فتحات أخرى للرماية أو كما تسمى المزا غل و عددها 28 فتحة شكلها مستطيل (انظر الصور السابقة).

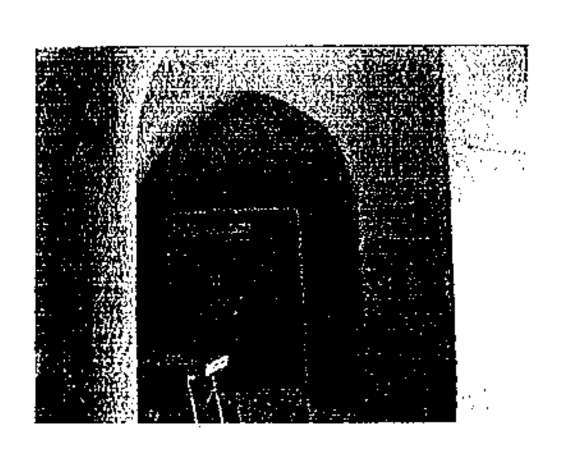
1. 9. ملحقات البرج من الداخل:

1. 9. 1. السقيفة الأولى:

نصل إليها مباشرة بعد المدخل و الأرجح أنها كانت مكانا مخصصا للحراسة. وللسقيفة جداران منكسران تتوسطهما حنيتان شبه متقابلتين يعلوهما قوسان نصف دائريان. طول السقيفة 6.25م يغطيها سقف مهدي الشكل (نصف برميلي) (صورة رقم 16) و في الجهة الجنوبية الشرقية منه

نجد فتحة مغطاة بالقرميد يحتمل أن الباب كانت ترفع عن طريقها أما أرضية السقيفة مبلطة بالآجر الأحمر طوله: 23سم و عرضه 11سم و سمكه 4سم.





صورة رقم 16: منظر السقيفة مقابل المدخل و الحنية على يمينه

1. 9. 2. السقيفة الثانية:

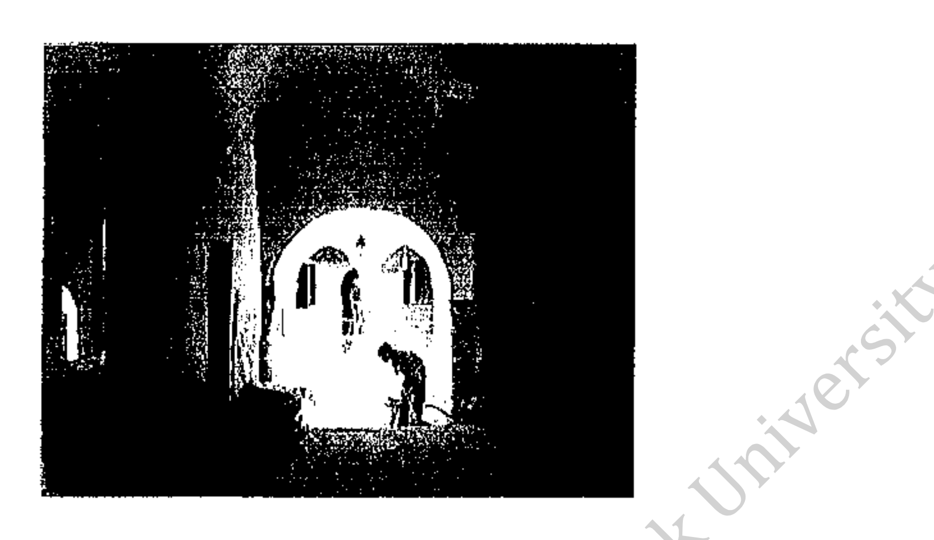
تتصل بالأولى عبر ممر عرضه1.25م يعلوه قوس نصف دائري (صورة رقم17)



صورة رقم 17: العقد النصف دائري الذي يعلو الممر

طول السقيفة 10م و عرضها 2.70م و يؤدي المدخل إلى اتجاهين: الأول باتجاه اليسار يؤدي إلى غرفة سداسية الأضلاع يتم الوصول إليها عبر سلم يتكون من تسع درجات و ينفتح بابها في الضلع الشمالي عرضه 0.85م و ارتفاعه 2م و أغلب الظن أن هذه الغرفة كانت مخزنا للبارود.

أما الثاني باتجاه اليمين فيؤدي من جهة، إلى الفناء المركزي للبرج و من جهة أخرى إلى سلم يؤدي بدوره إلى سطح البرج مرورا بالسجن المكون من غرفتين ذات الشكل المربع، سقف السقيفة ذو شكل قبو مهدي أيضا و أرضيتها هي الأخرى مبلطة بالآجر (صورة رقم 18).



صورة رقم 18: السقيفة الثانية و المدخل المؤدي إلى الفناء

1. 9. 3. مخزن العتاد:

يتصل بالسقيفة الثانية مخزن للعتاد ينقسم إلى قاعتين: الأولى صغيرة الحجم و هي مستطيلة الشكل أطوالها: 2م و عرضها 1.20م و سقفها مهدي الشكل، استخدمت هذه الغرفة لحراسة المخزن.

أما الغرفة الثانية فهي أكبر و شكلها خماسي الأضلاع قياساتها متفاوتة و سقفها كذلك مهدي الشكل، تعرضت هذه الغرف كلها للزيادات و الإضافات وفق استعمالاتها في فترة الاحتلال الفرنسي، لكن يمكن أن نلاحظ آثار التلبيس بالجص في السقوف و الجدران و هي المادة الأصلية للتلبيس قبل أن يدخل عليها الاسمنت بكثرة.

يوجد أيضا في اتجاه اليمين للسقيفة الثانية غرفة أخرى مستطيلة الشكل طولها 4.35م و عرضها 2.50م يتم الدخول إليها عبر باب ارتفاعه 2.06م و عرضه 0.84 م، فتحت بجدارها الشمالي نافذة مستطيلة الشكل تطل على فناء البرج و سقفها مهدي الشكل أما الأرضية فأعيد تبليطها بنفس الآجر الأحمر اللون أبعاده: 22سم x 11سم x 4 سم، و حسب القائمين على البرج اليوم فان هذه الغرفة كانت مخصصة لاستقبال زوار حامية البرج.

1. 9. 4. السجن:

على يمين بداية السلم المؤدية إلى السطح نجد بابا ضيقة ارتفاعها 1.40م و عرضها 0.60م تؤدي إلى داخل السجن الذي ينقسم بدوره إلى قاعتين صغرى و كبرى، الغرفة الصغرى مستطيلة

الشكل، فتح في الضلع الشرقي منها مدخل يؤدي إلى القاعة الكبرى، أما السقف فهو كالقاعات السابقة أي نصف برميلي الشكل.

القاعة الكبرى مستطيلة الشكل أيضا سقفها مهدي يتوسطه فتحة لدخول الضوء و الهواء، يوجد في جدارها الجنوبي الشرقي ستة فتحات ترتفع عن الأرضية بحوالي 1.30م كانت تستخدم لربط أيدي المساجين، لم تجر على السجن أي ترميمات بحيث تظهر فيه مادة البناء الأصلية و أيضا الجص الذي كان يغطي سقوف و جدران البرج من الداخل، أما أرضية السجن فهي من التراب ولم نعثر على أثر للآجر بها كباقي أرضيات الغرف، و أشير هنا إلى عدم تمكني من أخذ الصور لعدم توفر الإنارة الكافية.

1. 9. 5. فناء البرج:

عبر السقيفة الثانية يتم الدخول إلى فناء البرج المكشوف و هو مثمن الشكل ذو أضلاع غير منتظمة القياسات تتراوح ما بين 5.20 و 6.80م. طول قطر الفناء 12م، يحيط به صف من الأعمدة عددها 17 عمودا تحمل كلها عقودا منكسرة باستثناء عقد مدخل الفناء الذي يتخذ شكلا نصف دائريا (صورة رقم 19).



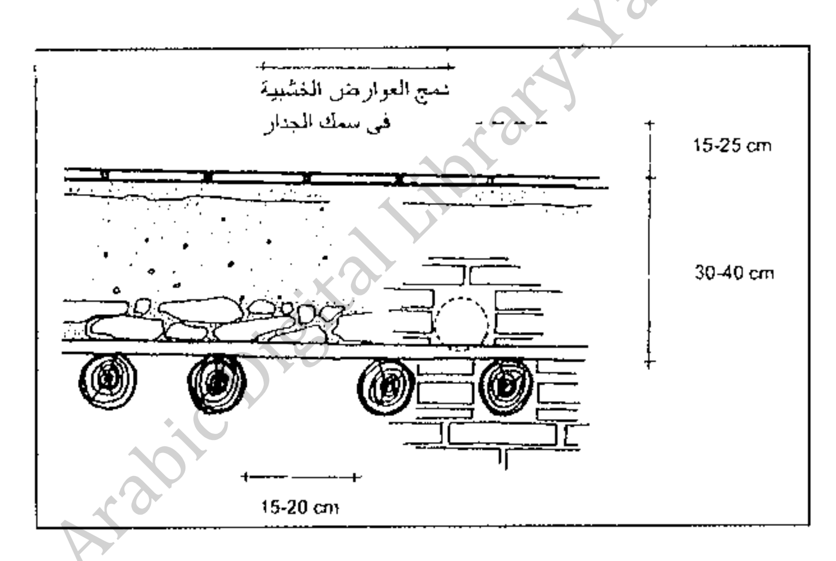
صورة رقم 19: المدخل الرئيسي للفناء يعلوه عقد نصف دائري

يفصل الفناء عن الغرف و المرافق العامة المحيطة به رواق عرضه 1.15م يغطيه سقف مهدي الشكل تتخلله عوارض خشبية عددها 12 عارضة (صورة رقم 20) الهدف منها تقوية السقف وتقليل الضغط عليه و هذا النظام شائع في نظام العمارة العثمانية بالجزائر سواء كان

بالعمارة المدنية أو العسكرية بحيث يعرف بمقاومة الزلازل و بشكل قاعدة للجزء العلوي من الجدران (Missoum 2003: 234).




صورة رقم 20: الرواق المحيط بالفناء و سقفه



شكل رقم 1: طريقة تدعيم البناء بالعوارض الخشبية (ميسوم 2003: 235)

تعرض الفناء و الرواق كغيره من المرافق داخل البرج إلى الترميم و غطيت أرضيته كلها بالاسمنت و أيضا بعض أجزاء الأعمدة التي تحيط به مما شوه قيمته الأثرية و المعمارية. و تجدر الإشارة إلى أن هذه العملية و حسب الظاهر لم تخضع كليا للمقاييس العلمية الواجب اعتمادها في الترميم.

1. 9. 6. الصهريج:

يقع الصهريج في الجهة الشمالية أسفل الفناء حيث يتم تموينه بالمياه بواسطة نظام متكامل من القنوات الحاملة لمياه الأمطار و النازلة من السطح إلى الصهريج مباشرة. شكله مستطيل و سقفه

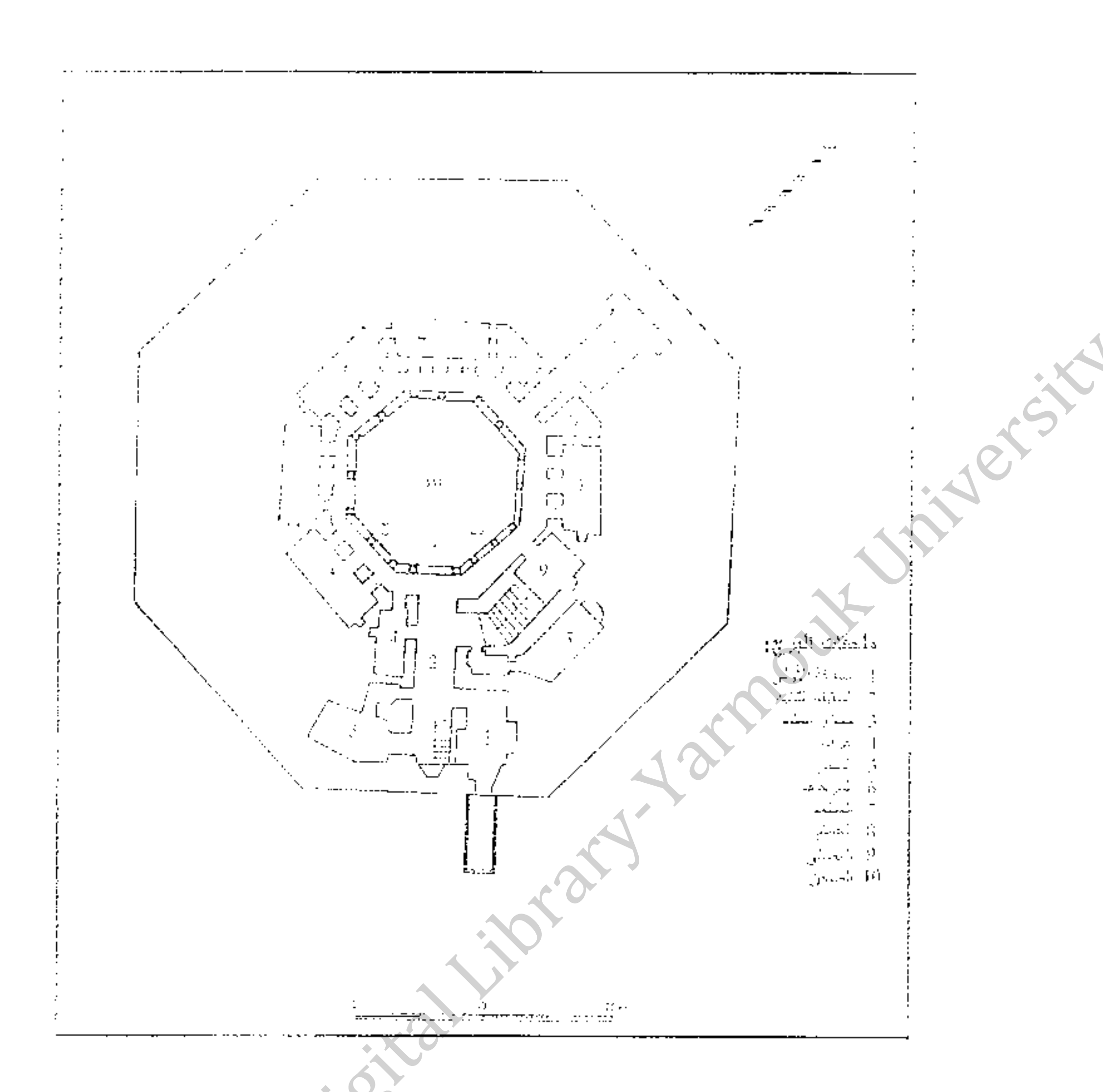
مهدي الشكل ونجد في كل ركن من أركان سقف الصهريج قناة لجلب مياه الأمطار و أسفل فتحة الصهريج توجد قناة دورها صرف المياه الفائضة و تتصل هذه الأخيرة بالقناة الكبرى لصرف المياه القذرة.

يعد الصهريج من أهم المرافق الملحقة بالأبراج و الحصون و القلاع و هو ضروري لتموين الحامية العسكرية المشرفة على البرج بالمياه تحسبا لأيام الحصار و هو أمر شائع في المباني العسكرية بالإضافة إلى مخازن المؤن الغذائية و العدة الحربية لأن هذه العناصر تساعد على التحمل و الصمود فترة أطول، و كانت عملية حفر الآبار ملازمة لبناء القلاع حيث تكاد لا تخلو أية قلعة منها لما لها من أهمية في ديمومة الحياة بالنسبة لحاميتها (المومني 1988: 124).

1. 9. 7. الغرف والمرافق المحيطة بالفناء:

يحيط بالفناء ستة غرف تختلف أشكالها بين المستطيلة والشبه المنحرفة، تعرضت كلها إلى الترميم الذي جردها من المعالم الأصلية لها، فكسيت الجدران و السقوف على حد سواء بالاسمنت و استبدلت الأبواب و النوافذ بأخرى جديدة مداخلها كلها مطلة على الفناء. و أحسن شيء يمكن أن نلمسه في عملية الترميم هو الحفاظ على النوع و الشكل الأصلي لأرضيات كل مرافق البرج المبلطة بالأجر الأحمر، و تستخدم بعض هذه الغرف اليوم كمكاتب للقائمين على البرج.

بالإضافة إلى الغرف يضم البرج مرافق أخرى كالحمام و المرحاض و المطعم و مصلى مستطيل الشكل طوله 3.80م و عرضه 3.30م يتوسط جداره الشرقي محراب خماسي الأضلاع تعلوه نصف قبيبة خماسية الأخاديد يخلو المحراب من أي زخرفة أو كتابة تؤرخه يقابل المحراب مباشرة باب المصلى ارتفاعه 1.65م عرضه 1م (خلاصي 1991: 109) (مخطط رقم 6).

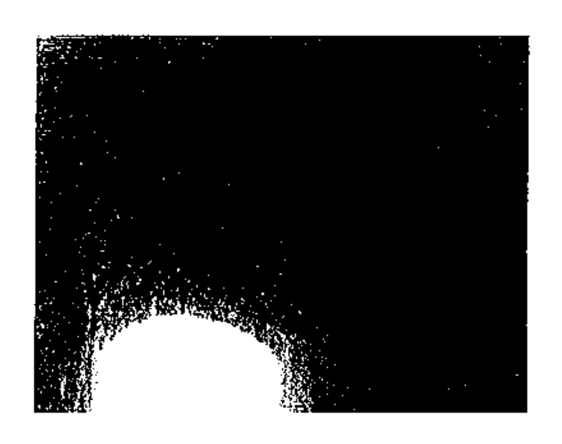


مخطط رقم 6: مقطع أفقي للبرج، أرشيف الوكالة الوطنية للآثار

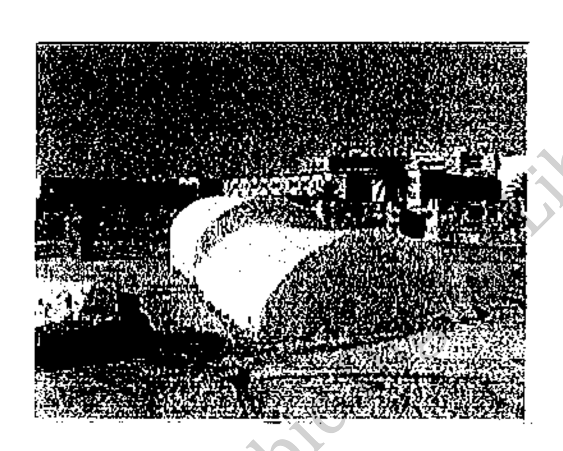
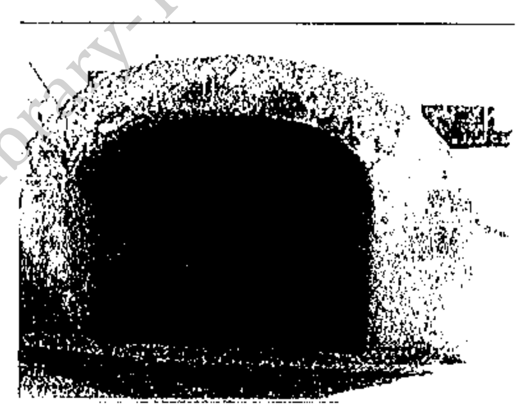
1. 9. 8. السطح:

هو من أهم العناصر المعمارية نتيجة للموضوع الذي نحن بصدد دراسته حيث يضم هذا الأخير العناصر الدالة على أهمية البرج الدفاعية. نصل إليه عبر سلم عرضه ما بين 2.30م و 2.60م يحتوي على سبعة عشرة درجة مختلفة في عرضها و علوها. سقف السلم قبو مهدي الشكل يبدأ القبو الأول من السقيفة الثانية و ينتهي عند الدرج السابع نصف قطره 0.65 م. أما القبو الثاني فيبدأ عند نهاية الأول إلى نهاية الدرج ارتفاعه عن مستوى أرضية السطح 1.80م و سمك جدرانه 0.75م. يبلغ طول القبو المغطي للسلم 6.20م و أعلى نقطة ارتفاع 2.10م. عند نهاية السلم يوجد مدخل يؤدي إلى السطح، لكنه ليس الأصلي حيث يمكن أن نلاحظ الفرق بين القديم و الجديد و الغالب أن الاستعمار الفرنسي هو الذي غير من معالم البناء كما فعل بالكثير من المعالم بالمدينة. قياسات الباب حاليا هي: ارتفاعه 2.05م و عرضه من الداخل 2.80م و من الخارج 3.50م، و

يمكن أن نلاحظ آثار التلبيس الخاطئة و المشبعة بالاسمنت و التي بدأت آثاره السلبية تتراء للناظر ، و عبر هذه الفتحة نخرج إلى السطح الفسيح الذي يغطي الأروقة و الغرف (صورة رقم 21-22).

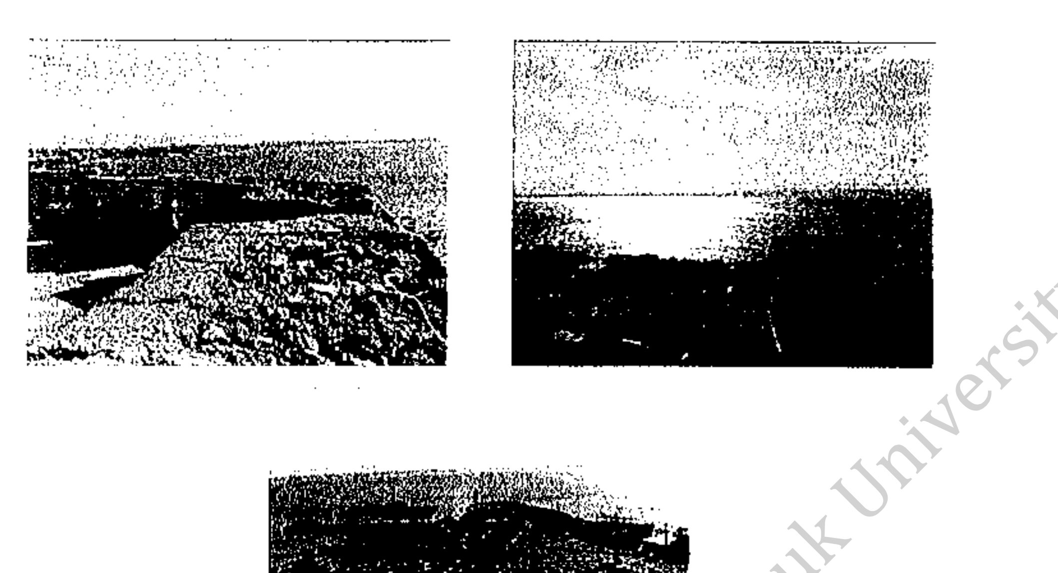


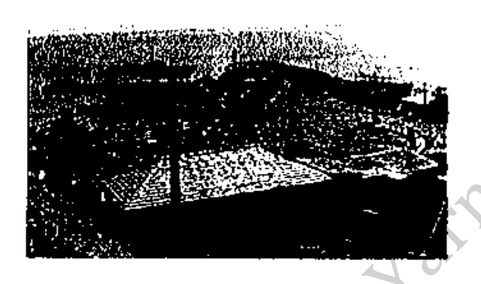

صورة رقم 21: السلم المؤدي إلى السطح و سقفه البرميلي الشكل

صورة رقم 22: المدخل إلى السطح و القبو الذي يغطيه

يتيح السطح للمدافعين فرصة التحرك بسهولة تامة من وراء متراس قوي يعلو كل ضلع من أضلاع البرج. سمكه ما بين 1.80م و 2م و يرتفع بحوالي 1.60م. يتخلل هذا المتراس مجموعة فتحات للمدفعية عددها 23 فتحة تتميز باتساعها من الخارج ثم تضيق باتجاه الداخل حيث تمنع وصول القذائف إلى المدافع عن البرج. جاءت موزعة على الأضلاع الثمانية لكل ضلع ثلاثة فتحات ما عدا الضلع الأمامي الذي يضم مدخل البرج به فتحتان فقط. ربما يرجع ذلك لتواجد المرقب فوق المدخل مباشرة لغرض الحراسة (صورة رقم 23).





صورة رقم 23: الموقع الذي يطل عليه سطح

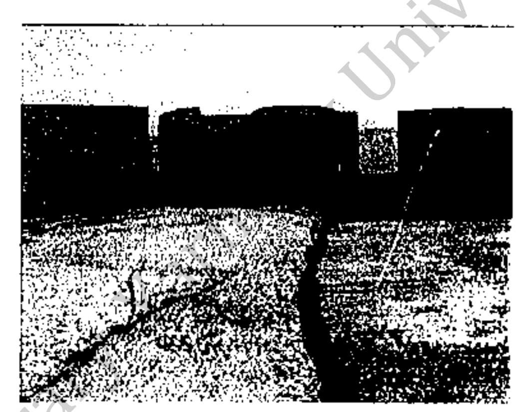
قياسات فتحات المدفعية كالآتي: طولها 1.30م و عرضها 0.85م و ارتفاعها 1.60م، و تقدر المسافة بين الفتحة و الأخرى 3.65م، و جاءت على شكلين فالفتحات المطلة على البحر يوجد بها انكسار بحوالي 0.35م نحو الخارج بينما تنعدم في الواجهات المطلة على البر وقد يكون هذا التخطيط ناتج عن كون الجهات المطلة على البحر هي الأكثر استعمالا و تكثر فيها الحركة، و الانكسار يحدث مجالا يختبئ فيه الجندي كما توفر له سهولة و مرونة تامة في تحريك المدفع و إعادة شحنه بالقذائف.

يتخلل فتحات المدفعية بدورها فتحات (مزاغل) مخصصة للرماية و عددها 28 فتحة عرضها 0.50م و ارتفاعها و 0.30م و هي مائلة موجهة إلى الخندق حيث تساهم في إبعاد الخطر و العدو إذا ما اقترب من أسوار البرج و المدخل، جاءت هذه الفتحات واسعة من الداخل و ضيقة بالخارج. قدر سمك جدران البرج بحوالي 2 م، أما على مستوى انحدار فتحات المدفعية إلى الخارج يصبح 2.10م.

ما يمكن أن أضيفه هو أن أرضية السطح تظهر جليا أنها ترتفع عن الأصل بسبب تبليطها بالاسمنت، بحيث إذا وقف الشخص عند فتحة المدفعية يظهر جزء كبير من جسمه إلى الخارج. و هذا خطأ فنمط البناء و الهدف من هذه الأبراج و الفتحات هو أن يحتمي بها المدافع لا الظهور و

تعريض نفسه للخطر، و هنا تظهر أخطاء عملية الترميم المتكررة و المشوهة للمعالم عامة عندما تخرج عن نطاق أصل و دور المبنى الدفاعي.

يتخلل أرضية السطح قنوات لتسريب مياه الأمطار إلى الصهريج الواقع في الفناء. كما نجد عند الجهة الشمالية الشرقية ثلاثة مداخن اثنتين منها للمطعم و الثالثة هي مدخنة الحمام شكلها مستطيل طولها 0.60م و عرضها 0.70م (صورة رقم 24).





صورة رقم 24: أرضية السطح و قنوات تسرب المياه إلى الصهريج

1. 10. عناصر البرج الدفاعية:

1. 10. 1. الخندق:

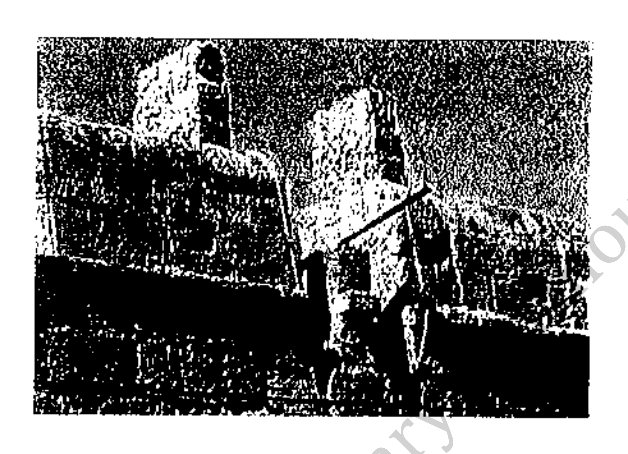
كان لموقع البرج أقصى نقطة في الجهة الشرقية للمدينة و لأهمية موقعه سببا في تدعيمه بخندق و ذلك لتأمينه من كل هجوم متوقع و تسهيل مهمة الحامية في الدفاع عنه، و جاء الوحيد إلى جانب برج الانجليز و القصبة الذي أحيط بخندق من كل الجهات.

1. 10. 2. الجسر المتحرك:

إن إحاطة البرج بالخندق استوجب وجود جسر لربطه بالمحيط الخارجي، و تصميمه كجسر متحرك ضاعف من قيمة الخندق كخط دفاعي متقدم بالنسبة للبرج.

و فكرة القناطر المتحركة التي تصل بين الأبواب و بين ضفاف الخنادق بالحصون ترفع عند التهديد بالهجوم موجودة في أقدم مثل إسلامي في السور الشرقي لحصن القاهرة الذي شيده صلاح الدين أيام كان وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي (الشافعي 1970: المجلد 1، 274).

كان هذا الجسر الخشبي يؤدي إلى داخل البرج و يبقى مفتوحا أيام السلم لكن عند الشعور بالخطر يرفع و قد استخدم أيضا في برج الانجليز (Boutin 1927: 37). كان الجسر يرفع إلى أعلى ليلتصق بجدار المدخل بواسطة أحبال قوية أو سلاسل تلتف حول بكرتين من داخل السقيفة الأولى و تربط إلى عمودين خشبيين و يحتاج رفع الجسر إلى عدد من أفراد الحامية. و لا تزال آثار مكان رفع الجسر ظاهرة أعلى مدخل البرج (صورة رقم 25)



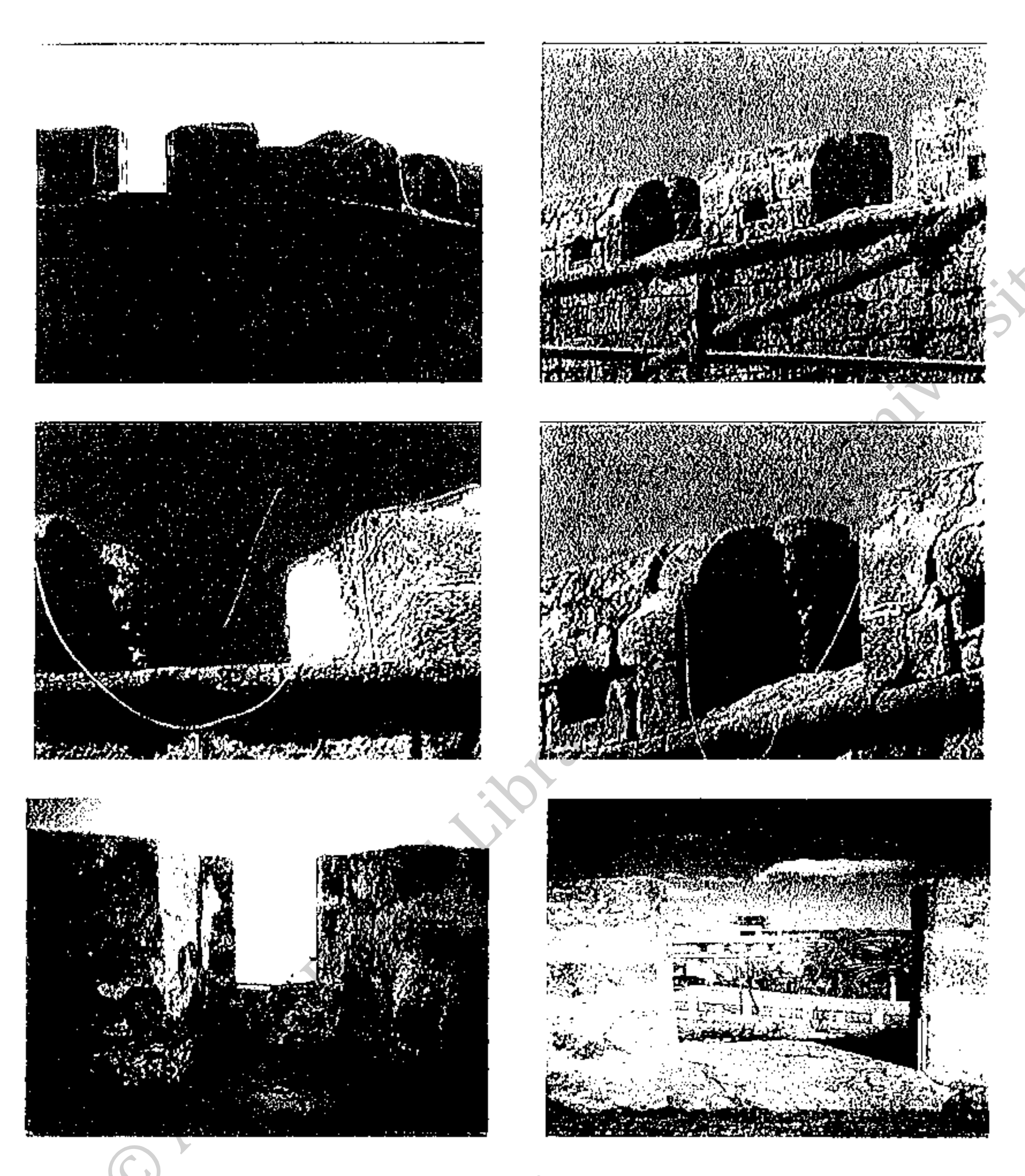
صورة رقم 25: مكان شد الجسر عند رفعه

1. 10. 3. فتحات المرامي:

يوجد نوعان من الفتحات:

فتحات المدفعية:

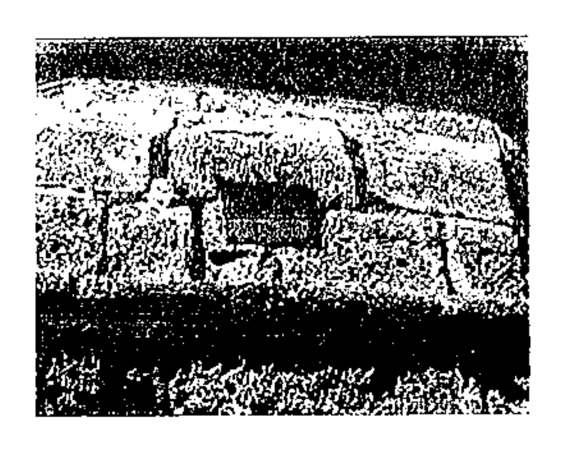
و هي أهم ما يميز سطح البرج بحيث نجدها موزعة باتجاه البر و البحر، طريقة بناءها متسعة من الخارج و ضيقة من الداخل لم يكن محض الصدفة أو العفوية و إنما هو شيء مدروس ركز عليه البناء الجزائري بحيث تؤدي هذه الفتحات دورا وظيفيا تسمح بتحريك و تدوير المدفع بسهولة و بأي اتجاه. أما الدور الثاني فهو دفاعي و احتياطي بحيث تمنع وصول القذائف إلى الجندي المدافع فسمة الانحدار الموجودة بها تؤدي إلى انزلاق قذائف الأعداء. الفتحات الموجهة إلى البحر يوجد بها انكسار من الداخل تسمح للجندي بالاحتماء بها و في نفس الوقت المراقبة أثناء المعركة أما الفتحات الموجهة إلى البر فجاءت خالية من هذا الانكسار. أما ارتفاع الفتحات عن مستوى أرضية السطح فيبلغ في المتوسط 0.60م السبب في ذلك راجع إلى طريقة وضع المدفع لتصل قذائفه إلى أقصى حد ممكن فيمنع اقتراب سفن العدو من الشاطئ (صورة رقم 26).



صورة رقم 26: أنواع فتحات المدافع

فتحات البنادق:

سبقت الإشارة إليها لكن ما يمكن إضافته هو أن توجيهها مائلة ومصوبة نحو الخندق يهدد كل من يحاول الاقتراب إلى البرج و يحاول اقتحامه كما تسمح للجندي بالرؤية الجيدة و التصويب دون أن يراه العدو، و قد وجدت فتحة على يسار المدخل وظيفتها مراقبة الجسر و الممر المؤدي إليه (Berbrugger 1845: 10) (صورة رقم 27).



صورة رقم 27: فتحات البنادق

1. 10. 4. المدخل المنكسر:

يعتبر المدخل المنكسر من العناصر الدفاعية المهمة و يتمثل في برج تامنتفوست على مستوى السقيفة الأولى التي تنكسر بزاوية قائمة لتتصل بالسقيفة الثانية التي بها اتجاهان.

يعرف فريد الشافعي هذا العنصر بالباشورة و يقول: "هي التي ينعطف فيها الداخل يمينا و يسارا مرة أو عدة مرات و ذلك لعرقلة هجوم من يحاول اقتحام الحصن أو القلعة و تجعل العدو هدفا سهلا للمدافعين و أقدم أمثلة للباشورة ظهرت في أبواب مدينة بغداد المدورة التي بناها المنصور سنة 147هـ\765م" (الشافعي 1970: 272).

1. 11. مواد و تقنيات البناء:

1. 11. 1. مواد البناء:

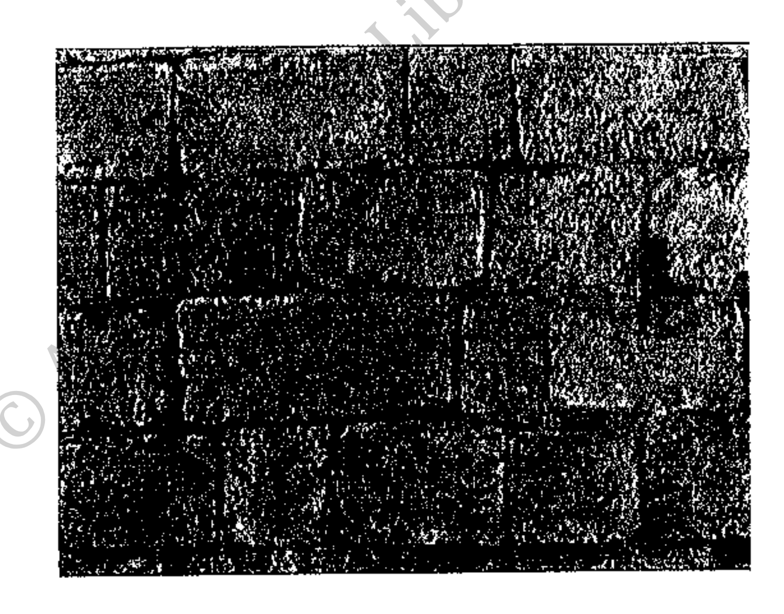
استعملت الحجارة المصقولة المجلوبة من بقايا المدينة الرومانية بكثرة في بناء البرج. وهي عبارة عن حجارة كبيرة الحجم ذات أشكال مختلفة منها المربعة ومنها المستطيلة حسب موقع استعمالها من البرج مقاساتها: 1 x 0.50م. يتميز هذا النوع من الحجر بمقاومته الكبيرة للضغط بحيث تكتمل صلابته إذا كانت القوة الواقعة عليه بطريقة عمودية (Froidevaux 1985: 66).

من مميزات هذه الحجارة هو أنه يمكن صقلها حسب الحاجة إليها و موقع استعمالها كالزوايا هذا بالنسبة للأسوار من الخارج. أما من الداخل فقد استعملت الحجارة غير المصقولة كما استعملت مادة الآجر لبناء العقود و الأقبية مقاساتها: 23سم x 11 سم 4x سم.

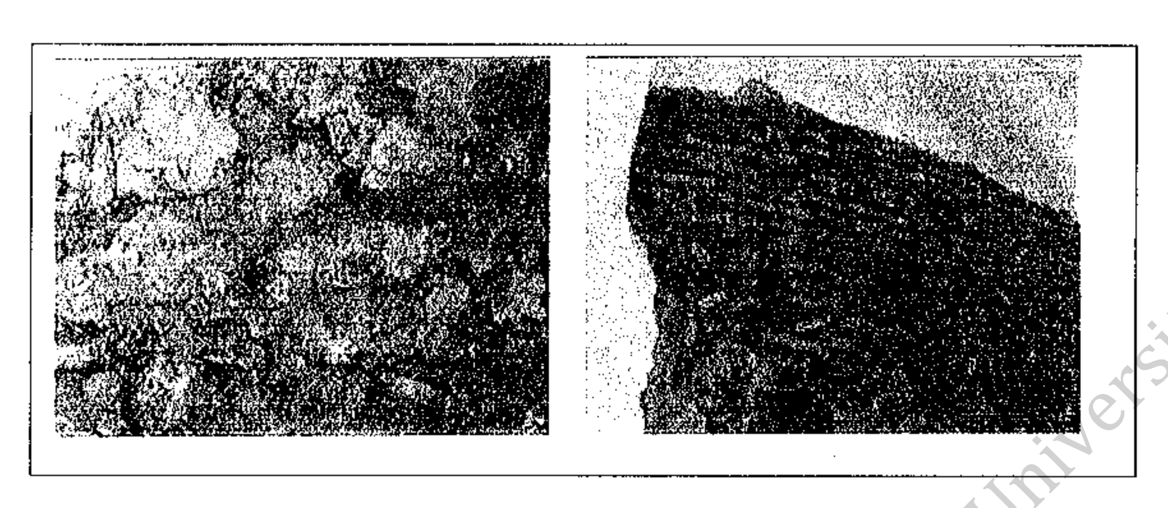
1. 11. 2. التقنيات المستعملة:

بنيت الجدران الخارجية للبرج بتقنية Opus Quoidratum و هي تقنية رومانية الأصل و تتسم برصف الحجارة بطريقة أفقية مترابطة و ملئت الفواصل الأفقية و العمودية بطبقة من الملاط للربط بينها أما من الداخل فكانت الجدران تبنى بخليط من الجير و الرمل والتراب بنسب مقدرة تضاف لطبقة الملاط قطع فخارية صغيرة الحجم وضعت في القسم العلوي من البرج للتدعيم أكثر و تقوية الجدران ضد ضربات المدفعية المتكررة. أما الفراغ الموجود بين الجدران الداخلية و الخارجية فقد ملئت بالتراب المدكوك الذي هو عبارة عن خليط من التراب الأحمر و الحصى و قطع فخارية. لهذا المزيج في المواد أهمية كبيرة من الناحية الدفاعية كما يعد عازلا للرطوبة خاصة أن البرج على مقربة من البحر (صورة رقم 28 –أ- ب - ج).

أما تقنية بناء السطح فاستعمل فيها طبقة من الرمل سمكها 10سم تحت طبقة من الآجر للحصول على مرونة في السطح و التي تؤثر بدورها على سقوط القذائف بحيث تقلل من قوتها قبل أن تصل إلى مواد البناء الصلبة (Delphin 1904: 196).



صورة رقم 28- أ. تقنية بناء أسوار البرج



صورة: ب- ج

صورة رقم 28: مواد بناء البرج من الخارج و الداخل

من خلال دراسة مواد وتقنيات البناء تبرز لدينا قيمة و قدرة أهالي مدينة تامنتفوست على البناء و التشييد و استعمال مواد تتوافق مع الظروف الطارئة و أيضا المهارة في خلط المواد وتوزيع استعمالاتها وكمياتها حسب كل جزء من البرج. هذا هو السر الذي جعل البرج يقاوم كل الظروف البشرية منها و الطبيعية بحكم أن المنطقة زلزالية و الدليل على ذلك الزلزال الأخير الذي ضرب المنطقة في شهر أيار من سنة 2003 و الذي ألحق أضرارا جسيمة بمدينة الجزائر و ضواحيها، بينما لم يؤثر على البرج إلا في أجزاء بسيطة برغم تقادم الزمن عليه.

2. حصن الإمبراطور و دوافع اختياره:

2. 1. أهمية الموقع:

لا يقل حصن الإمبراطور أهمية عن سابقه، بحيث يحتل أعلى نقطة بالهضبة التي كانت تشرف على المدينة و كان يقع على بعد800م من الجهة الجنوبية الشرقية للقصبة و يرتفع 216م عن مستوى سطح البحر(Kaddache 1951: 3).

جاء موقعه استراتيجيا بحيث حماه من الضربات البحرية بالرغم من إشرافه على الميناء و المدينة من جهة و على جهة البر من جهة أخرى التي لطالما تسلل منها الأعداء. و أكبر مثال على ذلك نصب الإمبراطور شارل كانت خيمته بالهضبة المعروفة بكدية الصابون قبل بناء البرج و قصف الأسوار الخلفية للمدينة من المكان سنة 1541م.

بعد بناء هذا الحصن أصبح الجزائريون يعتمدون عليه بشكل أساسي في حماية المدينة من هذه الجهة لكنهم أغفلوا مرة أخرى بقية الثغرات في الناحية الغربية فاستغلها الجاسوس الفرنسي بوتان سنة 1808م و دونها في تقريره مما سهل نزول العدو في أقصى نقطة بالجهة الغربية من المدينة و بالتحديد في سيدي فرج التي لم يكن يحميها سوى برج و بطارية ضعيفة سنة 1830م.

2. 2. الأهمية المعمارية:

مثلما وجدت تحصينات دفاعية تحرس شواطئ المدينة و ميناءها وجدت معالم دفاعية أخرى تحصن المدينة من جهة البر إذا ما حدث تسلل عبر هذه المسالك و أيضا لغايات الحراسة و الإشراف على أعالي المدينة و المرتفعات و الجبال المحيطة بها. و كان لكل موقع، كما سبق ذكره، أهمية و انعكاسا على تخطيط هذه المعالم. لذلك انفرد حصن الإمبراطور أيضا بشكله و تخطيطه فقد ساعد موقعه على بناء حصن منيع، شكله مستطيل يمتد قليلا من الجنوب إلى الشمال محاط بأربعة أبراج ركنية بارزة يتوسطها برج دائري الشكل. لقد اهتم الحكام كثيرا بتدعيمه و تقويته و اتخذ اسم حصن مولاي حسان ذلك أن جل من حصنه من الحكام كانوا يعرفون باسم حسان أما تسمية الإمبراطور فأطلقها الأوربيون عليه نسبة لواقعة شارل كانت.

2. 3. الأهمية الأثرية:

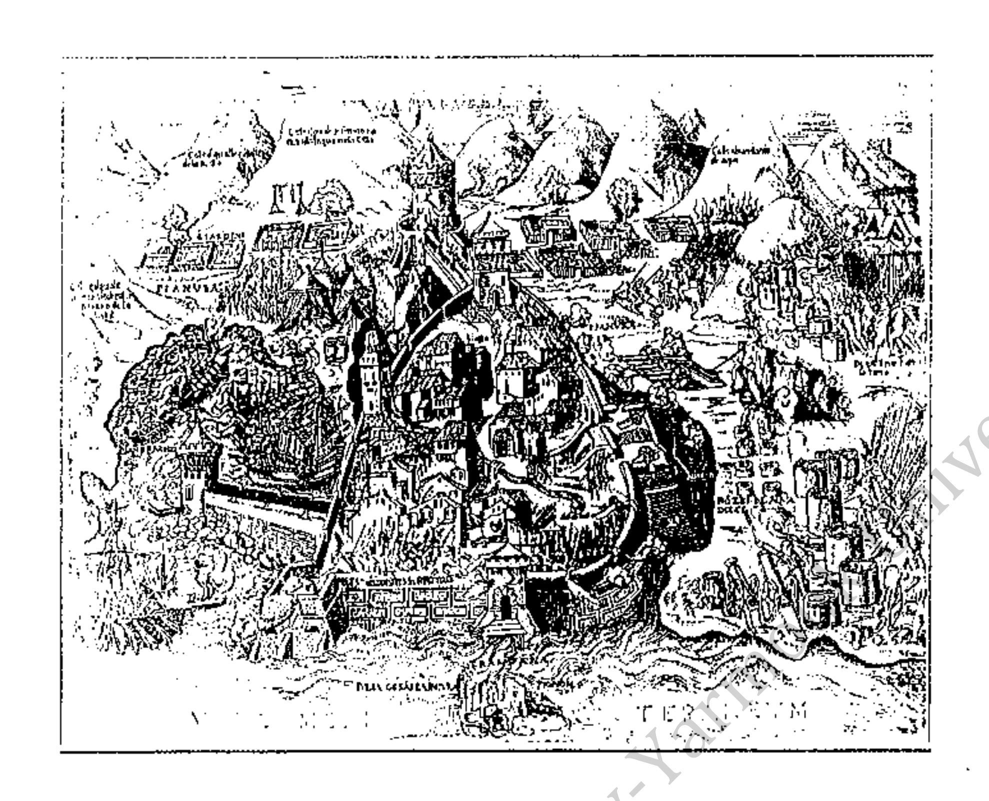
تكمن الأهمية الأثرية لهذا الحصن أيضا لكونه لا يزال قائما إلى يومنا هذا بالرغم من التغييرات الكثيرة التي طالته و إزالة أجزاء كبيرة لكنه لا يزال يحتل موقعه الاستراتيجي المشرف على المدينة من جهة البحر و البر و الذي يساعدنا على فهم هذا النمط من المعالم و العمائر و دورها الفعال آنذاك. تعرض الحصن للنسف عند دخول الاستعمار الفرنسي إلى المدينة من طرف قائد المدفعية التركي الذي أراد إزالته حتى لا يحتله المستعمر لما كان له من قيمة عند الشعب الجزائري، حيث قام بإضرام النار في مخزن البارود فأدى إلى انفجار عنيف دمر أجزاء معتبرة منه. و لأهميته الإستراتيجية أعاد الفرنسيون بناءه مباشرة بعد احتلال المدينة، و أعادوا استخدام نفس مواد بناءه مع إدخال التغييرات عليه إلى أن أصبح على ما هو عليه اليوم.

2. 4. تاريخ، موقع و دوافع البناء:

شرع حسان بن خير الدين في بناء برج مولاي حسان سنة 1545م بعد حملة شارل كانت على المدينة سنة 1541م. و يذكر بهذا الصدد: "أسرع أتراك الجزائر الذين كانوا في كل مرة يعرفون، عن طريق عدوهم، مواطن الضعف في تحصيناتهم فيعملون على تدعيمها... و بعد انسحاب الأسبان تبين لهم أنه يجب بناء قلعة، و بالفعل أقاموها و عرفت بقلعة الإمبراطور، و هي التي احتلها الفرنسيون سنة 1830م، أما القلعة الموجودة اليوم فهي جديدة" (هاينريش 1976: 44).

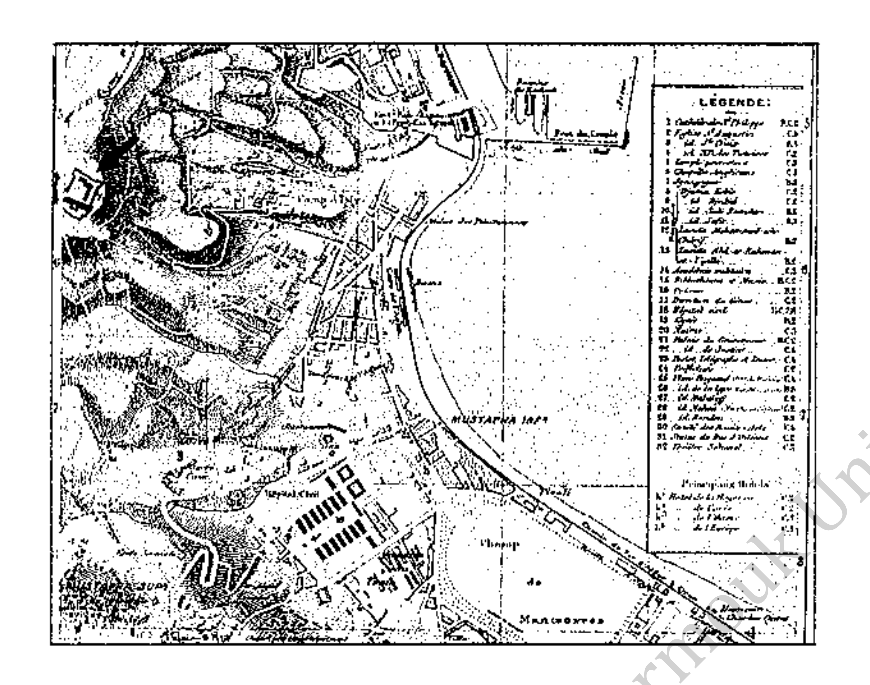
كان البرج الأول الذي شرع حسان بن خير الدين في بناءه عبارة عن برج دائري الشكل ثم تولى سنة 1580م حسن فنزيانو تدعيمه بأربعة أبراج أخرى تحيط به و كان يتخللها مجموعة من فتحات المدفعية. و في سنة 1656م دعم الحصن أكثر و زاد تسليحه ليصبح أهم الحصون الدفاعية بمدينة الجزائر(Belhamissi 1990: 27).

يرتبط حصن الإمبراطور و الهضبة التي بني عليها بمحاولة الأسبان احتلال المدينة سنة 1518م على رأس حملة كبيرة قادها هوقو دي مونكادا (Hugo De Moncada) الذي اتخذ من هضبة كدية الصابون و 1500م من جنوده منطلقا لقصف المدينة. لكن ضربت عاصفة قوية و تهاطلت الأمطار بغزارة مما دمر الأسطول الحربي الاسباني و قتل 4000 جندي اضطر البقية إلى الانسحاب. و منذ ذلك الحين أطلق على المدينة اسم الجزائر المحروسة، و جاءت سنة 1541م ليتخذ شارل كانت من نفس المكان مقرا لحملته و هجماته على المدينة لكن مصيره كان مثل سابقيه حتى تأكد اسم المدينة المحروسة و أصبحت تحاك أساطير حول قوتها (Walsin 1840: 133) (لوحة رقم 13).



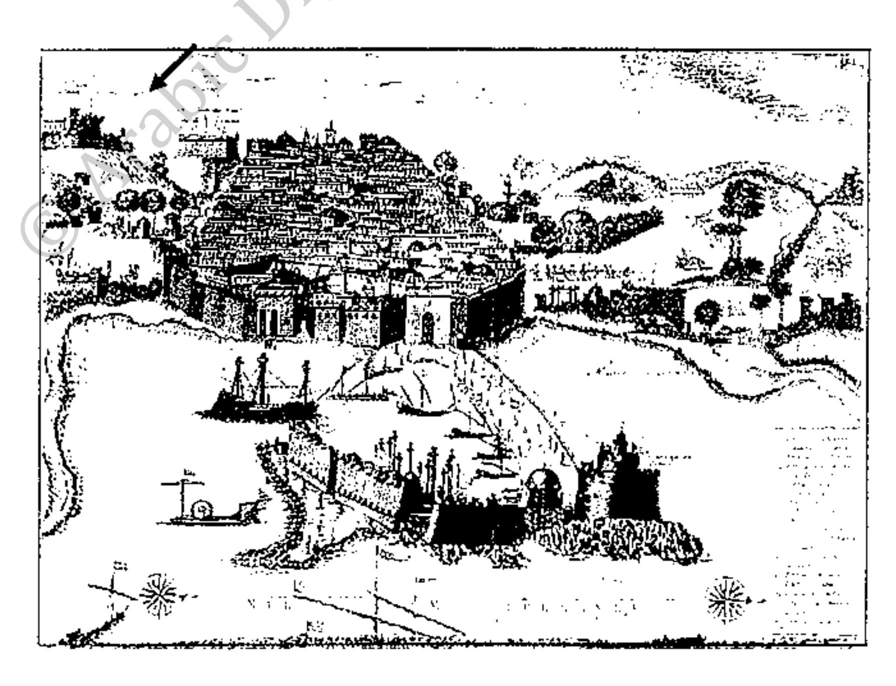
لوحة رقم 13: موقع هضبة كدية الصابون قبل بناء حصن الإمبراطور

يقع البرج على بعد 1700 خطوة (حوالي 1295م) جنوب القصبة، و قد بني على قمة الهضبة التي نصب شارل كانت بها خيمته، و في سنة 1580م قام حسان باشا بإعادة تحصين و تدعيم البرج تحسبا لحملة اسبانية أخرى فأحاط البرج القديم بأربعة أبراج شكلت بذلك مربعا طول ضلعه 90 خطوة (حوالي 68م) و هي موجهة إلى أربع نقاط أساسية شمالا و جنوبا و شرقا و غربا. بلغ ارتفاع أسوارها و الأسوار التي تربطها فيما بينها 28 شبرا (7م) و هي مدعمة بالتراب المركوم و يعلوها فتحات للمدفعية علوية و سفلية. يبلغ طول كل واجهة من واجهات هذه الأبراج 20 خطوة (15.24م) يتخللها ثلاثة فتحات للمدفعية، و يبلغ سمك متراسها 10أشبار(2.5م). يتوسط البرج ساحة للاستعراض العسكري قطرها 44 خطوة (31.69 م) و في وسط هذا المكان يوجد البرج القديم الذي بناه حسان بن خير الدين و الذي دعم لاحقا بالتراب المركوم ليصبح ارتفاعه يفوق ارتفاع الأبراج الركنية الأخرى بحوالي 12 شبرا (3م) (De Haedo 1998: 48-49) (خريطة رقم 4).



خريطة رقم 4: موقع حصن الإمبراطور من المدينة www.vobam.se\algeriet.htm

و هنا ترى الباحثة مدى فعالية الدور الذي لعبه هذا البرج فهو بمثابة المرقب أو البرج المخصص للمراقبة و الحراسة و الاستطلاع من كل الجهات حيث يطل على جهة البحر و البر على حد سواء، و كان الشكل الدائري يسهل سرعة الحركة و الدوران به في أوقات الحرب. و لهذا الارتفاع الدور في امتداد البصر أثناء الحراسة و تغطية أكبر مساحة ممكنة إلى جانب إمكانية الرمي إلى أقصى حد (لوحة رقم: 14).



لوحة رقم 14: موقع حصن الإمبراطور المشرف على المدينة

يذكر هايدو من جديد أن الباشا حسان فنزيانو أمر بحفر خندق يقسم ساحة الاستعراض العسكري إلى قسمين غير متساويين من الشرق إلى الغرب، بحيث يجعل البرجين الأماميين الجنوبي و الشرقي منفصلين بواسطة عرض الخندق عن البرجين الخلفيين لهما الشمالي و الغربي و كأنهما برجان أو قلعتان منفصلتان تماما. يقدر عمق الخندق 12 شبرا (3م) و عرضه 20 شبرا (5م)، و الهدف منه هو إذا ما تقدم العدو و استولى على البرجين الأماميين يمكن أن تنسحب الحامية إلى البرجين الواقعين خلف الخندق. و لإعاقة زحف العدو و تسهيل التراجع إلى هذه الجهة فتح الأتراك بوابة سرية تؤدي إلى ممر ارضي يبدأ من الأبراج الخلفية و يصل إلى أسفل الخندق. كما قاموا ببناء متراس أعلى هذين البرجين ليربط بينهما كأنه ممشى حراسة يسهل الانتقال من برج لأخر. زود هذا المتراس بعدة فتحات للمدفعية للتصدي للعدو إذا ما تسلل إلى البرجين الأماميين و عدم إفساح المجال له للتقدم إلى الخندق الفاصل. تعتمد هذه الأبراج على اثني عشرة مدفعا يتراوح عيارها بين المتوسط و الضعيف بالإضافة إلى ثلاثة مدافع تسلح البرج الدائري الذي يتوسط الحصن (De Haedo 1998: 49-50 و Devoulx 2003: 143).

يعد وصف هايدو للحصن هو الأوضح، و لم يأت بمثله بعده إلا الجاسوس بوتان سنة 1808م، و مع ذلك ذكر غرماي حصن الإمبراطور في كتابه لكنه لم يضف الكثير حيث اتفق مع هايدو حول سنة البناء و كيف هم حسان فنزيانو (نسبة إلى أصوله البندقية) بإعادة تحصينه و إكمال بناءه سنة 1580م تحسبا لهجمة اسبانية جديدة على المدينة و أضاف أن هذا الحصن يوحي للناظر أنه قلعتان مختلفتان تماما، يتوسطها ساحة رئيسية يرتكز بها البرج الدائري الذي يفوق ارتفاع الأبراج الأخرى بـ12 شبرا (3م). يطلق الأهالي على هذا الحصن برج السلطان خلاصي و برج مولاي حسان و برج الطاووس (Gramaye 1998: 70).

ترى الباحثة حول تاريخ بناء الحصن و تجديده أنه حصل تأخير في البناء ذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار السنوات الأولى من تواجد الأتراك بالجزائر حيث تعرضت المدينة سنة 1518م للهجوم الاسباني و استغلت هضبة كدية الصابون للهجوم من خلالها و بعدها لم يتم تحصينها ثم أعيدت الكرة عام 1541م. و الأرجح أن السبب بالنسبة للمحاولة الأولى ترجع لعدم الاستقرار و المشاكل الداخلية و الفتن للتخلص من الأتراك. كما اهتم عروج الذي قتل نفس السنة بمحاولة طرد الأسبان من الغرب الجزائري و من بعده خير الدين الذي عرفت بداية فترة حكمه نوعا من ألاستقرار و محاولاته المستمرة في إزالة قلعة البنيون التي كانت بمثابة شوكة في قلوب الجزائريين بالإضافة إلى توليه تحصين الميناء.

و عن الفترة الثانية أي حملة 1541م و على الرغم من قصر مدتها، إلا أن الباحثة ترى أيضا أن السبب يرجع إلى الأحداث التي ذكرها "دي غرا مونت" (De Grammont) حيث اهتم حسان بن خير الدين بتنظيم صفوف الجيش و إعادة النظام للمدينة كما تولى إخضاع قبائل الغرب و جنوب مليانة ليضمن الطريق إلى الغرب الجزائري في حملاته لمحاولة تحرير المدن الجزائرية بهذه المنطقة من يد الاستعمار الاسباني و كذلك صد حملات أمراء المغرب الأقصى على الأراضي الجزائرية. لكنه و بالرغم من هذه الأحداث انتبه حسان بن خير الدين إلى ضرورة تحصين هضبة كدية الصابون ليصبح لهذا الحصن الدور الريادي في الدفاع عن المدينة(De Grammont 2002: 80-81).

أما الجاسوس بوتان فقد سجل أهم النقاط و الملاحظات التي تخص الحصن و ذكر في تقريره أن هذا الحصن لا يمكن اختراقه من جهة البحر بسبب صعوبة انحداره و أنه يتخذ شكلا مربعا و يدعمه أبراج في الزوايا الأربع و أضاف أنه إذا أصبح الحصن بأيديهم فان المدينة ستسقط بسهولة تامة (Boutin 1927: 31-32). دعم بوتان تقريره برسم عن الحصن يظهر عليه توزيع فتحات المدفعية و عددها قبل سقوطه بيد الاحتلال.

أما حمدان بن خوجة و الذي عاصر و شاهد سقوط حصن الإمبراطور و المدينة بيد الاستعمار فيقول أن الخز ناجي الذي أمره الداي حسين للذهاب إلى الحصن و تفقد الأمور، رأى أن المدينة هاوية لا محال لما حشده الفرنسيون من أسلحة و جيش لقصف الحصن حيث استمر ذلك لعدة ساعات بلا هوادة، فهلع الخز ناجي و راح ينثر البارود و يصله بالمخزن الصغير و أضرم النيران فنسف أجزاء كبيرة منه (خوجة 1972: 199).

يضيف أحد الشهود الفرنسيين لقد تعجبت من شجاعة المدافعين وتفانيهم في الرد علينا برغم سقوط أكتاف كثيرة من الحصن و أصبحت فتحات المدفعية مكشوفة لدينا و مع ذلك تواصل الرد علينا بكل شجاعة حتى بدا القصف يتراجع تدريجيا لينتهي بانفجار عنيف تطاير معه كل شيء، و بعدما انكشف الغبار ظهر أن جزءا كبيرا من الحصن قد دمر و البرج الدائري نسف كليا كما تساقطت الواجهة الشمالية الشرقية كليا و القاعدة التي بنيت عليها، أما الأسوار المتبقية شهدت تصدعات كبيرة (Devoulx 2003: 144-145) (لوحة رقم 15- 16).



لوحة رقم 15: حصن الإمبراطور سنة 1830م



لوحة رقم 16: انفجار حصن الإمبراطور سنة 1830م

www.vieilalger.free.fr\vieilalger\icono.html, 2006

لم يظهر تضارب في الآراء حول تاريخ البناء لكن و قع التباس عند بعض المؤرخين حول من أمر ببنائه، حيث نسبوا الحصن إلى الإمبراطور شارل كانت لكونه نصب خيمته بنفس مكان الحصن، لذلك ارتأت الباحثة ضرورة توضيح هذه النقطة من خلال ما ورد أيضا من حقائق تاريخية.

ذكر لكوندامين (La Condamine) بأن الإمبراطور شارل كانت هو الذي شرع في بناء هذا الحصن لقصف الأسوار الخلفية للمدينة، و أضاف بأن الحصن كان يشرف على المدينة من خلال موقعه على قمة الجبل و أنه علم أن الحصن بني خلال 24ساعة من طرف الإمبراطور شارل كانت حيث جلب معه مواد البناء من اسبانيا (La Condamine 1954 in R.A: 370). ربما لهذه الآراء أطلق أيضا على الحصن اسم "برج بوليلة" باللهجة المحلية و تعني أنه بني في ليلة واحدة و

يؤكد هذه الآراء عسكري برتغالي أسر بالمدينة ما بين سنة 1621-1627م، ألف كتابا بعدها عن الأسر في مدينة الجزائر بحيث قال: "سمي حصن الإمبراطور لأن هذا الأخير قام ببناء البرج في ليلة واحدة و دعمه بالأسلحة كما نصب خيمته بنفس المكان بعدها قام الأتراك ببناء خمسة أبراج تحيط به و هي التي نراها اليوم، تنقسم هذه القلعة إلى برجين أو حصنين يفصلهما خندق عميق كما يوجد تحت الأرض باب سرية تسمح للأتراك بالانسحاب من خلالها إلى أحد البرجين إذا ما استولي على الآخر، يدعم الحصن 20 قطعة مدفعية تتراوح بين الحجم الكبير و الصغير (Mascarenhas 1993: 85- 86).

إن هذه الآراء لا تتناسب مع ما ورد من أحداث، ذلك أن الإمبراطور وصل إلى خليج المدينة بتاريخ 20 تشرين الأول (أكتوبر) 1541م، و بين فترة الوصول و المعركة و الانهزام و الانسحاب كليا بتاريخ 3 تشرين الثاني 1541م إلى تامنتفوست، استقل ما بقي من سفنه الراسية هناك لينطلق إلى بلاده تاركا وراءه غنائم كثيرة و الآلاف من الأسرى للجزائريين (Misermont 1905: 29) تبقى مدة قصيرة، لا يمكن بناء حصن فيها خاصة انه كان يتعرض و جيشه للمناوشات من طرف الجيش الجزائري باستمرار. هذا إلى جانب حاجته الكبيرة لمواد البناء التي لا يعقل انه جلبها معه، علما أن العدة الحربية التي أتى بها لم يتم إنزالها من السفن كليا و عندما هبت العاصفة و انهمرت الأمطار رمت بكل الحمولة إلى الشاطئ و دمرت العديد من السفن. و هو السبب الذي أدى إلى معاناة جيشه من نقص في الغذاء و الماء مما اضطرهم لقتل 400 من الأحصنة التي جاؤوا بها ليقتاتوا منها (De Paradis 1891 in R.A: 186).

أضف إلى هذا فان الظروف الطبيعية التي صادفت الحملة لم تكن لتسمح ببناء حصن كحصن الإمبراطور، كما أن علم الآثار لا يعتمد إلا على الأدلة و الشواهد المادية التي انعدمت حول هذه الآراء، و لا دليل سوى أن الإمبراطور كما سبق ذكره نصب خيمته بكدية الصابون بالقرب من ضريح سيدي يعقوب ووجه عددا من المدافع إلى الأسوار الخلفية للمدينة كما كان يصدر أوامر الهجوم من خلال خيمته (Walsin 1840: 145).

يذكر كلاين أن الحصن مسلح بواحد و تسعين مدفعا. أما البرج الأول فكان دائري الشكل يؤدي وظيفة المراقبة ومسلح بثلاث مدافع. تعرض الحصن سنة 1656م لصاعقة دمرت أجزاء معتبرة منه فأعيد بناؤه من جديد (Klein 1937: 79)، كما كان يحتوي على مساكن لألف جندي و مصنعين للبارود و صهريج كبير للمياه.

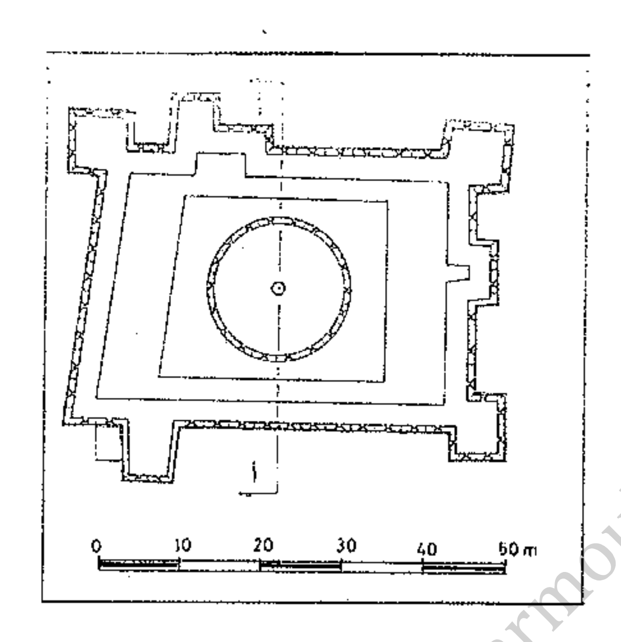
2. 5. الوصف الخارجي لحصن الإمبراطور:

لا يزال الحصن اليوم قائما على هضبة كدية الصابون و التي ترتفع بحوالي 230م عن مستوى سطح البحر، يبعد عن قصبة الداي بحوالي 1225م. شكل الحصن مستطيل طول ضلعه 86.44م و عرضه 79.24م حسب مخطط بوتان. و هو مبني من الجنوب إلى الشمال أعيد بناءه و إصلاح أجزاءه بعد الانفجار الذي تعرض له ليحول إلى حبس عسكري لمدة طويلة ثم ثكنة عسكرية (www.vieilalger.free.fr\vieilalger\icono.html, 2006).

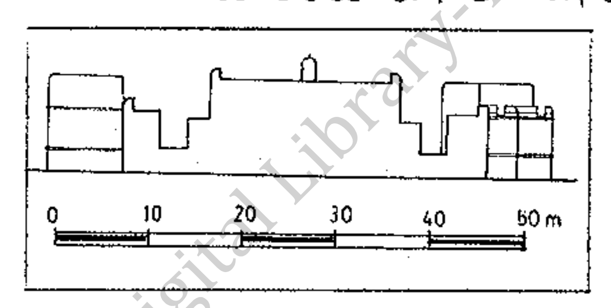
يبلغ ارتفاع أسوار الحصن 10م يتوجها فتحات للمدفعية، كانت زواياه مدعمة بمتاريس غير منتظمة الأشكال تعرضت للكثير من التغييرات منذ الاحتلال الفرنسي (خلاصي 1991: 117).

اعتمد في بناء أسوار الحصن على مادة الآجر شأن الكثير من الأبنية بمدينة الجزائر و لم يكن يحيط به خندق (Renaudot 1830: 20)، يدعم الحصن أربعة أبراج ركينة.

احتوى الحصن كما يظهر في مخطط بوتان على خمس و سبعين فتحة للمدفعية منها ثمانية عشر فتحة بالبرج الأوسط الدائري الشكل و سبعة و خمسين فتحة موزعة على أبراج الحصن الركنية. جاءت موزعة على النحو التالي: ستة فتحات في كل من البرجين الشمالي و الشرقي و خمس فتحات في البرج الغربي أما البرج الجنوبي فكان به فتحتين للمدفعية، أما بقية الفتحات فجاءت موزعة على جدران الأبراج كالتالي: ستة فتحات بالواجهة الشمالية الشرقية و أحدى عشرة فتحة بالواجهة الشمالية الغربية و ثماني فتحات بالواجهة الغربية الجنوبية و ثلاث عشرة فتحة بالواجهة الشرقية الجنوبية (Boutin 1808: 5) (مخطط رقم 7-8).



مخطط رقم7: حصن الإمبراطور وفق الورقة 5 من مخططات بوتان



مخطط رقم 8: المقطع أ-أ

لا يزال الحصن اليوم محتفظا بشكله العام بالرغم من التغييرات التي أدخلت عليه و يمكن ملاحظة ذلك في واجهات الأبراج الخارجية حيث أضيف إليها بنايات تعلو الأقسام العلوية بمواد مختلفة تماما عن الأصل. و سدت في بعض المواضع فتحات المدفعية و استحدثت فتحات أو نوافذ مكانها و نلمح هذه الزيادة في البرج الشرقي و الشمالي خاصة، بالإضافة إلى قنوات صرف المياه في الجدار الرابط بين البرج الشرقي و الجنوبي (صورة رقم 29).





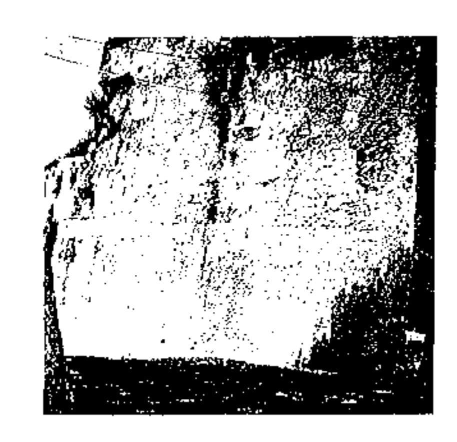
صورة رقم 29: جانب من التغييرات على الحصن

يجدر الإشارة هنا إلى أن تغييرات الحصن كانت على مدى مرحلتين: المرحلة الأولى شهدت تهدم أجزاء كبيرة على أيدي الأتراك قبيل دخول الفرنسيين، و بعد ذلك بسقوطه بيد الاستعمار حيث أعيد بناءه على نفس الشكل مع إدخال تغييرات عدة.

أما المرحلة الثانية فاشتملت على التغييرات التي حصلت بعد الاستقلال و المستمرة إلى يومنا هذا، حيث يستخدم الحصن كثكنة للخدمة العسكرية الشيء الذي حد من حرية الباحثة للدخول إليه و القيام بتصوير الحالة التي هو عليها اليوم، و إظهار الفرق بين المرافق التي كانت موجودة في السابق و الحالية، كما لم تتمكن الباحثة من تحديد العناصر المعمارية القديمة إن وجدت، و اكتفت بالواجهات الخارجية للحصن و الأبراج الركنية ضمن الحدود المسموح بها.

2. 5. 1. البرج رقم 01 (الشرقي):

يظهر البرج بشكل مضلع رباعي غير متساوي الأضلاع يقوم على قاعدة من التراب المركوم. تمتاز جدرانه بالميل بزاوية °30 تقريبا و شكل هذا الميلان اتساعا في قاعدة البرج ثم انحصار كلما زاد ارتفاعه (صورة رقم 29-30).





صورة رقم 30: أضلاع البرج الشرقي

يعد هذا الميلان ابتكار في فن التحصينات الدفاعية منذ اكتشاف المدفع كسلاح ناري و ذلك للتخفيف من قوة القذائف، كما تراجع ارتفاع الأسوار لأن الارتفاع لم يعد يخدم التحصينات بل على العكس يجعل منها هدفا واضحا لقذائف المدافع، كما أصبح استعمال الحجارة في البناء أقل بحيث أصبحت الأسوار و الأبراج تبنى من التراب ذلك أنها أكثر فعالية و صمودا أمام قوة المدافع. اعتمدت الباحثة على مخطط 1808م أي قبل نسف أجزاء كبيرة من البرج لأخذ القياسات لصعوبة العمل بالموقع العسكري و نتيجة الإضافات الكثيرة.

قياسات أضلاع البرج مختلفة جاءت على النحو التالي:

الضلع أ: و يقع في الجهة الشمالية الغربية من البرج و قياسه: 6.35 م

الضلع ب: و يقع في الجهة الشمالية من البرج و قياسه: 13.56م

الضلع ج: و يقع في الجهة الشمالية الشرقية من البرج و قياسه: 12.29م

الضلع د: و يقع في الجهة الجنوبية من البرج و قياسه: 5.50م

جاء البرج مبنيا بالأجر المرصوف يربطه الملاط قياس الأجر هو: 25x 12 x 5 سم، و كما ذكر آنفا فان للأجر قوة تحمل و صمود إزاء ضربات المدفعية و الدليل على ذلك ما ذكره مايترو:" أن أجزاء من البرج الدائري الذي كان يتوسط الحصن و هو مبني من الحجارة لم يصمد طويلا أمام القصف الفرنسي سنة 1830م بينما قاومت الأبراج المبنية من الأجر (Maitrot 1912: 31).

يظهر على البرج من الخارج معالم التغيير حيث نلاحظ تثبيت قنوات المياه الحديثة على ضلعه الرابع. كما بني في الجزء العلوي حيث من المفترض أن توجد فتحات المدفعية غرف حديثة يعلوها سقف هرمي الشكل فتحت به نافذتان صغيرتان و البناء كله من الاسمنت.

وفق مخطط بوتان يحتوي هذا البرج على ستة فتحات، لكنها أزيلت بسبب الإضافات و الزيادات. كما أدخلت أيضا مادة الحديد التي تخلف آثار الصدأ على بعض أجزاء جدران البرج (صورة رقم 29). و من العوامل التدميرية التي تبدو واضحة نمو نباتات طفيلية لها أثرها السلبي على الجدران بحيث يسبب امتداد جذورها تصدعات و شرخات في مواد البناء تسرع من عملية التدهور.

2. 5. 2. السور ما بين البرجين الأول و الثاني:

يربط البرج الأول بالبرج الثاني الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية سور مستمر يبدأ عند انكسار الضلع الرابع من البرج الأول بحوالي °90 تقريبا إلى الداخل ليستمر باتجاه البرج الثاني. جاء مبنيا بالآجر أيضا إلا أن أجزاء كثيرة تعد حديثة كما يوجد به أيضا قنوات المياه و استعمال الاسمنت في بعض مواضعه و كذا سد فتحات المدفعية بأجر حديث شائع استخدامه في الجزائر، بالإضافة إلى العامل الطبيعي المذكور أعلاه المتمثل في نمو النباتات المستمر. يبلغ طول هذا السور 55.50م، و حسب بوتان كان يتخلله أحد عشرة فتحة للمدفعية أما اليوم فقد سدت بعضها و بقي بعضها الآخر مفتوحا (صورة رقم 31).



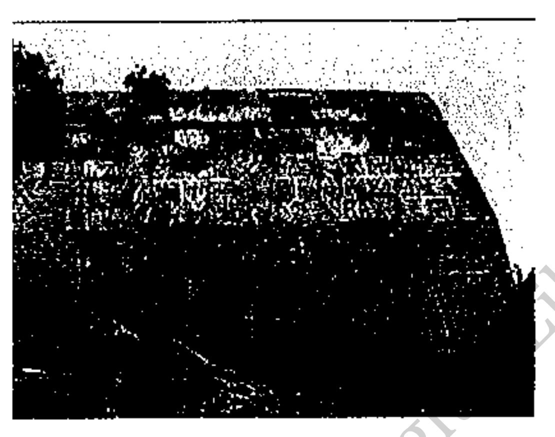
صورة رقم 31: أجزاء السور الرابط بين البرج الشرقي و الجنوبي

2. 5. 3. البرج رقم 02 (الجنوبي):

يقع في الزاوية الجنوبية من الحصن و به ثلاثة أضلاع غير متساوية يحدث ضلعه الأول زاوية 90° و يبلغ طوله 11.86م لا تظهر به فتحات. و يبلغ طول ضلعه الثاني 10.60م كان يتخلله حسب بوتان فتحتان للمدفعية أما اليوم فيظهر به ثلاثة فتحات ثم يعود هذا الضلع لينكسر من جديد مكونا زاوية 90° ليشكل الضلع الثالث للبرج و يبلغ طوله 11.44م و هو خال من الفتحات حسب مخطط بوتان دائما لكن اليوم به ثلاثة فتحات للمدفعية و هي مسدودة، ينكسر هذا الضلع من جديد مشكلا زاوية قائمة تتخلله فتحتان للمدفعية واحدة منها مسدودة، يبلغ طوله 12.71م (صورة رقم 32-33).




صورة رقم **32:** نهاية السور الأول و بداية البرج الجنوبي




صورة رقم **33:** أضلاع البرج الجنوبي و بداية السور الرابط بينه و البرج الغربي

2. 5. 4. السور ما بين البرجين الثاني و الثالث:

عند الزاوية التي ينتهي فيها السور الممتد من البرج الشرقي إلى البرج الجنوبي يبدأ سور طويل يربط بدوره بين البرجين الجنوبي و الغربي و يبلغ طوله 51.27م تتخلله عدة فتحات للمدفعية عددها ثمانية منها الأصلية و منها المستحدثة تتخللها ثلاثة عشر فتحة للرماية و يفصل بين الجدار و الجزء العلوي الذي يضم الفتحات فاصل أسطواني الشكل(إفريز) يستمر على مدى طول السور و هو من مادة الأجر، كالبناء كله. استعمل في مواضع كثيرة لمعالجة التشققات الناتجة عن كثرة النباتات الزاحفة الاسمنت لتلبيس الواجهات (صورة رقم 34).




صورة رقم 34: السور الرابط بين البرج الجنوبي و الغربي



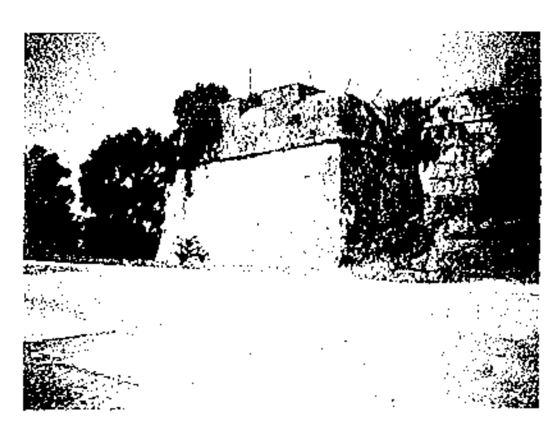
صورة رقم 35: الأجزاء المنهارة أسفل السور

انهارت أقسام في الجزء السفلي من السور فاتضحت مادة البناء المستخدمة لملأ الجدران من الداخل و هو خليط من التراب و الحجارة الصغيرة و الحصى و أيضا بعض القطع الفخارية المكسورة يربطها الملاط أو الجير حيث يزيد من الصلابة و التماسك و يقاوم الرطوبة بحكم الموقع القريب من البحر و يعطي هذا الخليط القوة للأسوار و مقاومة ضغط قذائف المدفعية (صورة رقم 35).

2. 5. 5. البرج رقم 03 (الغربي):

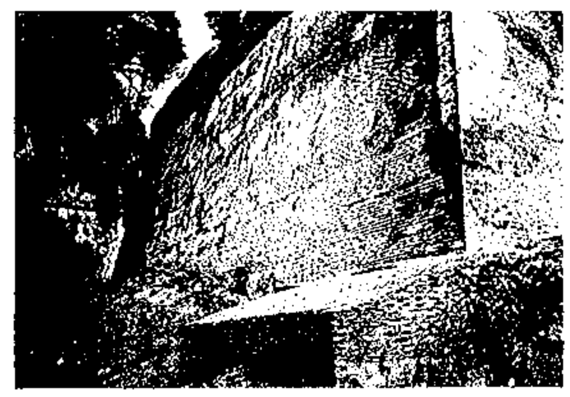
عند نهاية السور المذكور أعلاه يبدأ ضلع البرج الغربي مشكلا زاوية قائمة طوله 6.35م حسب بوتان كان به فتحة واحدة و هي نفسها حاليا، يلي بعدها الضلع الثاني و طوله 13.13م يتوجه فتحتان للمدفعية مثلما أوضحها بوتان في مخططه و هي حاليا بنفس العدد إلا أنها سدت و عوضت بشكل مرقب صغير مربع الشكل و هي مبنية بالآجر الحديث، يتخلل الفتحة الثانية نمو كثيف للنباتات (صورة رقم 36).



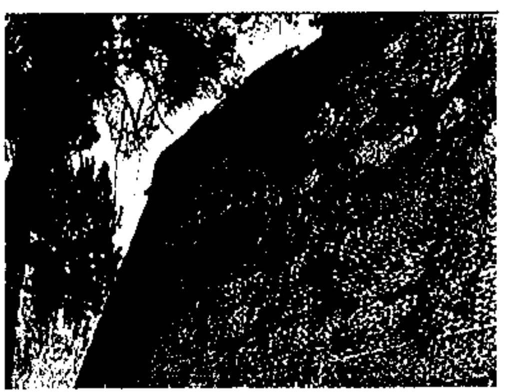


صورة رقم 36: الضلع الأول و الثاني من البرج الغربي

طول الضلع الثالث 13.98م، يتوجه فتحتان للمدفعية كما ذكره بوتان و حالتهما متدهورة بحيث تتعرض حجارتها للتساقط. جاءت هذه الفتحات منحدرة إلى الخارج قليلا بحيث تكون ضيقة من الداخل و واسعة من الخارج شأنها شأن كل فتحات المدفعية لتوفر الأمن للمدافع، جاءت قياساتها كالتالي: ارتفاعها 1.50م و عرضها من الداخل 0.90م و سمك الجدار 2.05م. و قد لاحظت الباحثة استعمال طريقتين و نوعين من مواد البناء بحيث نجد مزيجا بين الأجر المرصوف يربطه الملاط المخلوط بالتراب إلى جانب الحجارة الكبيرة المصقولة على جوانب فتحة المدفعية التي جلبت من مواقع قديمة (صورة رقم 37).







صورة رقم 37: الضلع الثالث للبرج الغربي

ترجح الباحثة أن هذا البناء جديد لأن بقية أجزاء السور مبنية من الآجر و ربما استعملت الحجارة الكبيرة لتدعيم الأجزاء المتهدمة فقط. جاءت قياسات الحجارة المصقولة: 0.80 x 0.35 x 0.35م لكنها ليست على قياس موحد و قد قطعت حسب وظيفتها في الجدار. ما يمكن إضافته هو أن هذه الفتحة بالرغم من كونها أصلية إلا أن طريقة بناءها مختلفة و هذا ما سيلاحظه القارئ من خلال الصور، فالقاعدة التي من المفترض أن ترتكز عليها فوهة المدفع ليست متناسقة مع مستوى السطح الحالي حيث جاءت منخفضة بحوالي 0.80م و جاءت الفتحة مرصوفة بالآجر و هي الطريقة الشائعة في العمارة العسكرية العثمانية بالجزائر كما أشرت إليه سابقا. الأصح أن يكون السطح كذلك ليخفف من قوة القذيفة عند سقوطها لكن الوضع مختلف حيث بلط الممشى بطبقات من الاسمنت جعلت من أرضية السطح ترتفع عن مستوى الفتحة و بالتالي اختفاء المادة الأصلية (الآجر) و السبب راجع على الأرجح، لعدم أهميتها حاليا بالمقارنة و الوظيفة التي يستخدم لأجلها الحصن. أما الفتحة الثانية سدت ولم يعد لها سوى أثر موقعها بالنسبة لهذه الواجهة من البرج. ينكسر الضلع الثالث ليشكل الضلع الرابع للبرج و طوله 6.78م لا يضم هذا الأخير أي فتحة (صورة رقم 38-39).







صورة رقم 38: فتحات المدفعية بالضلع الثالث



صورة رقم 39: الضلع الرابع من البرج الغربي

2. 5. 6. السور ما بين البرج الثالث و المتراس المطل على الخندق:

نظرا لانحدار الهضبة التي بني عليها الحصن من هذه الجهة وجب التحكم في طبوغرافية الموقع و تدعيم الحصن بمتاريس يشدد الجنود الحراسة من فوقها. فبعد الضلع الرابع للبرج الغربي يبدأ سور طوله 4.66م مزود بفتحتين للمدفعية (صورة رقم 40).





صورة رقم 40: الجدار الرابط بين البرج الغربي و المتراس

ثم يليه انكسار محدثا جدار استناديا خال من الفتحات الأغلب أنه حديث، يليه انكسار آخر محدثا جدار طوله 10.17م تتخلله فتحة واحدة فقط. ينكسر السور من جديد ليحدث سورا آخر طوله 5.93م يتخلله فتحة واحدة، يليه سور آخر طوله 11م تتخلله فتحتان ثم السور الأخير لهذا المتراس و يبلغ طوله 4.24م و به فتحة واحدة فقط (حسب مخطط بوتان). كانت هذه المتاريس تساهم في الحراسة و تسهل عملية الاتصال بين الأبراج، رممت هذه الأجزاء و استحدثت مواد البناء فيها.

تدعم الباحثة هذا الوصف بما ذكره هايدو عن قيام حسان فنزيانو بحفر خندق يفصل البرجين الأماميين عن الخلفيين، ثم بني أعلى الخندق متراس مزود بفتحات للمدفعية لعرقلة و صد العدو إذا ما استولى على البرجين الأولين، و موقع المتراس الحالي مناسب تماما لهذا الوصف (صورة رقم 41).





صورة رقم 41: شكل المتراس المطل على جزء من الخندق

يتعرض هذا الجزء من الحصن كسابقيه لعوامل التغيير من حيث مواد البناء و استمرار زحف النباتات أعلى جدرانه مما يهدد أجزاءه العلوية بالانهيار.

2. 5. 7. السور ما بين المتراس و البرج الرابع:

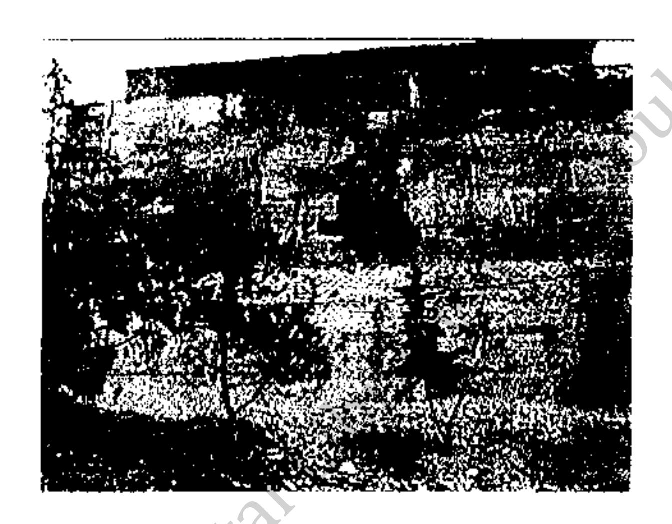
يستمر بعدها السور ليربط هذا الجزء بالبرج الواقع في الركن الشمالي من الحصن يتخلل السور حسب بوتان ستة فتحات للمدفعية لكن حاليا لا يظهر منها إلا القليل و إن وجدت فهي مسدودة حيث بني أعلاها سور يرتفع بحوالي 2م. طول السور 33.90م و هو مبني من الآجر(صورة رقم 42).



صورة رقم 42: السور الرابط بين المتراس و الضلع الأول للبرج الشمالي

2. 5. 8. البرج رقم 04 (الشمالي):

يظهر رباعيا غير متساوي الأضلاع، طول ضلعه الأول هو: 6.35م يعلوه فتحة واحدة للمدفعية، ينكسر هذا الضلع ليحدث ضلعا آخر طوله: 4.40م يعلوه فتحتان للمدفعية، ثم ينكسر بدوره ليحدث الضلع الثالث طوله 13.93م تعلوه فتحتان أيضا، أما الضلع الرابع فطوله: 6.35م تعلوه فتحة واحدة. شوهت معالم هذه الفتحات بحيث أدمج بعضها في الأبنية المضافة أعلى البرج (صورة رقم 43).



صورة رقم 43: أحد أضلاع البرج الشمالي

ينكسر الضلع الرابع ليكون سورا طوله 8.90م تعلوه فتحة واحدة للمدفعية، أزيلت بقية الأسوار الواقعة في الواجهة الشمالية اليوم و التي كانت تضم المدخل الرئيسي للحصن و تقوم على حراسته أيضا بحيث كانت بوابات الحصون و الأبراج تدعم بحواجز دفاعية كوقوعها بين برجين أو يتقدمها خندق أو جسر متحرك. و الحال كذلك في حصن الإمبراطور بحيث كانت هذه المتاريس تقوم على حراسة المدخل و تسهل أيضا عملية الاتصال بين البرجين الأماميين.

ما يمكن إضافته حول الوصف الخارجي للحصن هو أن بناءه ساير طبيعة موقع وطبوغرافية الهضبة لذلك جاءت الأبراج منعطفة إلى الخارج و شكلت زاوية قائمة بحيث تصبح هذه الزاوية بمثابة قاعدة أو جدار استنادي للسور و البرج و تضفي طابع المتانة و القوة للحصن كله (المومني 1988: 351).

2. 6. الوصف الداخلي للحصن:

لم تتمكن الباحثة من وصف الحصن و ما تبقى منه من الداخل لكونه ثكنة عسكرية و كان العمل بالداخل محدودا جدا و اكتفت بتصوير بعض واجهات الأبراج الشرقية و الجنوبية من الداخل و السور الرابط بين البرج الجنوبي و الغربي الذي غيرت معالمه تماما.

2. 6. 1. مدخل الحصن:

حسب مخطط بوتان فان المدخل الرئيسي للحصن كان يقع في وسط الواجهة الشمالية الشرقية و لا يزال كذلك إلا أنه حديث كليا. يؤدي هذا المدخل إلى ساحة فسيحة جدا مبلطة بالاسمنت و هي الساحة التي ذكرها هايدو بأنها كانت مخصصة للاستعراض العسكري و بها أيضا كان يقوم البرج الدائري الشكل الذي بناه حسان بن خير الدين سنة 1545م و الذي نسف قبيل دخول المستعمر إلى الحصن.

يحيط بالساحة مجموعة من الغرف و المكاتب و المخازن و عموما فان كل الملحقات بالداخل لا تمت بصلة للفترة العثمانية لكونها حديثة النشأة. بعدها وجدت ممرا آخر و هو مقبى لكنه فقد كل صفاته المعمارية القديمة يؤدي إلى ساحة تضم الجدران الخلفية للبرج الجنوبي (صورة رقم 44).



صورة رقم 44: أحد أضلاع البرج الجنوبي المطل على داخل الحصن

و في الناحية الجنوبية الغربية سلم يتخذ شكل حلزوني تظهر عليه آثار الاستحداث، يتم الصعود إليه عبر عشرين درجة غير متساوية القياسات مبنية بالأجر (صورة رقم 45).



صورة رقم 45: السلم المؤدي إلى ممشى الحراسة

يؤدي هذا السلم إلى ممشى الحراسة (المتراس) الذي يربط بين البرج الجنوبي و البرج الغربي و يتخلله مجموعة فتحات للمدفعية و للرماية أغلبها سدت و المفتوحة منها تم تلبيسها بالاسمنت عرض الممشى 3م و طوله 61.44م، أرضيته غير مرصوفة بالآجر أو أي نوع من البلاط بل هي طبقة من التراب المدكوك. ارتفاع سور الممشى عن الأرضية يتراوح ما بين 1.50م و 2م و هو مبني من الآجر المرصوف بطريقة أفقية يربطه الاسمنت (صورة رقم 46).



صورة رقم 46: ممشى الحراسة

هذه كل المرافق الداخلية للحصن و التي تمكنت الباحثة من رؤيتها و سمح بتصويرها، و مع ذلك أظن أنه لا يزال الكثير لاكتشافه في الحصن على الأقل تحديد المعالم التي ذكرها هايدو و الباب السري التي فتحها الأتراك و التي تؤدي من البرجين الأماميين إلى أسفل الخندق، كما لم أتمكن من تحديد مسار هذا الأخير لتراكم الأتربة و بناء العديد من الملحقات الجديدة.

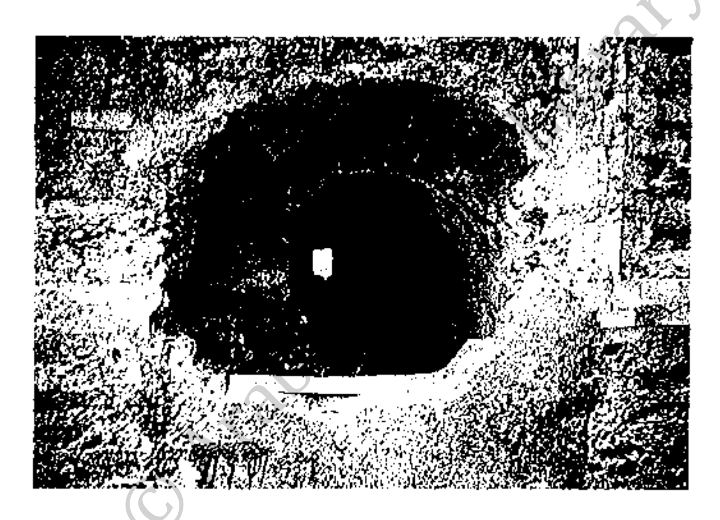
2. 7. مواد و تقنيات البناء:

2. 7. 1. الآجر:

من خلال ما سبق فان الحصن عامة مبني بالآجر المرصوف الذي يربطه الملاط و قياساته: 25 x 12 x 5سم و يظهر بالتحديد في واجهات الأبراج و في فتحات المدفعية و الرماية. و قد رصف الآجر على عدة أشكال وفق مكان استعماله. ففي واجهات الأبراج كان بطريقة أفقية يربطه الملاط أو الاسمنت في الأماكن المرممة (انظر الصور السابقة).

أما على مستوى فتحات الرماية فجاء رصفه بشكل نصف دائري يربطه الملاط، و على مستوى فتحات المدفعية مختلف تماما بحيث يرصف مرة بطريقة أفقية ثم في الصف الثاني يرصف بطريقة عمودية و هكذا و بني بهذه الطريقة في جداري الفتحة أما أرضيتها فجاءت بطريقة التعرج أو ببناء صفوف منكسرة الشكل (الصورة رقم 47-48).





صورة رقم**47:** نماذج من فتحات الرماية يظهر عليها التلبيس بالاسمنت



صورة رقم 48: طريقة رصف الآجر في فتحات المدفعية

2. 7. 2. الحجارة المصقولة:

فيما عدا الواجهة الغربية للبرج الغربي حيث توجد فتحة المدفعية تم استعمال الحجارة المصقولة و الأغلب أنها استخدمت لتدعيم الجدار المتهدم لأنها لم توجد على طول الواجهة بل ارتكزت على الجانب الثاني من الفتحة و على امتداد مترين فقط. أما البقية فبني بالآجر، قياسات هذه الحجارة هو: 0.80م x 0.35م x 0.35م (صورة رقم 49).





صورة رقم 49: الحجارة المصقولة على جانبي إحدى فتحات المدفعية

و وفقا لما ذكر في المصادر فان مادة البناء الرئيسية كانت الآجر بينما بني البرج الدائري الذي كان يتوسط الحصن من الحجارة و قد نسف. جلبت الحجارة المصقولة من المواقع الرومانية القريبة من مدينة الجزائر كموقع رسقونيا بتامنتفوست و الذي ذكره مارمول كربخال على كونه محجرة كانت تنقل منه مواد البناء لتحصينات المدينة.

2. 8. عناصر البرج الدفاعية:

2. 8. 1. الأبراج الركنية:

بنيت هذه الأبراج في الزوايا الركنية لحصن الإمبراطور باتجاه المحاور الأربعة لتدعيم نقاطه الدفاعية المطلة على البحر حيث كانت تأتي معظم الهجمات الاستعمارية و كذلك جهة البر لحراسة المدينة من هذه الاتجاهات خوفا من أي توغل مباغت.

2. 8. 2. البرج الدائري:

لقد كان لهذا البرج الدور الفعال في حراسة الحصن و ضواحي المدينة للعلو الذي تميز به عن بقية الأبراج حيث كان يفوقها بارتفاع 3 أمتار. و قد ساهم هذا البرج في امتداد الرؤية إلى عرض

البحر و بالتالي الإنذار المبكر في حال اقتراب الأعداء كما ساهمت مدفعيته أيضا في التصويب الأبعد. و للبرج الدائري الشكل أهمية كبيرة في نظام التحصينات الدفاعية على مر العصور.

2. 8. 3. الخندق:

لم يكن يحيط بالحصن خندق ذلك انه اعتمد على الانحدار الذي تشكله كدية الصابون من جهة البحر و الصخور المنحدرة أيضا من الجهة الشمالية الغربية بالإضافة إلى الاعتماد على الأبراج الركنية. لكن وجد خندق فاصل بين البرجين الأماميين و الخلفيين و قد ذكره هايدو قائلا:" أن الباشا حسان فنزيانو أمر بحفر خندق يقسم ساحة الاستعراض العسكري إلى قسمين غير متساويين من الشرق إلى الغرب، بحيث يجعل البرجين الأماميين الجنوبي و الشرقي منفصلين بواسطة عرض الخندق عن البرجين الخلفيين لهما الشمالي و الغربي و كأنهما برجين أو قلعتين منفصلتين تماما. يقدر عمق الخندق 3م و عرضه 5م (De Haedo 1998: 50).

2. 8. 4. الباب السري:

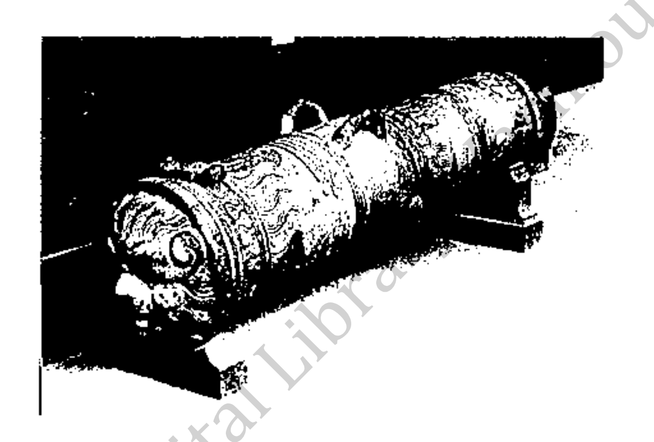
بالرغم من عدم العثور عن مكان الباب إلا أنها تعتبر عنصرا دفاعيا مهما و هو أمر شائع في العمارة الدفاعية عامة حيث كانت تنشأ الممرات و البوابات و المسالك السرية التي تترك للأمور الطارئة فمنها ما كانت تؤدي إلى البحر أو الجبل حسب الموقع الذي تحتله القلاع أو الحصون.

و عامة تختار مواقعها بعناية فائقة بحيث تكون مخفية من خلال بناء جدار أمامها يحول دون كشفها للمهاجم، و كذلك يكون حجمها صغيرا يسهل إغلاقها أو السيطرة عليها إذا ما دعت الضرورة (المومني 1988: 349).

2. 8. 5. فتحات المدفعية و البنادق:

كانت هذه الفتحات موزعة على طول امتداد أسوار الحصن و أبراجه الركنية و منها ما كانت موجهة إلى البحر و منها ما كانت موجهة إلى البر و كانت تزود بالمدافع الكبيرة و المتوسطة العيار بهدف صد الأعداء و قد عرفت مدينة الجزائر في هذه الفترة بقوة مدفعيتها و اشتهرت باسم مدينة الألف مدفع (صورة رقم 47-49).

و قد ذكر بهذا الصدد من طرف الضابط بارشو الذي زار المدينة سنة 1830م قائلا*: "لقد بنيت تحصينات المدينة بدقة و جمال و جودة عالية في البناء فالأرضيات و الأسوار و الفتحات بنيت بمواد البناء عالية الجودة و تقنية لم يكن لنا علم بها، و الفتحات المصفوفة بالمدافع الجميلة الغنية بالنقوش و الزخارف و لكل أهميتها، و الكثير منها صنع بدار النحاس بمدينة الجزائر و عدد آخر كان يغنم خلال الحروب و كان الميناء لوحده محميا بثلاثة مائة مدفع و بقية المدينة كان يحميها تسعة مائة مدفع من البرونز يصل وزنها الإجمالي إلى 3000 قنطار" (Klein 1913: vol 5, 45-47) و قد أخذ عدد كبير من هذه المدافع إلى فرنسا على اثر احتلال الجزائر (صورة رقم 50 عن كلاين).



صورة رقم 50. 1: مدفع ألماني وجد بالجزائر

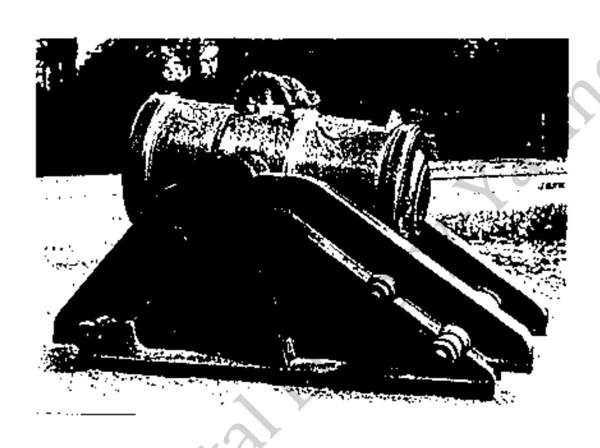


صورة رقم 50. 2: مجموعة مدافع جزائرية بمتحف انفاليد "Invalides " بفرنسا

* للمزيد من المعلومات عن مدفعية مدينة الجزائر: أنظر Klein, 1913, vol 5.



صورة رقم 50. 3: مدفع بتسع فوهات من صنع دار النحاس بالجزائر



صورة رقم 50. 4: مهراس جزائري في متحف انفاليد "Invalides" بفرنسا

بالرغم من التطور و الامتداد العمراني الذي شهدته المدينة خلال الاستعمار و بعده و المستمر إلى يومنا هذا على كل الاتجاهات إلا أن حصن الإمبراطور لا يزال قائما يحتل موقعه الاستراتيجي في المدينة يشرف على الميناء و المدينة برا و بحرا لتتضح لدينا فكرة مدى نجاعة هذا الحصن في صد الهجمات الصليبية على المدينة على مدى ثلاثة قرون كاملة كما تبرز أهمية موقعه من خلال اتخاذ الاحتلال الفرنسي منه مقرا لثكنة عسكرية بعد إعادة بناء أجزائه المتهدمة جراء الانفجار العنيف بمخزن البارود قبيل دخولهم و احتلالهم المدينة.

كان الحصن خاليا من العناصر الزخرفية و لم يرد في المصادر إشارة لذلك. و ربما يعود السبب لعدة عوامل: منها أن المدينة كانت تتعرض باستمرار للمحاولات الاستعمارية فاهتم الحكام و السكان بتحصين المدينة كلما تراءت بوادر حملة ما بسرعة و بما يتوفر من مواد بناء دون الاهتمام بجانب الترف و المغالاة في البناء، و عامة اقتصرت الزخارف على الكتابات التذكارية بالدرجة الأولى بهدف تخليد ذكرى بناء الأبراج و سنة تشييدها و الهدف منها. و مع هذا وجدت بعض المعالم الدفاعية التي ضمت بعض الزخارف الدالة على رمز الدولة العثمانية لكن هذا لم يمنع

وجودها في مرافق قلعة الداي التي كانت مقرا لسكنه و كذلك في بيوت أغنياء المدينة و بيوت العامة بالقصبة و قد خصصت دراسات كثيرة لبيوت مدينة الجزائر في العهد العثماني لما تزخر به من تنوع و غنى في الزخارف الإسلامية و العناصر المعمارية التي أعطتها طابعا خاصا بها (القصور و البيوت المتواجدة بالقصبة).

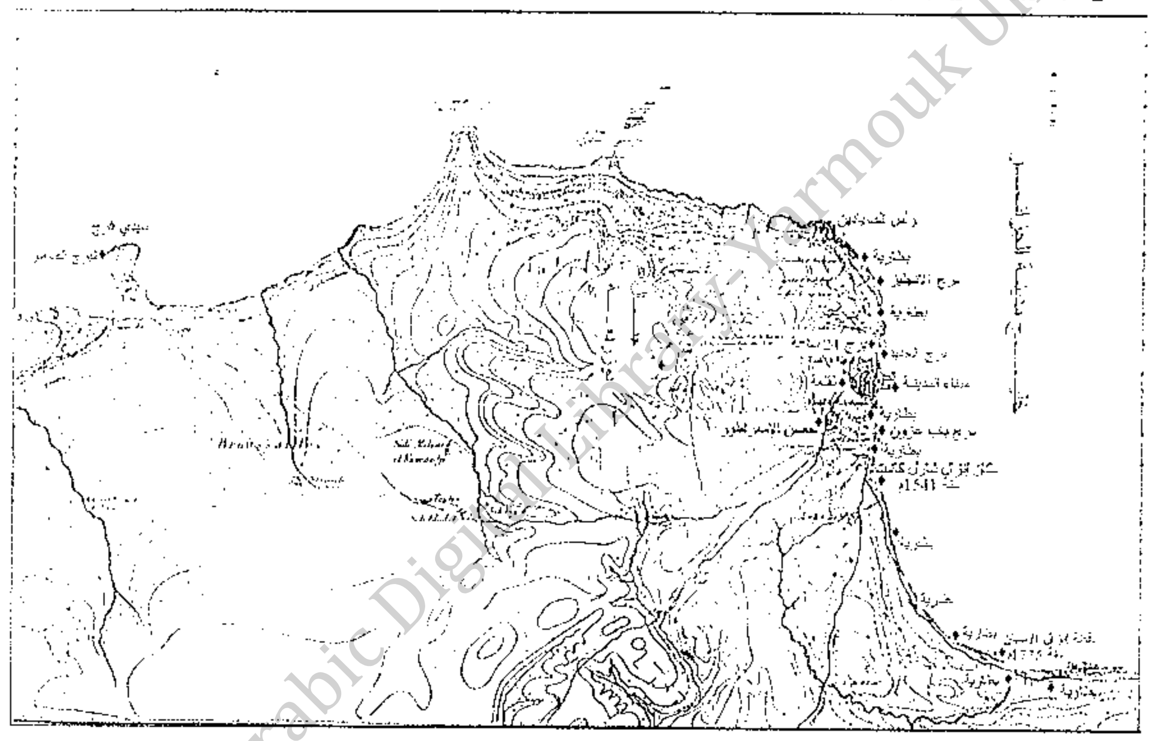
أما حصن الإمبراطور فلم يتم العثور على أي عنصر زخرفي به و ربما السبب الثاني لذلك أن الحصن تعرض للانفجار كما سبق ذكره، و قد تكون بعض هذه العناصر إن كانت موجودة ضاعت خلاله، و لم يهتم الفرنسيون بعدها بهذا الجانب لاهتمامهم بإخضاع بقية المدن الجزائرية لسلطتهم و على العكس فقد أزالوا الكثير من المعالم الدفاعية التي تعود للفترة العثمانية بحجة توسيع و شق الطرقات الجديدة و بناء المنازل الحديثة لتوسيع المدينة و إخراجها من الأسوار التي كانت تحصر توسعها.

و تضيف الباحثة بهذا الصدد ما ذكره أحد المؤرخين حول المدينة: "إن من الأسباب التي أدت إلى اندثار العمران و تدهوره بالجزائر يعود إلى عوامل طبيعية أصابت المدينة خاصة في النصف الثاني من القرن السابع عشر، حيث تعرضت المدينة لمجموعة من الكوارث الطبيعية بدأت بالطاعون و المجاعة ما بين 1654-1657م و التي أودت بحياة ثلث السكان، ثم ما بين 1663-1665م و أخيرا 1698-1702م. و تعد سنة 1639م الأصعب حيث رافق الطاعون المجاعة و سلسلة من الهزات الأرضية العنيفة التي سببت دمارا كبيرا، أضف إلى هذا العامل البشري الذي تمثل في انفجار مصانع و مخازن البارود أربع مرات متتالية خلال هذا القرن داخل الأبراج و الحصون، و ما كانت تخلفه الحملات العسكرية على المدينة خاصة الحملة الفرنسية سنة 1682-1683م" (Cresti 1996: 14) و تعليقا عما ذكر فانه لا يعقل أن يهتم الحكام بالزخارف و البذخ أمام كل هذه الكوارث و الظروف.

3. برج مرسى الدبان الجديد (برج رأس بيسكاد) و دوافع اختياره:

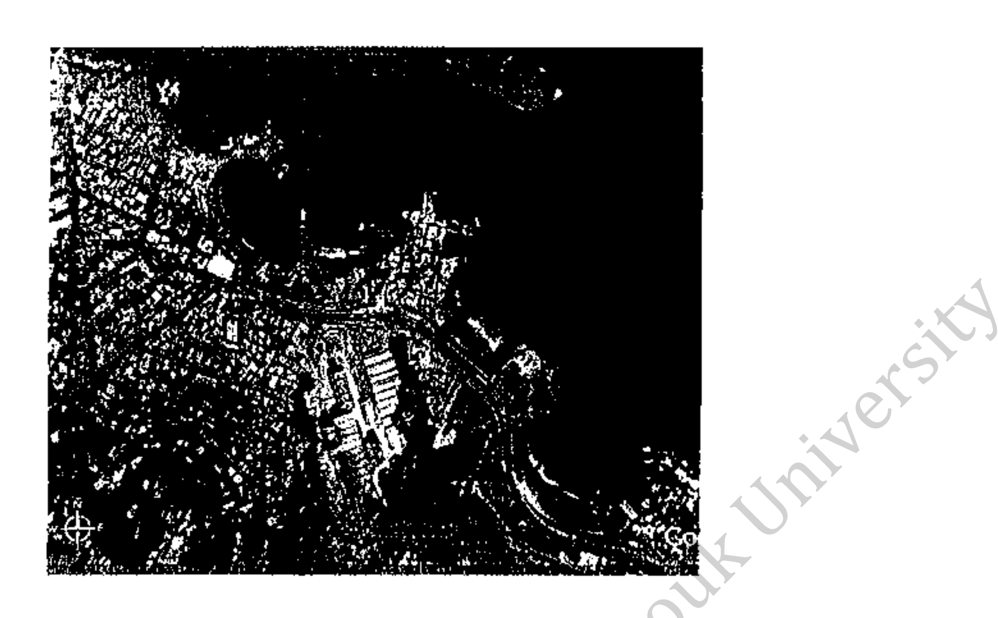
3. 1. أهمية الموقع:

تشكل هذه الجهة المدخل الغربي لخليج المدينة، و هي نقطة مهمة جدا بحيث تقابل الجهة الشرقية التي كان يحرسها برج تامنتفوست، و كانت نيران هاتين النقطتين تتقاطع للتصدي لأي توغل لسفن الأعداء من خلالهما، و عليه كان من الضروري تحصين مدخلي خليج الجزائر و سد كل ثغرة (خريطة رقم 5)

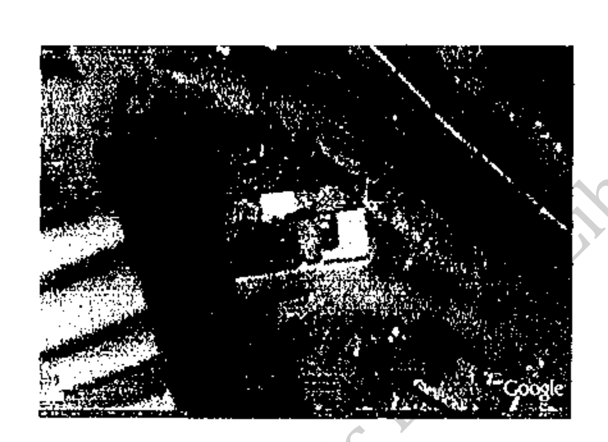


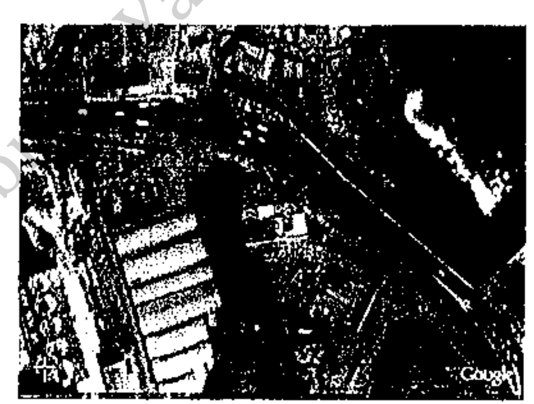
خريطة رقم 5: موقع رأس مرسى الذبان من المدينة

يقع برج مرسى الدبان الجديد على بعد 7كلم شمال غرب مدينة الجزائر و هو من بين الأبراج القليلة التي تحمي خليج المدينة الغربي و كان يبعد عن البرج القديم و البطارية بحوالي 50م و قد بني ليصد سفن العدو المتسللة من الجهة الغربية للمدينة و لتدعيم البرج القديم و البطارية اللذان اندثرا كليهما اليوم (صورة رقم 51).



صورة رقم 51. 1: صورة جوية لموقع البرج من البحر





صورة رقم 51. 2: صورة جوية لشكل البرج

3. 2. الأهمية الأثرية:

تكمن أهميته في كونه لا يزال قائما و شاهدا على أهم المراحل التي شهدتها الجزائر تحت الحكم العثماني رغم التغييرات و الإضافات التي أدخلت عليه، و مع هذا يمكن أن نلمس بعض العناصر المعمارية و الزخرفية التي لم نشهدها في الأبراج السابقة.

3. 3. الأهمية المعمارية:

تكمن أيضا في إبراز نوع المخططات التي كانت سائدة في الجزائر و طريقة البناء و العناصر المعمارية التي وجدت بالبرج.

3. 4. تاريخ بناء البرج:

حسب الكتابة التأسيسية التي وجدت بالبرج، فقد بني سنة 1823-1824م من طرف آخر دايات الجزائر، الداي حسين احتراسا من اقتراب حملة فرنسية على المدينة و وصول أخبار من جواسيسه بفرنسا بأن الإنزال سيكون من الجهة الغربية للمدينة لكونها الأضعف و الأقل تحصينا.

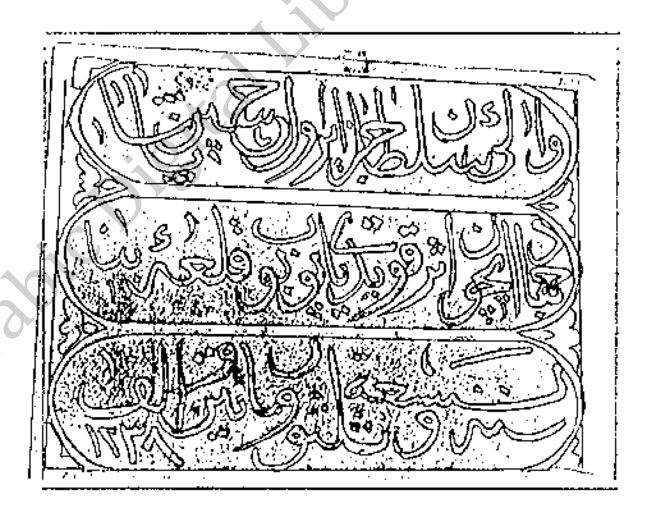
جاءت الكتابة التأسيسية باللغة العثمانية و كانت تعلو باب البرج، نفذت الكتابة بخط النسخ الشرقي على لوح من الرخام ارتفاعه 0.38م و عرضه 0.49م و جاءت الكتابة موزعة على ثلاثة أسطر يحيط بكل سطر منها إطار، و اللوح محفوظ بالمتحف الوطني للآثار القديمة (Colin 1920: 229) (لوحة رقم 17)، و النص:

والى سلطان جزاير اول حسين باشا

جهاد ايجون اثر قويدي بوب بو قلعه بنا

سنة تسعة و ثلاثون و مايتين و ألف

1238



لوحة رقم17: نص تأسيسي لبرج مرسى الدبان الجديد

ترجمة النص:

والي الجزائر الأول السلطان حسين باشا

أنشأ هذا البرج و جعله في سبيل الجهاد

سنة تسعة و ثلاثون و مائتين و ألف

1239 (خلاصي1991: 125)

و قد لوحظ أن التاريخ المدون بالأرقام لا يتناسب مع ما دون بالحروف و الظاهر أنه خطأ لم يتنبه إليه الفنان حين كتب اللوح الرخامي، يقابل هذه السنة بالتاريخ الميلادي سنة 1823م- 1824م وهي السنة التي توافق حكم حسين باشا الذي تقلد منصبه منذ 1818-1830م.

حسب دفولكس (Devoulx) بني البرج بطريقة عشوائية لأن جزء من نيرانه كانت غير فعالة حيث يحتجزها ارتفاع البرج القديم و البطارية. كانت الواجهة الشرقية تضم ثلاث فتحات للمدفعية و الغربية أربعة فتحات أما الجهة الشمالية و المطلة على البحر تضم عشر فتحات، و فتحتان تعلوان المدخل الواقع في الجهة الجنوبية، و كان جزء من إحدى هذه الفتحات يحتله المرقب و هو عبارة عن برج صغير ذو شكل مستطيل يعلوه قبة صغيرة وكان مخصص للحراسة، كما كانت هذه الجهة المطلة على البر مدعمة بخمسة عشر مزغلا للرماية كان يشرف على البرج حامية عسكرية تتكون من خمسة عشر فردا تتغير كل سنة في فصل الربيع (Devoulx 2003: 140-141) و يعد هذا البرج آخر السلسلة الدفاعية الموجهة للناحية الغربية من خليج المدينة إلى جانب برج سيدي فرج.

وصف بوتان هذا البرج على أنه ذو شكل حدوة الفرس ليس به فتحات سفلية، يمكن اقتحامه من جهة البر حيث ليس به سوى فتحتين للمدفعية، بينما يبلغ مجموعها الكلي في البرج اثني عشرة فتحة (Boutin 1808: No 11). لكن ما لاحظته الباحثة بالموقع لا يتناسب مع وصف ورسم بوتان ذلك أن التقوس بأحد أضلاعه طفيف لا يجعل من شكله حدوة فرس.

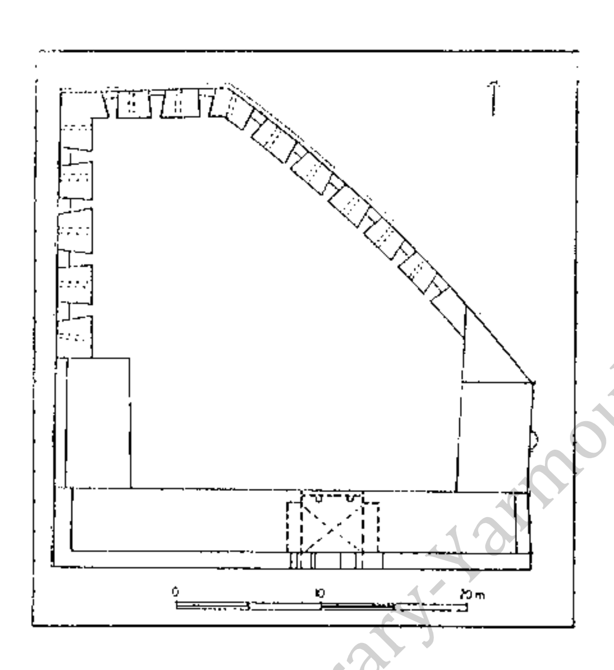
3. 5. الوصف الخارجي للبرج:

يقع البرج على بعد 7 كلم شمال غرب مدينة الجزائر و كان يحرسها ويدعم البرج القديم من هذه الجهة و يصد الهجمات عنها. و كما سبق ذكره في اللوح التأسيسي فقد بناه آخر حاكم للمدينة الداي حسين باشا سنة 1823-1824م بعدما بدأت التهديدات الفرنسية تتراء لشن حملة على المدينة.

يسكن الحصن اليوم عدة عائلات كل واحدة اتخذت منه قسما و أدخلت عليه تعديلات كثيرة كما سدت و استحدثت به فتحات و مرافق حسب الحاجة إليها، و عليه فقد تخلل الحصن عدة تغييرات على فترتين أيام الاحتلال الفرنسي و بعد الاستقلال و إلى يومنا هذا.

يتخذ البرج شكل مضلع غير متساوي الأضلاع مع تقوس في الواجهة الشمالية و الشمالية الغربية وقد تحكمت تضاريس الهضبة التي بني عليها في هذا الشكل. أحدث التقوس زاوية منفرجة

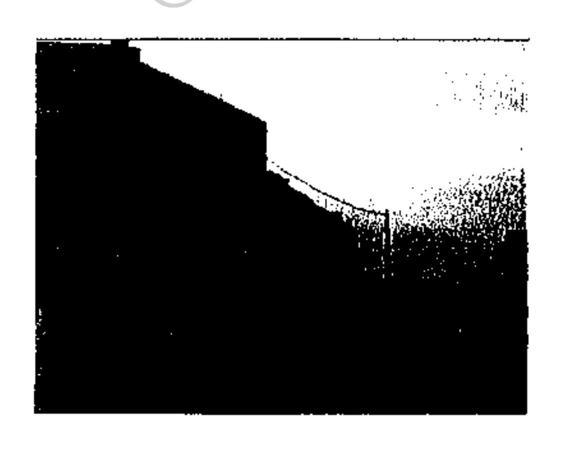
فأصبح البرج ذو شكل خماسي غير متساوي الأضلاع ربما السبب الذي جعل بوتان يرسمه بقوس كاملة (مخطط رقم9).

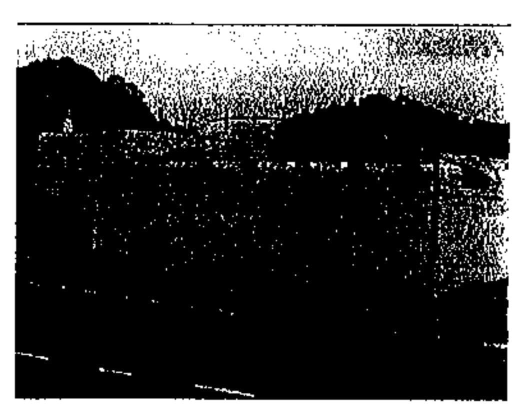


مخطط رقم 9: مسقط علوي للبرج

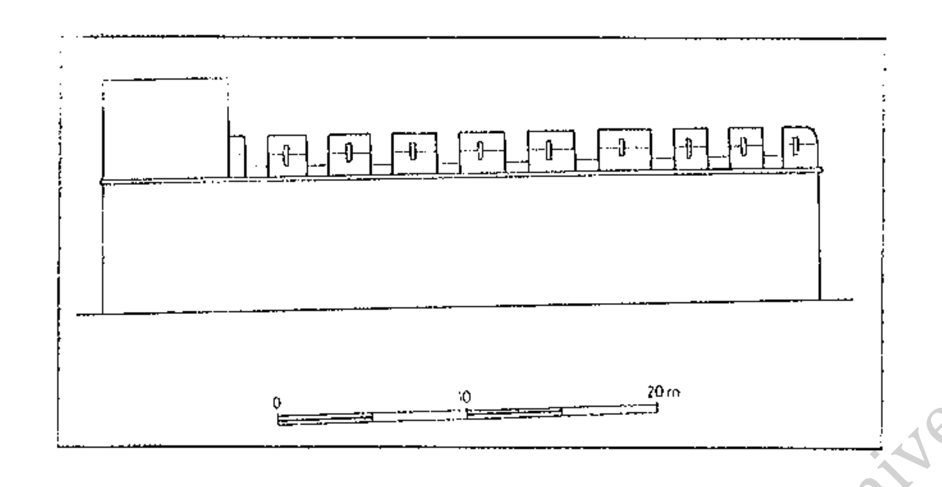
3. 5. 1. الواجهة الشمالية:

طول الواجهة الشمالية المطلة على البحر 29.15م يعلوها مجموعة من فتحات المدفعية أغلبها سدت لكن آثارها بادية بوضوح يبلغ عدد الظاهرة منها ستة فتحات يتخللها ستة فتحات للرماية أيضا. بني على امتداد هذه الواجهة مساكن أخذت جزء كبيرا من السطح بما فيها الزاوية الشمالية الشرقية التي أزيلت منها الفتحات كليا و لم يبق لها أثر (صورة رقم 52 + مخطط رقم 10).





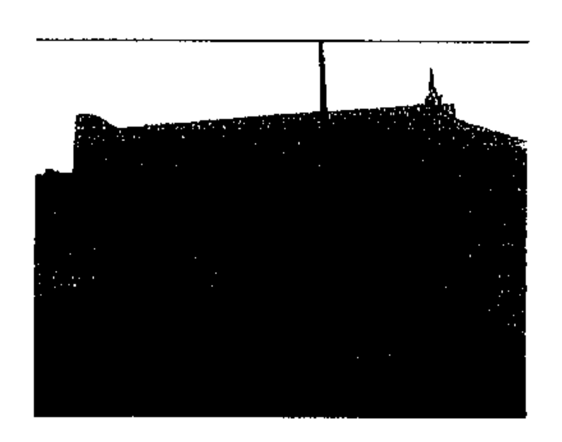
صورة رقم 52: الواجهة الشمالية المطلة على البحر

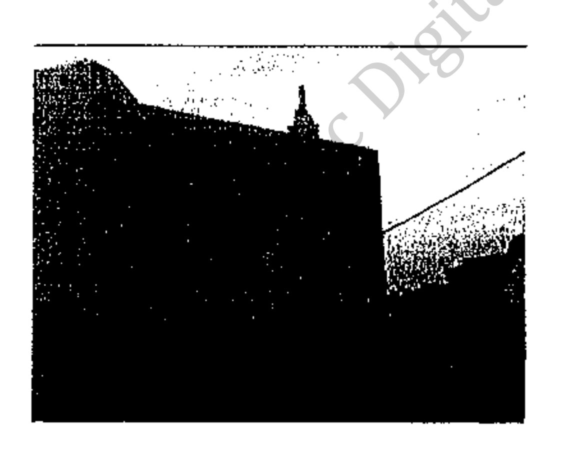


مخطط رقم 10: الواجهة الشمالية الغربية

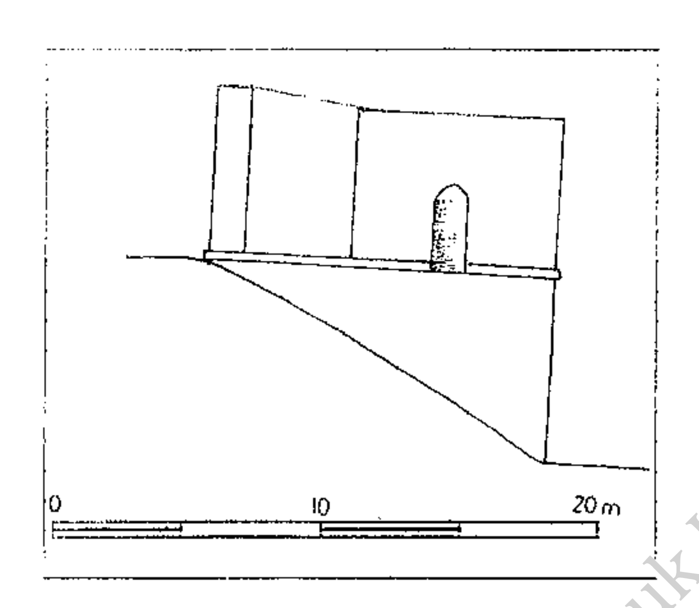
3. 5. 2. الواجهة الشرقية:

تنكسر الواجهة الشمالية بزاوية منفرجة مشكلة الواجهة الشرقية التي يبلغ طولها 12.25م لتحدث شكل تقوس بسيط. لم تسلم هذه الواجهة من التغييرات أيضا و قد أزيلت منها كل الفتحات نلاحظ بروز تجويفة المحراب إلى الخارج تعلوه قبيبة صغيرة و كأنها مخروطية الشكل، كما يوجد ببدنه نافذة صغيرة مستطيلة الشكل ربما استحدثت عندما حول المصلى إلى حمام حسب شهادات السكان (صورة رقم 53 + مخطط رقم 11).





صورة رقم 53: الواجهة الشرقية تضم المحراب



مخطط رقم 11: الواجهة الشرقية

و ذكر خلاصي أنه لم يتم العثور في المباني العسكرية إلا على أربعة مصليات لا تزال تضم محرابها الأول ببرج تامنتفوست و الثاني في جامع البحرية و لا يزالان قائمان و هما خماسيا الأضلاع تعلوهما قبيبة خماسية الأخاديد و جاءا خاليان من كل زخرفة. و الثالث بقصر الداي شوهت معالمه كليا بتحويله إلى مكاتب إدارية و الرابع ببرج مرسى الذبان (خلاصي 1991: 139) أو رأس بيسكاد و الذي تقوم الباحثة بدراسته.

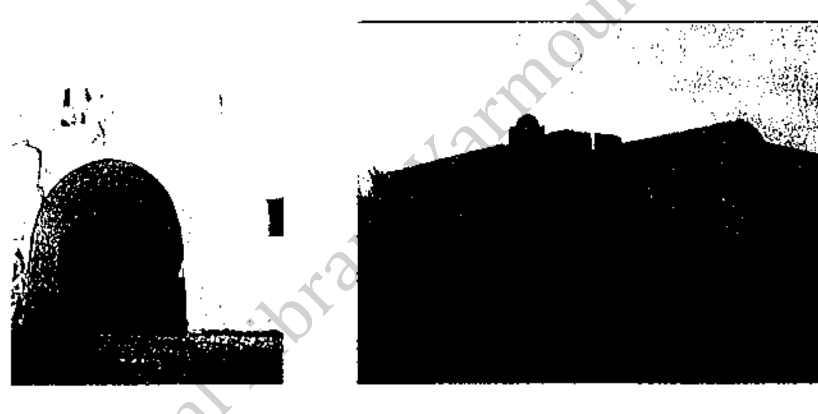
يعلو جانبي المحراب نافذتين أخريين شكلهما مستطيل أيضا و الظاهر أنهما أصليتان خصصتا للمراقبة كما فتحت بهذه الواجهة نوافذ كبيرة للإنارة و تهوية الأقسام المستحدثة، و تشير الباحثة أنه لم يتسن لها رؤية الأقسام من الداخل لأن صاحب البيت كان غائبا.

3. 5. 3. الواجهة الجنوبية:

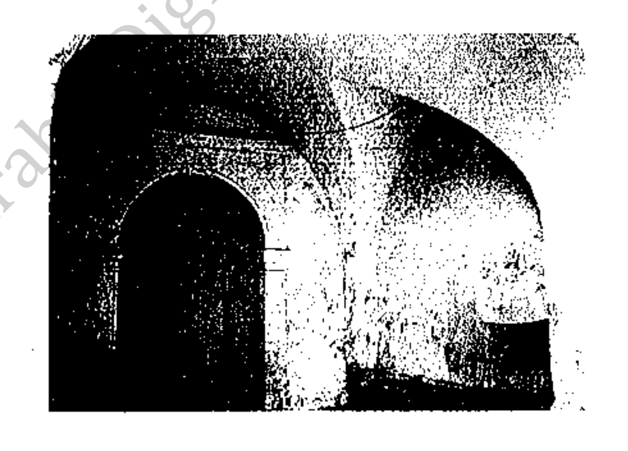
يبلغ طول هذه الواجهة 32.55م، ينفتح بها المدخل الرئيسي و الوحيد بالبرج، يتخللها عدة عناصر. فعند بداية الواجهة إلى بداية فتحة الباب يكون طوّل الجدار 11.35م يتخلله ثلاثة فتحات صغيرة مستطيلة الشكل الأغلب أنها ترجع لعهد الاستعمار، استحدثت لإنارة مرافق البرج الواقعة في الطابق السفلي و هي مختلفة المقاسات، يلي بعدها الجزء الذي تقع به فتحة المدخل و طولها 4.20م، و جاء عبارة عن مدخل يعلوه عقد نصف دائري يؤدي إلى سقيفة مغطاة بقبو ذو عقود متقاطعة، و على جانبيها دكتان يعلوهما عقدان مدببان يستمران ليتقاطعا مع العقود.

كانت هذه السقيفة و الدكتان مخصصة لجلوس الجنود و حراسة المدخل و الواجهة الجنوبية. يعلو المدخل المؤدي إلى السقيفة فتحتان للمدفعية فقط و على يسار الفتحة الثانية بني مرقب صغير أو مكان للحراسة و المراقبة مستطيل الشكل يتخلل جداره الشرقي و الجنوبي فتحتان مستطيلتا الشكل للرماية يعلو المرقب قبة صغيرة و هو نفس المرقب الذي وجدته الباحثة في البطارية رقم 2 و 5 من قلعة الداي (صورة رقم 54 + مخطط رقم 12).

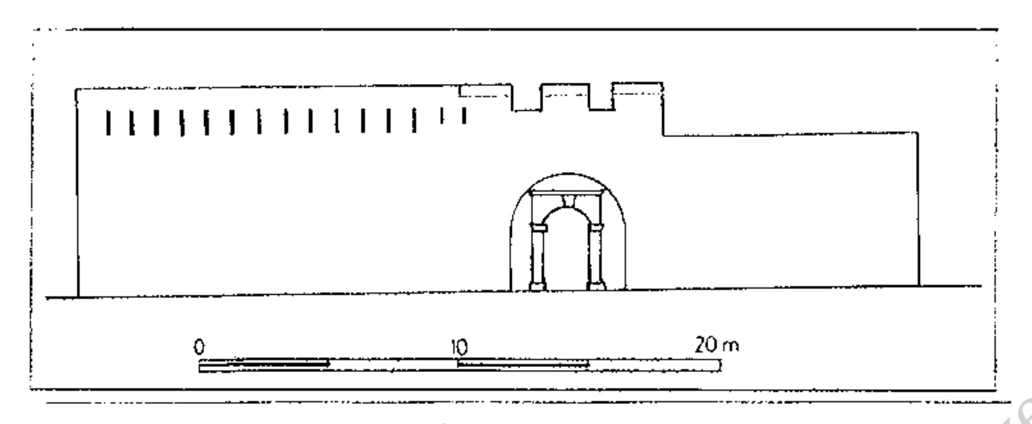
تظهر الفتحات من الخارج كما ألفناه في العمارة الدفاعية بكونها واسعة من الخارج و ضيقة من الداخل توفر بذلك الحماية للمدافعين عن البرج بحيث يكونون في مأمن من ضربات العدو.



صورة رقم **54. 1:** الواجهة الجنوبية صورة رقم **54. 2:** المرقب الذي يعلو المدخل

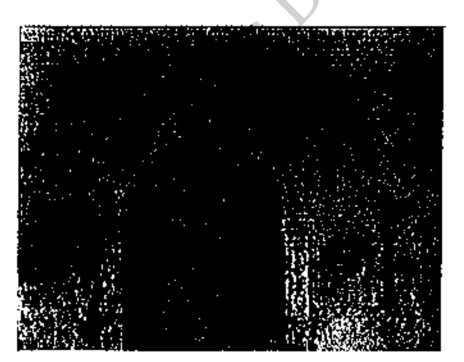


صورة رقم **54. 3:** السقيفة ذات العقود المتقاطعة

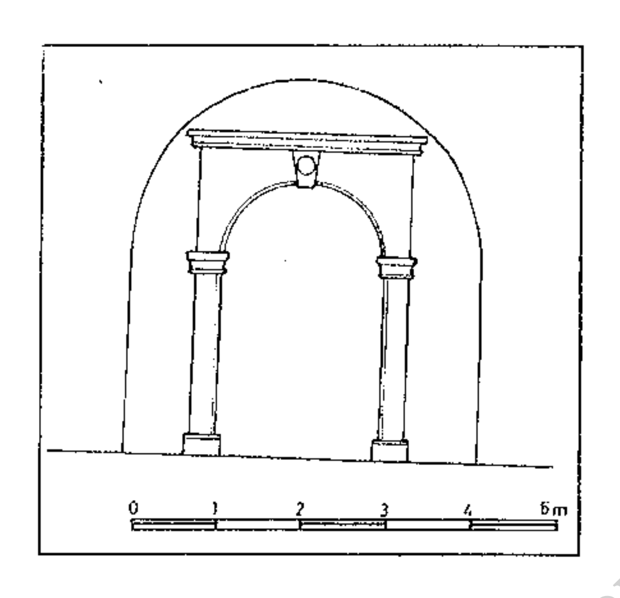


مخطط رقم 12: الواجهة الأمامية للبرج

يتم الدخول إلى البرج عبر باب خشبي عرضه 1.85م، و هو باب كبير ينفتح به باب أصغر حجما و أقل ارتفاعا، و هو النظام الذي كان شائع في بوابات الأبراج و الحصون الدفاعية و ربما لم تكن الباب تنفتح كاملة إلا عند إدخال المدافع و المؤونة العسكرية و يعد هذا النظام عنصرا دفاعيا بحد ذاته. يحيط بالباب إطار حجري يتمثل في عمودين على جانبي الباب و هما مستطيلي الشكل يعلوهما تاج بسيط خال من كل زخرفة و يقوم على هذان العمودان عقد نصف دائري يعلوه إفريز من الحجر. زين جانبي العقد بزخارف نباتية تتمثل في زهرات سداسية الأوراق كل ورقة بها فصان و هي محفورة حفرا غائرا داخل دائرة، كما يتوسط مفتاح العقد زهرة أخرى نفذت بنفس الطريقة أي أنها محفورة داخل دائرة و بها ستة فصوص، أسفل مفتاح العقد يوجد زهرة أخرى ذو عشرة فصوص (صور رقم 55 + مخطط رقم 13).

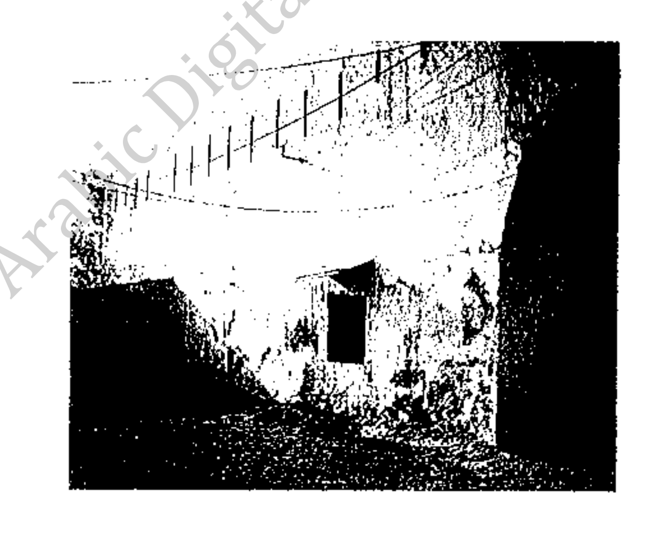




صورة رقم 55: باب البرج و عناصره



مخطط رقم 13: واجهة تفصيلية للمدخل

يلي بعد هذا الجزء ما تبقى من جدار الواجهة الجنوبية يبلغ طوله 16.60م استحدثت في جزئه السفلي بالقرب من المدخل نافذة كبيرة للإنارة و التهوية و أضيفت عند قدم الجدران أبنية فوضوية لا تمد بصلة للبرج، يعلو الجزء العلوي منه خمسة عشرة فتحة للرماية فقط و لا وجود لفتحات للمدفعية (صورة رقم 56).

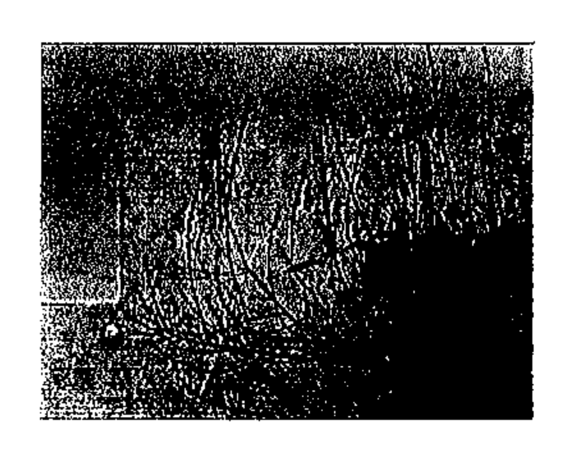
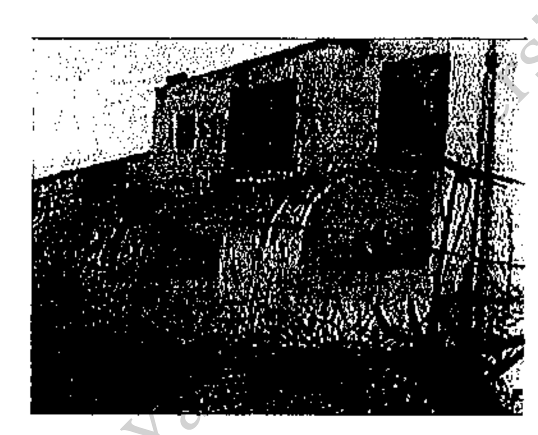


صورة رقم 56: فتحات الرماية و الأجزاء المستحدثة بالواجهة الجنوبية

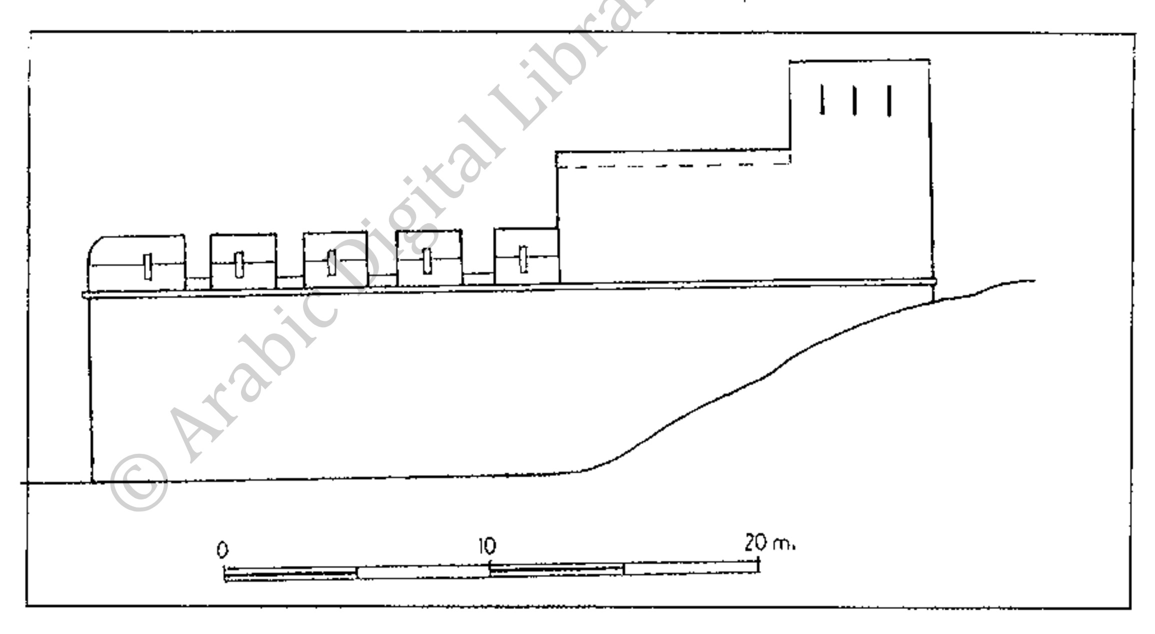
3. 5. 4. الواجهة الغربية:

يبلغ طولها 31.35م يظهر و كأنها على مستويين، المستوى الأول عبارة عن جدار أعلى السطح يضم ثلاثة فتحات للرماية و هي بنفس نظام الفتحات السابقة. المستوى الثاني و هو مستوى

السطح تعرض لتغييرات كثيرة و سدت به الفتحات و أضيفت مكانها مباني و غرف سكنية و لا يظهر منها سوى أربع فتحات تتخللها أربعة للرماية و هي مائلة إلى الخارج بحيث تشكل هدفا أكيدا إذا ما اقترب العدو بينما تنحدر قذائف هذا الأخير و تسقط بعدما تكون قد فقدت جزء من قوتها بسبب الاصطدام (صورة رقم 57 + مخطط رقم 14).

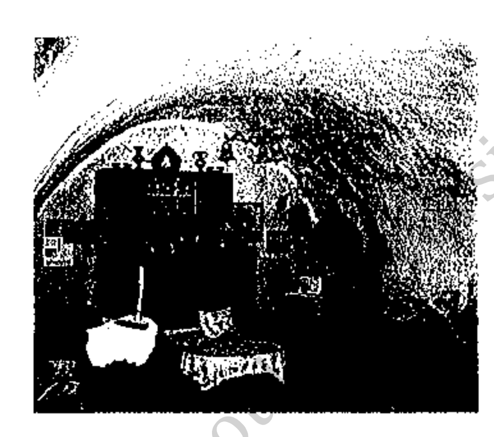
صورة رقم 57: الأجزاء العلوية من الواجهة الغربية

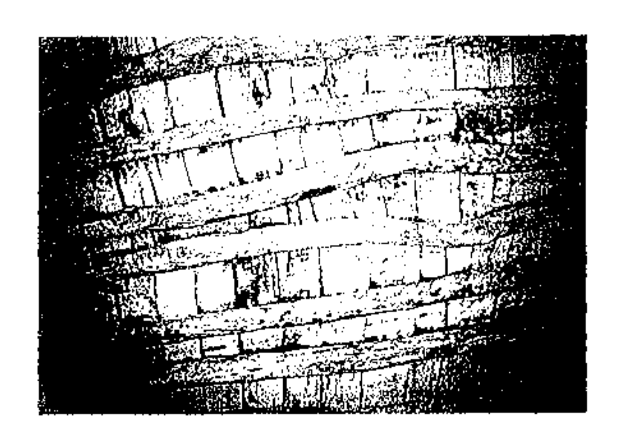


مخطط رقم 14: الواجهة الغربية

ينفتح في هذه الواجهة مدخل يؤدي إلى سرداب أو قبو الأغلب أنه مخزن العتاد الحربي. شكل السرداب المقابل مباشرة للمدخل مستطيل يعلوه سقف خشبي تصطف به عوارض خشبية مستطيلة الشكل مرة موضوعة بطريقة عمودية و أخرى أسطوانية وضعت بطريقة أفقية. على جداره الأيمن فتحت دكة ربما كانت مخصصة لوضع الأسلحة، يستمر هذا الرواق لكن يصبح مظلما مما تعذر

على الباحثة رؤية طريقة بناءه و تسقيفه، و الأغلب أنه يؤدي إلى الأجزاء الأخرى من البرج (صورة رقم 58).





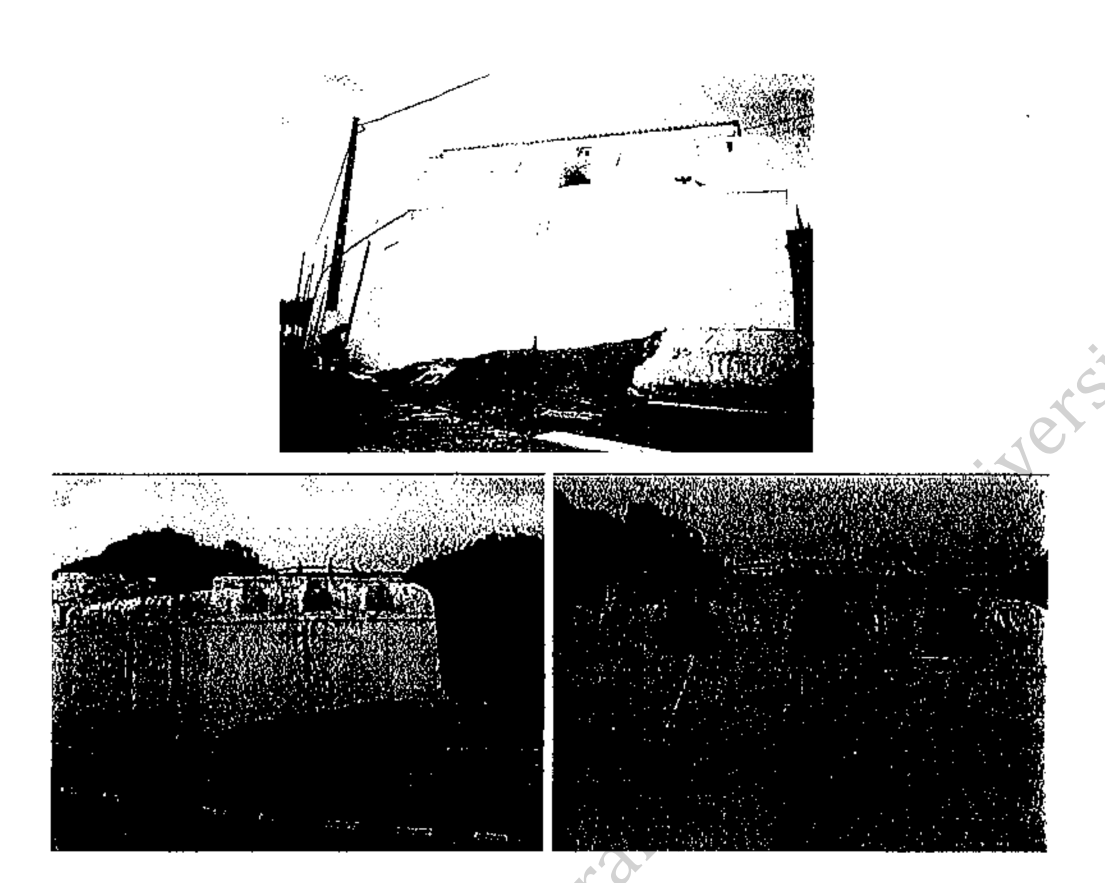
صورة رقم 58: الجزء المقبى من المخزن و الجزء المسقف بالعوارض الخشبية

على يسار السرداب أو الرواق ينفتح قسم آخر مستطيل الشكل يعلو المدخل عقد نصف دائري و يستمر ليشكل السقف الذي جاء عبارة عن قبو نصف برميلي.

الغريب في هذا المخزن أن تنفتح بابه إلى خارج البرج و هذا يدل على أنه مستحدث فعلا، لأنه كما عهدنا في العمارة العسكرية، تقلل الفتحات إلى الخارج خشية التسلل عبرها و تقتصر غالبا على باب واحدة تكون جيدة التحصين و الحراسة، و تدعيما لذلك تنشأ المرافق التي تحتاجها الحامية العسكرية داخل البرج من مطعم و مساكن و صهاريج للمياه و المرافق الصحية و المصلى.

3. 5. 5. الواجهة الشمالية الغربية:

تمثل انكسار الواجهة الشمالية بزاوية منفرجة باتجاه الغرب لتحدث الواجهة الشمالية الغربية التي أحدثت بدورها ضلعا خامسا يبلغ طوله 1.60م به ثلاث فتحات للمدفعية سدت و ثلاث أخرى للرماية يعلو الواجهة مباني سكنية أيضا (صورة رقم 59).



صورة رقم 59: الواجهة الشمالية الغربية و فتحات المدفعية

بالرغم أن هذا البرج حديث البناء مقارنة بالمباني الدفاعية الموجودة في مدينة الجزائر و أنه يمثل أواخر فترة التواجد العثماني إلا أنه يعطينا نماذج قيمة من العناصر المعمارية الواضحة المعالم و التي لم نجدها في البعض الآخر بالرغم من التغييرات و الإضافات التي شوهت معالمه خاصة أقسامه الداخلية و مرافقه و واجهاته.

3. 6. الوصف الداخلي للبرج:

يتم الدخول إلى البرج عبر المدخل الوحيد الواقع في الواجهة الجنوبية و قد احتفظ بمعالم المدخل و الباب مقارنة مع التغييرات التي أدخلت على البرج.

بعد الدخول أول ما لاحظته الباحثة هو التحول الكبير الذي أدخل على البرج و أجزائه الداخلية، فقد خصص الطابق الأرضي لعدة مساكن ، بعدها وعبر ممر ضيق يفضي إلى السطح الذي قسمت أجزائه أيضا خاصة الشمالية و الشمالية الغربية و الجنوبية لمساكن أخرى، و سدت فتحات المدفعية التي كانت آثارها واضحة من الخارج و الداخل.

حسب خلاصي فان البرج كان يتكون من مخزن للبارود بالطابق السفلي يضم قاعة كبيرة مقببة تمتد من الشمال إلى الجنوب الشيء الذي يؤكد احتمال الباحثة حول المخزن الذي وجدناه في الواجهة الغربية. يتم ربطه بالطابق الأول بواسطة سلم. ثم يوجد بالجزء الشرقي من الطابق الأول مسجد له محراب مضلع تعلوه نصف قبة نجمية الشكل، تلي المسجد قاعة في الناحية الشمالية أما الناحية الغربية فيها السقيفة التي يكونها المدخل الرئيسي، و بالجهة الشمالية الغربية يوجد ثلاث قاعات مستطيلة الشكل تحيط بفناء يربط الطابق الأول بواسطة سلم ضيق بالسطح الذي يوجد به فتحات المدفعية و البنادق (خلاصي 1991: 126).

3. 6. 1. فتحات المدفعية:

سدت كل الفتحات من الداخل من طرف السكان خاصة المطلة على البحر، يبلغ قياساتها: 1.10م x 0.80م، و يقدر ارتفاعها عن مستوى أرضية السطح بمترين و تبلغ المسافة بين الفتحة و الأخرى 2.35م، يتوسط كل فتحتين للمدفعية فتحة للبنادق شكلها مستطيل أبعادها: 0.35م x 0.20م جاءت متسعة من الخارج و ضيقة من الداخل. تم العثور في إحدى زوايا السطح على مدفع يعود إلى الفترة العثمانية و هو من العيار المتوسط و قد تصدت أجزاء منه نتيجة الإهمال (صورة رقم 59-60).



صورة رقم 60: فتحات المدفعية و الرماية و المدفع

لم تتمكن الباحثة من دخول أي من هذه المساكن للتأكد من طريقة البناء و نوع العناصر المعمارية خاصة المصلى الذي لا يزال محرابه واضحا من الخارج.

3. 7. مواد و تقنيات البناء:

لم تظهر مواد البناء عند زيارة الباحثة للموقع و ذلك راجع إلى الترميمات و التغييرات التي أدخلت على البرج كما طليت جدرانه بعدة طبقات من الدهان بعد تلبيسه بالاسمنت. لكن المؤكد أنه بني من الحجارة الكبيرة المصقولة كأغلب المباني الدفاعية بالمدينة، بالإضافة لقرب موقعه من مقلع الحجارة برأس بيسكاد و الذي كانت تأخذ منه الحجارة للبناء في كل أنحاء المدينة، كما كان يستخرج منه أحسن أنواع الاسمنت، من جهة أخرى ذكر كلاين أن حصن الإمبراطور و قلعة الداي و أسوار المدينة هي الوحيدة التي كانت مبنية من الآجر المصنوع من الطين الأزرق المتوفر بالمدينة(Klein 1912,vol 3:9).

أما تقنية البناء فتكون مثل برج تامنتفوست و برج الكيفان حيث يكون رصف الحجارة بطريقة أفقية ترتكز على بعضها بالثقل و يربطها طبقة رقيقة من الملاط.

3. 8. عناصر البرج الدفاعية:

3. 8. 1. المدخل:

يعد الباب عنصرا فعالا في العمارة العسكرية لذلك اهتم المشرفون على بناء الحصون والأبراج الدقة في البناء والمناعة و التحصين. وبني مدخل برج رأس بيسكاد الجديد تتقدمه سقيفة لحراسة المدخل و الواجهة الجنوبية للبرج، الباب هي الأخرى عنصر دفاعي بحيث بنيت على قسمين باب كبيرة تغلق و لا تفتح إلا للضرورة يتوسطها باب صغيرة الحجم يدخل الجنود عبرها تفتح من الداخل و هي من الخشب. لم يوجد بالبرج إلا مدخل واحد وتلك إستراتيجية مستعملة بكثرة حيث تقلص الفتحات و المنافذ المؤدية إلى الداخل تحسبا و تحكما في الأوضاع (انظر صور المدخل).

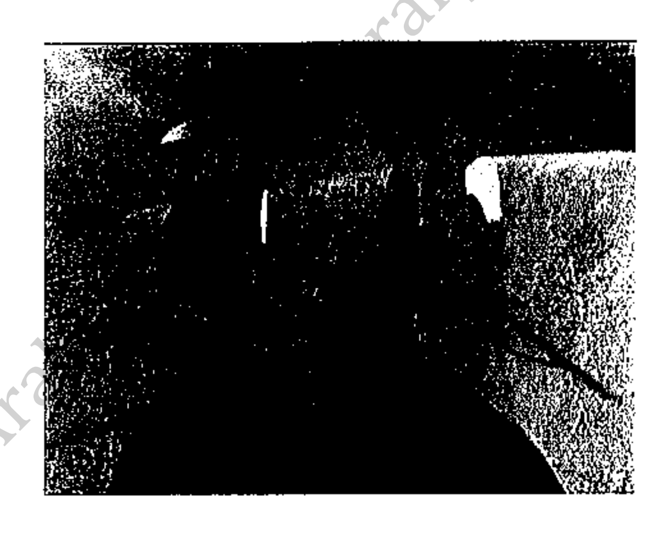
3. 8. 2. برج المراقبة:

غالبا ما كانت تزود أعلى الأبراج بمراقب أو أبراج صغيرة مزودة ببعض الفتحات أو بفتحة واحدة تخصص للمراقبة يغطيها قبة صغيرة، و قد وجد أعلى مدخل البرج، و قد وجد مثيله في البطارية الثانية و الخامسة بقلعة الداي (صورة رقم 61-62). و تعد مثل هذه المراقب عنصرا

دفاعيا فعالا حيث يراقب الحراس من خلالها تحركات العدو في محيط البرج، و منه تعطى إشارة الإنذار في حالة اقترابه من الأسوار أو الخندق أو الأبواب.



صورة رقم 61: المرقب بالبطارية رقم 2 بقلعة الداي



صورة رقم 62: مرقب برج مرسى الذبان الجديد

3. 8. 3. السطح:

و تدور فيه أهم الأحداث حيث من خلاله يتم السيطرة على الأوضاع سواء عند الحراسة أو الهجوم و الدفاع و عموما كان السطح يتخذ مساحة واسعة لتسهيل حركة الجنود به و تتوزع على واجهاته فتحات المدفعية و البنادق.

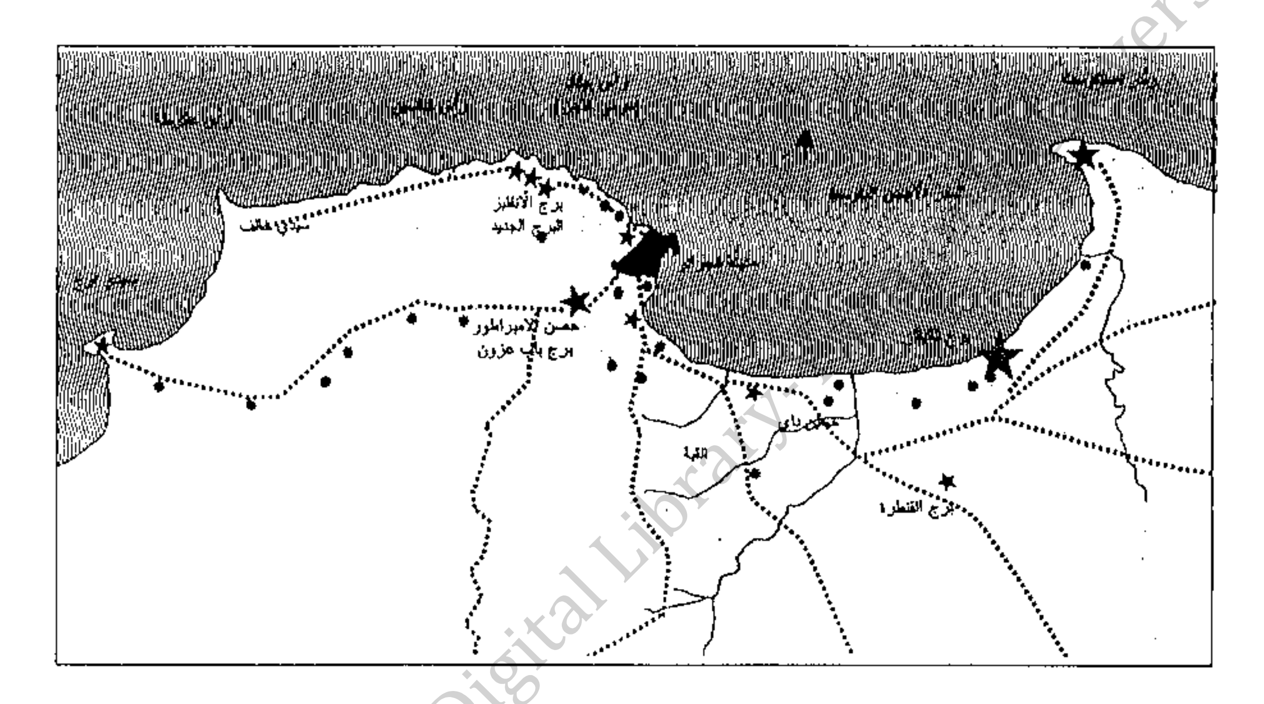
3. 8. 4. فتحات المدفعية و البنادق(انظر فتحات الواجهات):

تتوزع على مدى واجهات السطح حسب أهميتها فمن جهة البحر بلغ عددها العشرة، بينما حصنت الجهة الجنوبية بفتحات البنادق التي بلغ عددها خمسة عشر فتحة و تميزت كبقية الفتحات في الأبراج الأخرى بأنها ضيقة من الداخل لتجعل المدافع في مأمن، ثم تتسع إلى الخارج أما فتحات البنادق فكانت تتخلل فتحات المدفعية و يتمثل دورها في الرمي المستمر لإرهاق العدو و عدم إعطاءه فرصة الراحة من ضربات المدفع و البنادق، لذلك كان عدد المشرفين على المدفع الواحد يتراوح ما بين الثمانية و العشرة للتناوب في تعبئة المدفع و إطلاق القذيفة و كذا تحريكه و في أيام السلم الاعتناء بالمدافع و صيانتها (Devoulx 2003:139).

4. برج الكيفان و دوافع اختياره:

4. 1. أهمية الموقع:

يعد موقعه مهما جدا لتدعيم تحصينات الجهة الشرقية لخليج المدينة، و برج تامنتفوست (خريطة رقم 6).



خريطة رقم 6: موقع برج الكيفان بالنسبة للمدينة

4. 2. الأهمية الأثرية:

تتمثل أهميته الأثرية في كونه برج مازال قائما كامل العناصر برغم التغييرات التي أدخلت عليه، كما سهل النقش الذي يعلو مدخله التأكد من تاريخ بناءه و بانيه الشيء الذي أخطأ فيه المؤرخون عندما أرجعوه إلى سنة 1581م.

4. 3. الأهمية المعمارية:

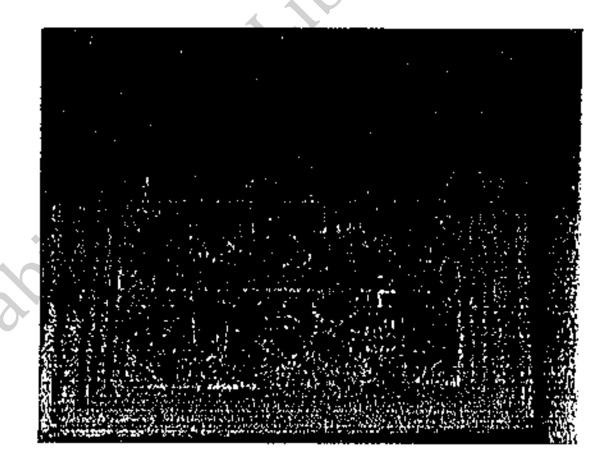
تتمثل أهميته المعمارية في احتفاظه بأجزاء مهمة من عناصره المعمارية و أنه أمدنا بطريقة البناء و التخطيط الداخلي و توزيع مرافقه.

4. 4. تاريخ بناء البرج:

يسمى أيضا برج الماء يقع على صخرة على شاطئ البحر في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة الجزائر على بعد 19 كلم بناه جعفر باشا سنة 1581م (Klein 1937: 82) لكن تدل الكتابة العربية فوق مدخل الباب على أنه بني خلال حكم محمد بن حسن باشا عام 1135هـ\1722-1723م.

نقشت الكتابة على لوح رخامي ارتفاعه 0.64م و عرضه 0.69م بخط النسخ الشرقي نفذت بطريقة الحفر الغائر و جاءت مكفتة بالرصاص وزعت على أربعة أسطر يحيط بكل واحد إطار نصها (Colin 1901: 97) (لوحة رقم 18):

الحمد لله وحده و الصلوات على رسوله
قد بني هذا الحصن في دولة محمد باشا
يسر الله مراده و بلغه كلما يشاء
سنة 1135

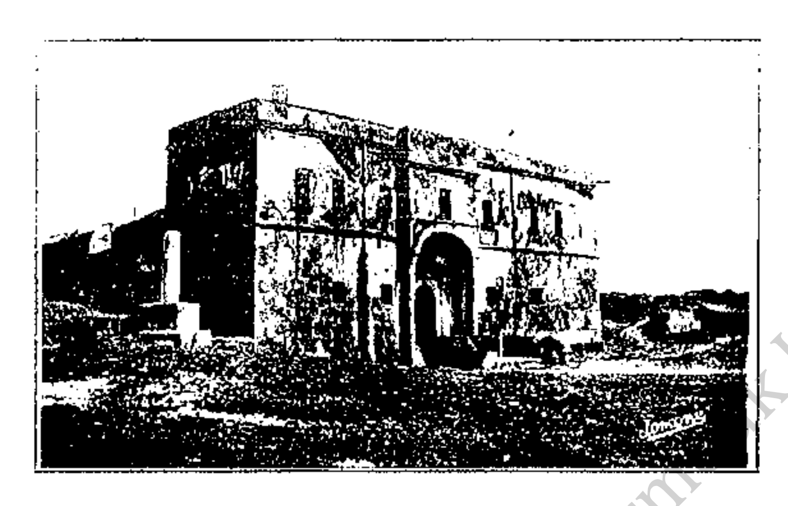


لوحة رقم 18: نص تأسيسي يعلو مدخل البرج

تصدى هذا البرج لسفينتين اسبانيتين سنة 1775م و رد على قصفها حتى تراجعت و غادرت المدينة.

بعد الاحتلال الفرنسي للمدينة اتخذته إدارة الجمارك مقرا لها سنة 1855 و أحدثت فيه تغييرات عدة أهمها المكاتب الواضحة في الجهة الجنوبية من البرج. أما اليوم فقد حول البرج إلى متحف محلي ببلدية برج الكيفان. كان البرج مسلح بأربعة مدافع من جهة البحر و واحد من جهة اليابسة و ثلاثة مدافع من الجهتين الشرقية و الغربية، و كان بذلك يحمي الشاطئ الواقع في عمق الخليج و

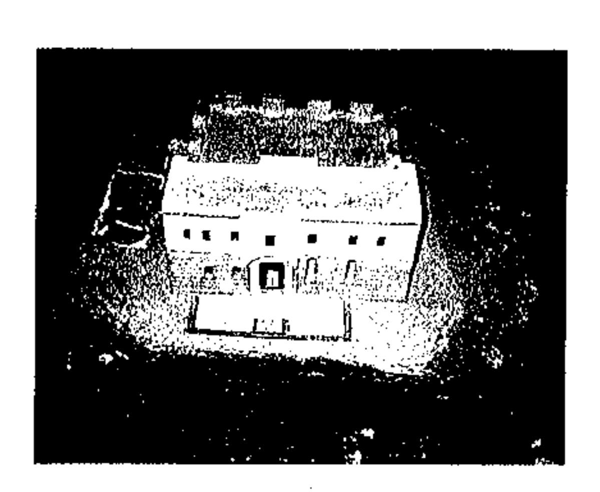
يساند ضربات برج تامنتفوست الواقع باتجاه أكثر نحو الشرق (Klein 1937: 82) (صورة رقم 63).

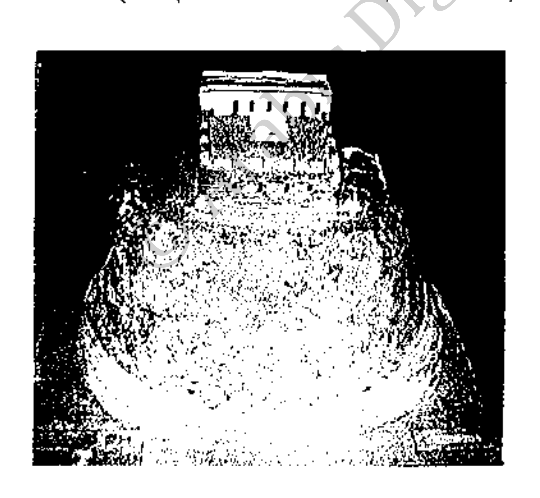


صورة رقم 63: برج الكيفان قبل عملية الترميم

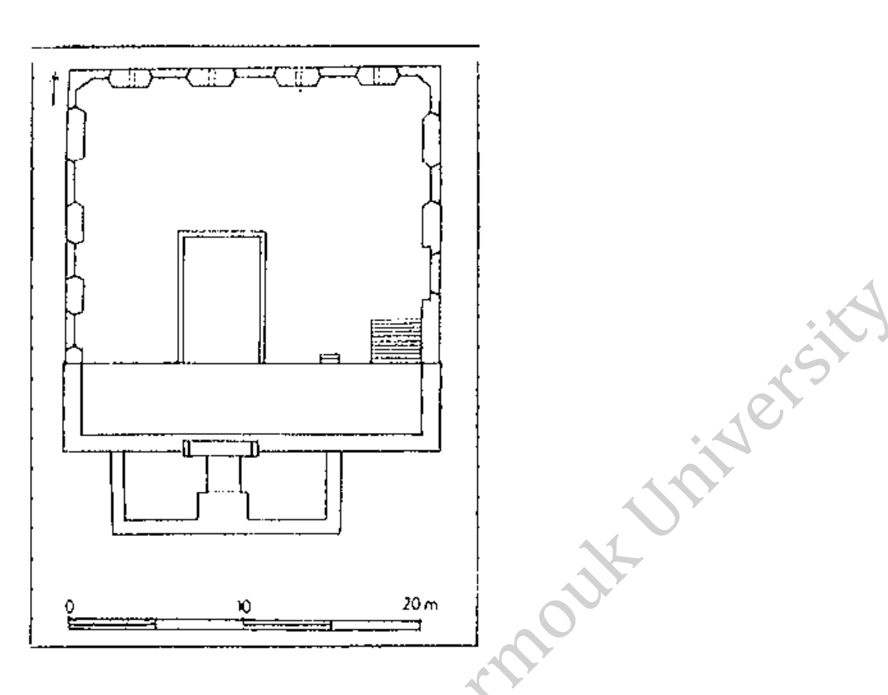
4. 5. الوصف الخارجي للبرج:

يشكل البرج مربع غير منتظم، تضم واجهته الجنوبية المدخل الوحيد الذي يتم العبور إليه عبر جسر، بنيت أسواره من الحجارة المصقولة و يظهر أنه من طابقين يفصل بينهما إفريز أسطواني الشكل، يعلو السطح الجزء المضاف في عهد الاستعمار (صورة رقم 64 + مخطط رقم 15).





صورة رقم 64: مجسم لبرج الكيفان



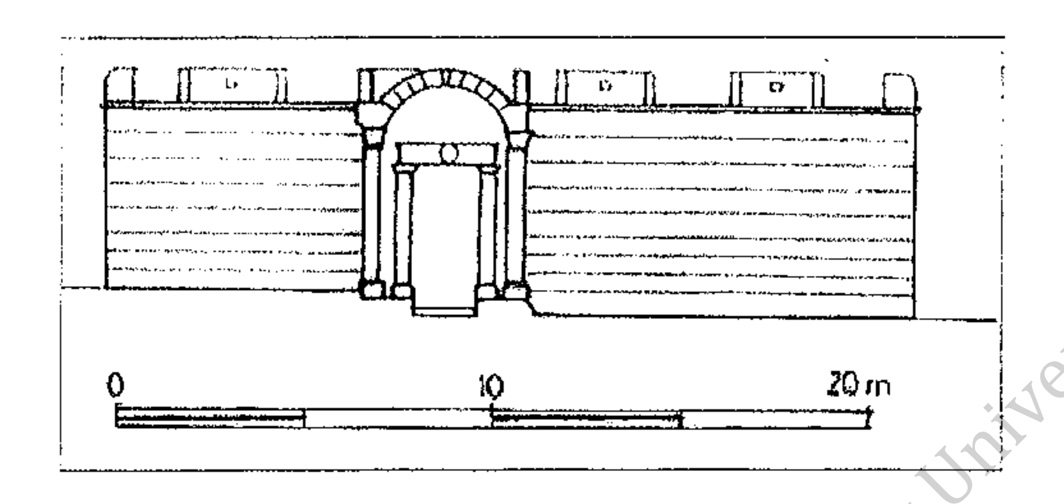
مخطط رقم 15: مسقط علوي لبرج الكيفان

4. 5. 1. الواجهة الجنوبية:

تطل على جهة البر طولها 21.25م و يتقدمها خندق، يتخللها فتحة المدخل التي يبلغ طولها 3.30م يتم العبور إليها عبر جسر كان في السابق متحرك لكنه اليوم ثابت طوله 4.40م و عرضه 1.80م. فتحت نافذتين على طرفي الباب غير متساوية القياسات و تعود لفترة الاستعمار. يعلو الإفريز البناء المستحدث في الطابق العلوي و هو مستطيل الشكل يمتد على طول الواجهة تتخلله سبعة نوافذ مستطيلة الشكل واحدة منها تتوسط الجدار الذي يعلو الباب مباشرة أغلقت هذه النوافذ بسياج من الحديد (صورة رقم 65 + مخطط رقم 16).



صورة رقم 65: الواجهة الأمامية لبرج الكيفان



مخطط رقم 16: الواجهة الأمامية يتوسطها المدخل

4. 5. 2. الخندق:

يتقدم مدخل البرج خندق طوله 10م و عرضه 1.70م و عمقه 2.10م و هو مبني بالآجر و الاسمنت يقوم عليه الجسر الخشبي الذي يبلغ طوله 4.40م و عرضه 1م و كلاهما يظهر عليهما التغيير و الاستحداث من حيث مادة و طريقة البناء بحيث أصبح الجسر ثابت بينما هو في الأصل متحرك يرفع عند الخطر (صورة رقم 66).





صورة رقم 66: الخندق و الجسر المؤدي إلى المدخل

حفر الخندق من الجهة الجنوبية فقط ذلك أن الواجهات الأخرى كانت على الصخر المنحدر إلى البحر و يصعب تسلله بينما جهة البر كانت مكشوفة نوعا ما وليس بها عدد الفتحات كالواجهات الأخرى لذلك دعمت بالخندق و الجسر المتحرك.

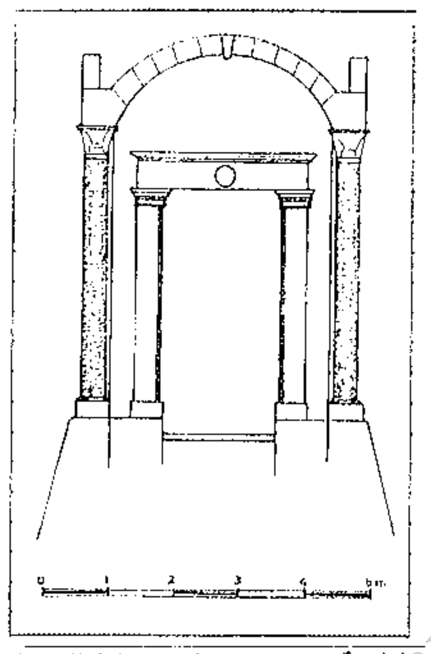
4. 5. 3. المدخل:

جاء المدخل يتوسط الواجهة الجنوبية تقريبا يكتنفه عمودان حجريان أسطوانيان الشكل يرتكزان على قاعدة مربعة، قطرها 35سم و يعلوهما تاج بسيط خال من الزخارف. يعلو العمودان عقد نصف دائري و المسافة بينهما 2.20م، تلي بعدها الباب الخشبية الكبيرة قياسها 3.20 x2.15م المخصصة لإدخال المدافع و العدة الحربية تتخللها باب أصغر لدخول الأشخاص.

يكتنف الباب على جانبيها عمودان مستطيلا الشكل يرتكزان على قاعدة مربعة يعلوهما تاجان بسيطان يتكونان من عدة طبقات يربطهما إفريز تتوسطه زخرفة نباتية (صورة رقم 67 + مخطط رقم 17)، يعلو الإفريز مباشرة اللوح التأسيسي الذي يؤرخ البرج.



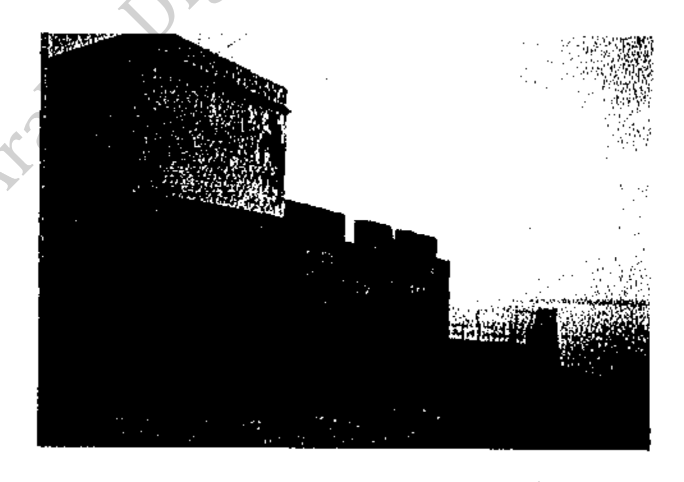
صورة رقم **67:** العناصر المعمارية للمدخل



مخطط رقم 17: واجهة تفصيلية للمدخل

4. 5. 4. الواجهة الشرقية:

يبلغ طولها 21.35م و هي تطل على الشاطئ بها فتحتين للمدفعية و فتحة ثالثة توجد عند التقاء الواجهة الشرقية بالشمالية، أما بقية جدارها باتجاه الواجهة الجنوبية فقد بني عليه الغرف المضافة أعلى السطح كما فتحت نافذة في الطابق السفلي شكلها مستطيل (صورة رقم 68).



صورة رقم 68: الواجهة الشرقية المطلة على الشاطئ

5. 5. 5. الواجهة الغربية:

يبلغ طولها 21.15م تطل هي الأخرى على البحر يتخللها ثلاث فتحات المدفعية من نفس الشكل بينما تنفتح فتحة أخرى عند التقاء الواجهة الغربية بالشمالية و هي ذات شكل مختلف. عند الزاوية

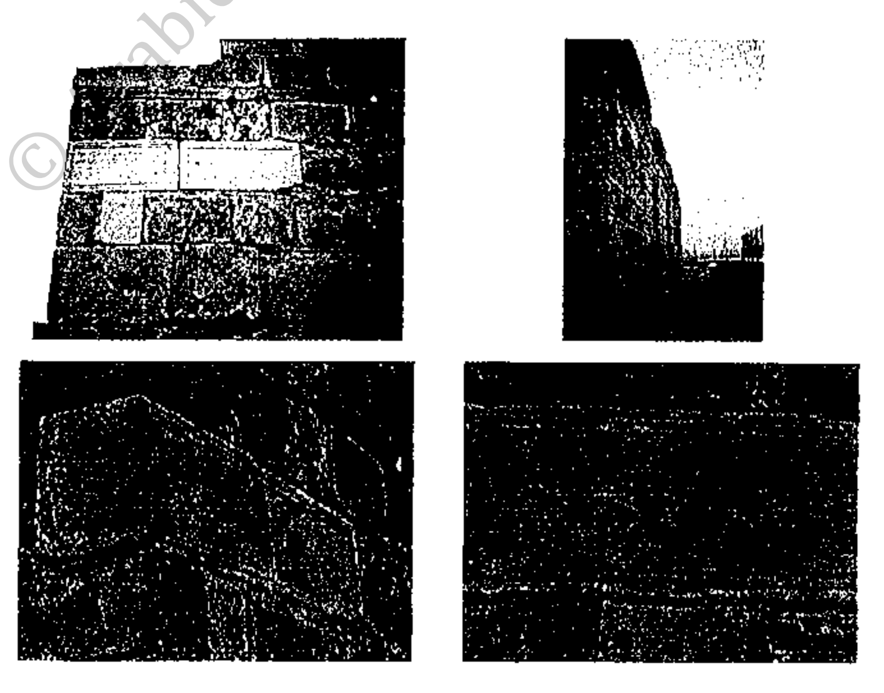
الجنوبية الغربية يمتد البناء المستحدث مما أدى على الأغلب إلى سد فتحات أخرى، يتخلل جدار هذه الواجهة ثلاث نوافذ اثنان مستطيلتان و أخرى مربعة تقريبا (صورة رقم 69).




صورة رقم **69:** الواجهة الغربية

4. 5. 6. الواجهة الشمالية:

يبلغ طولها 21.20م و هي مطلة مباشرة على البحر يتخللها ثلاث فتحات للمدفعية و أخرى التي سبق و أشرت لها عند التقاء الواجهتين الشرقية بالشمالية، يلاحظ في هذه الواجهة استخدام الحجارة من المواقع الرومانية حيث منها ما هو مكتوب باللغة اللاتينية، فتحت أربعة نوافذ بهذه الواجهة مستطيلة و مربعة الشكل، و يلاحظ أنه أسفل كل فتحة للمدفعية يوجد فتحات صغيرة مخصصة لتسريب مياه الأمطار حتى لا تتراكم في السطح و الأمر كذلك بالنسبة للواجهات الأخرى ما عدا الجنوبية (صورة رقم 70).

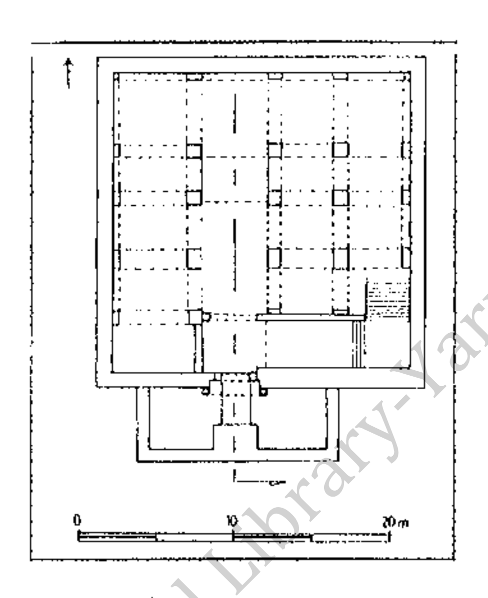


صورة رقم 70: حجارة من المواقع الرومانية بالواجهة الشمالية

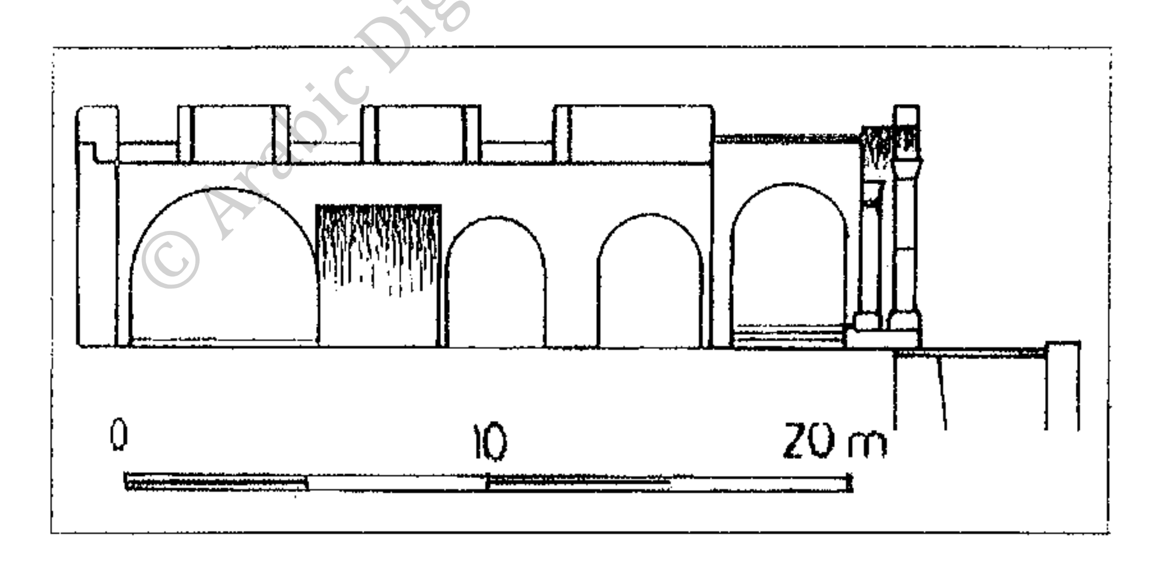
4. 6. الوصف الداخلي:

4. 6. 1. الطابق السفلي:

يضم مجموعة مرافق البرج المتمثلة في الصحن و الغرف و المخزن و الصهريج قبل ردمه (مخطط رقم 18-19).



مخطط رقم 18: مقطع أفقي لبرج الكيفان



مخطط رقم 19: المقطع أ- أ

4. 6. 2. السقيفة:

بعد عبور الجسر الخشبي و الباب الخشبية نجد السقيفة و هي مستطيلة الشكل طول ضلعها 3.13م و عرضها 2.90م هي مغطاة بسقف مقبى، تؤدي إلى ثلاثة اتجاهات: الأول مباشرة على يمين المدخل باتجاه الرواق المؤدي إلى السطح، الثاني باتجاه اليسار إلى غرفة الحراس و الثالث مباشرة من المدخل إلى صحن البرج جاءت أرضية السقيفة مرصوفة بقطع آجريه سداسية ذات اللون الأحمر.

4. 6. 3. غرفة الحراس:

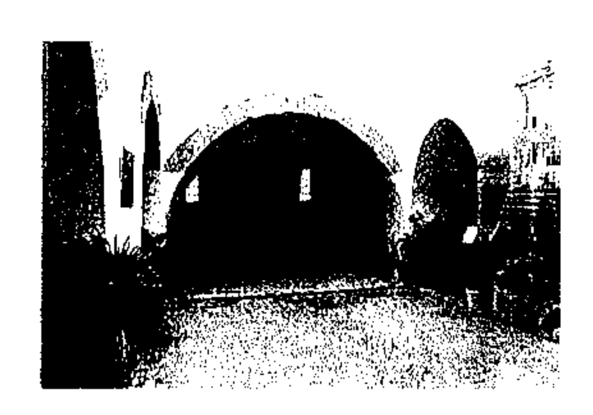
يعلو مدخلها عقد نصف دائري عرضه مترين يبلغ طولها 3.70م و عرضها 2.03م ينفتح في جدارها الشمالي خزانة ارتفاعها 0.89م و عرضها 0.81م و عمقها 0.48م أما جدارها الجنوبي ففتحت به نافذتان مستطيلتا الشكل تطلان على اليابسة طولها 1.09م و عرضها 0.83م و هذه النوافذ جاءت على نمط الفتحات في الأبراج أي أنها تتسع من الداخل و تضيق إلى الخارج و يبلغ ارتفاعها عن الأرض 1.90م.

4. 6. 4. الصحن:

يلي السقيفة مباشرة عرض مدخله 4.44م و ارتفاعه 3.24م يتوجه عقد نصف دائري وعبر سلم ذو أربعة درجات يتم الدخول إلى صحن البرج ذو الشكل المستطيل طوله 7.08م و عرضه 4.44م. يغطي الصحن اليوم سقف زجاجي يرجع للعهد الاستعماري و الأصل أن يكون الصحن مكشوفا للإنارة و التهوية خاصة أن المباني الدفاعية تتميز بتقليل الفتحات و المنافذ المطلة على الخارج واعتمد بدلها الصحن كعنصر معماري مهم في الأبراج حيث تكون المرافق المحيطة به كلها تطل عليه (صورة رقم 71. 1-2).



صورة رقم **71. 1:** الصحن بعد إضافة الأبواب

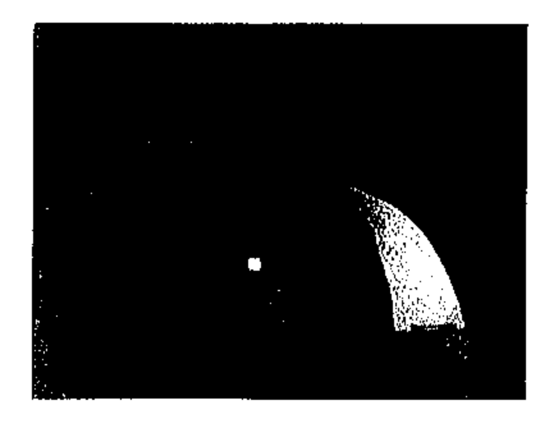


صورة رقم 71. 2: مداخل الغرف المطلة على الصحن

يحيط بالصحن ثلاثة غرف كبيرة مختلفة الأحجام تنفتح على بعضها البعض دون أبواب في الأصل لكن اليوم أضيف لكل منها باب، تشرف هذه الغرف على الصحن بخمسة عقود نصف دائرية، اثنان منها بالجهة الشرقية، و اثنان بالجهة الغربية أما الشمالية فتطل على الصحن بعقد واحد ارتفاعه عن الأرضية 3.20م و عرضه 4.44م، ترتكز هذه العقود على دعامات ضخمة، الأولى تقع على يمين المدخل شكلها مستطيل قياساتها 2.91 مx 1.72م، و الثانية قريبة من المربع و جاءت على يسار المدخل مقاساتها 2.89 x 2.78م و الثالثة مستطيلة الشكل قياساتها 2.88 x 1.82م أما الرابعة فهي مربعة طول ضلعها 1.78م. أرضية الصحن هي الأخرى مرصوفة بالآجر الأحمر لكن ذو شكل مستطيل. أما العقود فكلها مبنية من الحجارة الكبيرة المصقولة التي تختلف قياساتها حسب موقعها من البناء.

4. 6. 5. الغرفة الأولى:

تقع على يمين مدخل الصحن شكلها مستطيل طولها 9.80م و عرضها 7.44م فتح بجدارها الجنوبي باب صغيرة تؤدي إلى مخزن الذخيرة (صورة رقم 72).



صورة رقم 72: سقف الغرف النصف برميلي

4. 6. 6. المخزن:

يقع عند الركن الجنوبي للغرفة السابقة و هو مستطيل الشكل طوله 3.37م و عرضه 2.38م، أما المدخل فعرضه 1م لا يوجد به أية فتحات سقفه مقبى.

4. 6. 7. الغرفة الثانية:

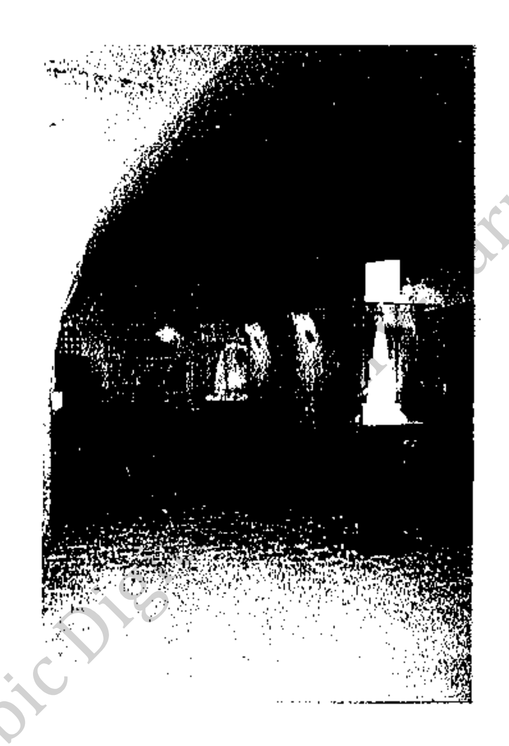
تقع في الجهة الشمالية المقابلة للمدخل طولها 18.23م و عرضها 4.35م، ينفتح بجدرانها أربعة نوافذ الأولى توجد في الجدار الشرقي شكلها مربع طول ضلعها 0.7م و ترتفع عن الأرض 1.48م، أما الجدار الشمالي فتنفتح به ثلاثة نوافذ اثنان منها مستطيلتا الشكل ترتفع عن الأرض بحوالي 2م و الثالثة مربعة، و هي واسعة من الدخل و تضيق كلما اتجهت إلى الخارج أغلقت اليوم بزجاج ملون من الداخل و شبكة من الحديد من الخارج. يغطي الغرفة سقف نصف برميلي يمتد على طولها و هو مبني من الحجارة الكبيرة المصقولة، يتوسط السقف فتحة مستطيلة الشكل ربما كانت مخصصة للإنارة (صور رقم 73).



صوررقم 73: الغرفة الثانية

4. 6. 8. الغرفة الثالثة:

تقع في الجهة الغربية من الحصن طولها 14.35م و عرضها 4.24م، فتح بجدارها الغربي ثلاث نوافذ اثنتان منها مستطيلة الشكل ترتفع عن الأرض بحوالي 1.50م و الثالثة مربعة الشكل و ترتفع عن الأرض بحوالي 2.05م، تسقيفها أيضا على نفس النمط أي نصف برميلي مبني من الحجارة المصقولة، جاءت أرضيات الغرف كلها مرصوفة من الآجر الأحمر ذو الشكل المستطيل (صورة رقم 74).



صورة رقم **74:** الغرفة الثالثة

4. 6. 9. الطابق العلوي:

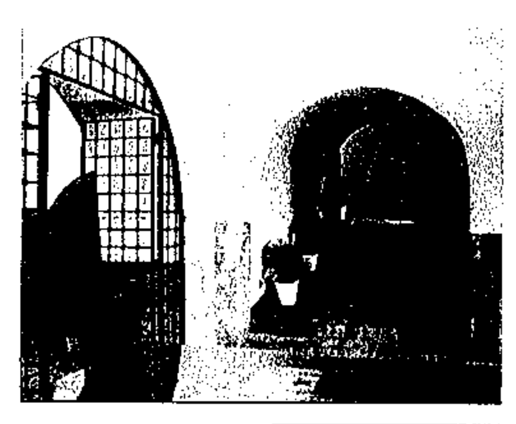
يتم الوصول إليه عبر رواق و سلم يؤدي مباشرة إلى السطح أهم عنصر معماري في البرج.

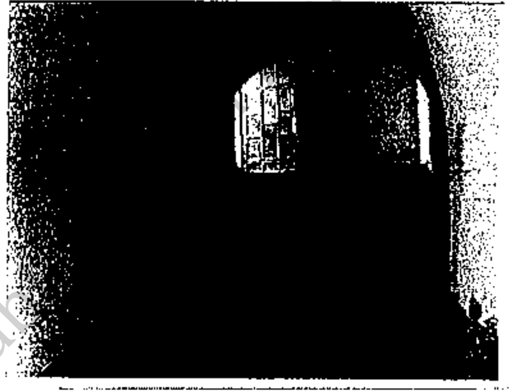
4. 6. 10. السلم:

يقع على الجهة اليمنى من المدخل الرئيسي للبرج، حيث يوجد درجتين تؤدي إلى رواق، أرضيته مائلة مرصوفة بالآجر الأحمر تسهل عملية نقل المدافع إلى السطح، يبلغ طول الرواق 10م و عرضه 3م و هو مغطى بسقف نصف برميلي مبني كسابقيه بالحجارة المصقولة. ينفتح بجداره الجنوبي نافذتان مستطيلتا الشكل تتسع من الداخل و تضيق إلى الخارج و هي تطل على الجهة

الجنوبية الشرقية من الخندق و اليابسة، ارتفاع الأولى عن الأرض 1.30م و الثانية 0.68م و المسافة بينهما تقدر بحوالي 3.99م أما الجدار المقابل للأول فوجدت به نافذة صغيرة مربعة الشكل الأغلب أنها كانت لوضع أدوات لإنارة الرواق الذي يبدأ و ينتهي بعقد نصف دائري ارتفاعه 2.10م. تليه بعدها ثلاثة درجات تؤدي إلى رواق أصغر طوله 3.13م و عرضه 2.90م يؤدي بدوره إلى سلم ذو عشر درجات عند ارتقائها نصل مباشرة إلى مدخل السطح الذي يعلوه عقد نصف دائري عرضه 1.29م (صورة رقم 75-76).







صورة رقم **75**: السلم الأول المؤدي إلى السطح بالاتجاهين



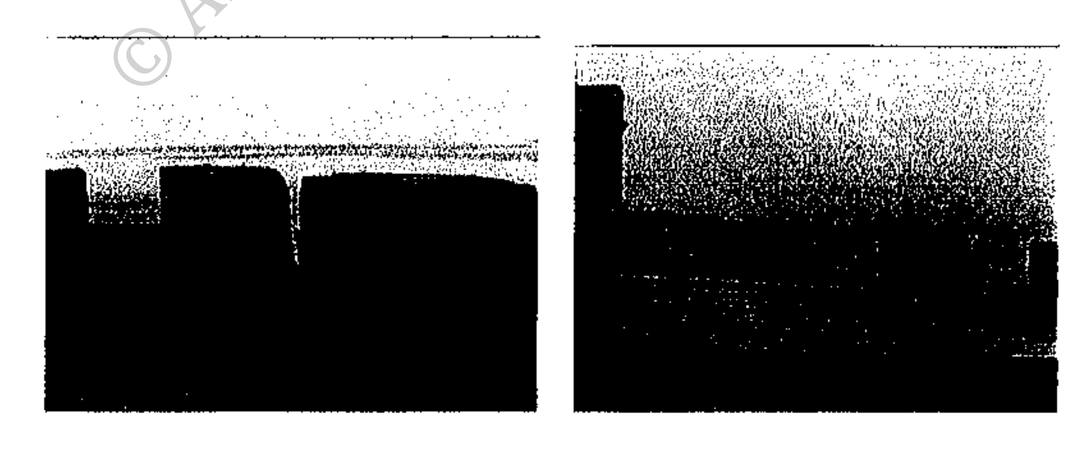
صورة رقم **76**: السلم الثاني المؤدي إلى السطح

4. 6. 11. السطح:

نخرج عبر هذا المدخل إلى سطح فسيح طوله 15.50م و عرضه 19.90م، حسب مخطط بوتان كان سنة 1808م يضم إحدى عشر فتحة للمدفعية موزعة كالآتي: واحدة في الواجهة الجنوبية، ثلاثة بالجهة الشرقية و اثنتان بالواجهة الغربية و أربعة بالجهة الشمالية و واحدة بالركن الشمالي الغربي. أما اليوم فيوجد عشرة فتحات موزعة كالآتي: ثلاثة في كل من الواجهتين الشمالية و الغربية و فتحة أخرى عند التقاء الركن الشمالي بالغربي، و فتحتان في الجهة الشرقية و فتحة ثالثة عند التقاء هذه الواجهة بالشمالية، أما الواجهة الجنوبية فيقوم بها البناء الحديث الذي أقامه الفرنسيون كمكاتب لهم.

يتوسط السطح الفتحة التي تطل على الصحن يغطيها سقف زجاجي، و تتخذ شكل مستطيل طول الضلع الشرقي 7.64م و الغربي 7.43م و الشمالي 5.20م أما الضلع الجنوبي يتصل بالمباني المضافة.

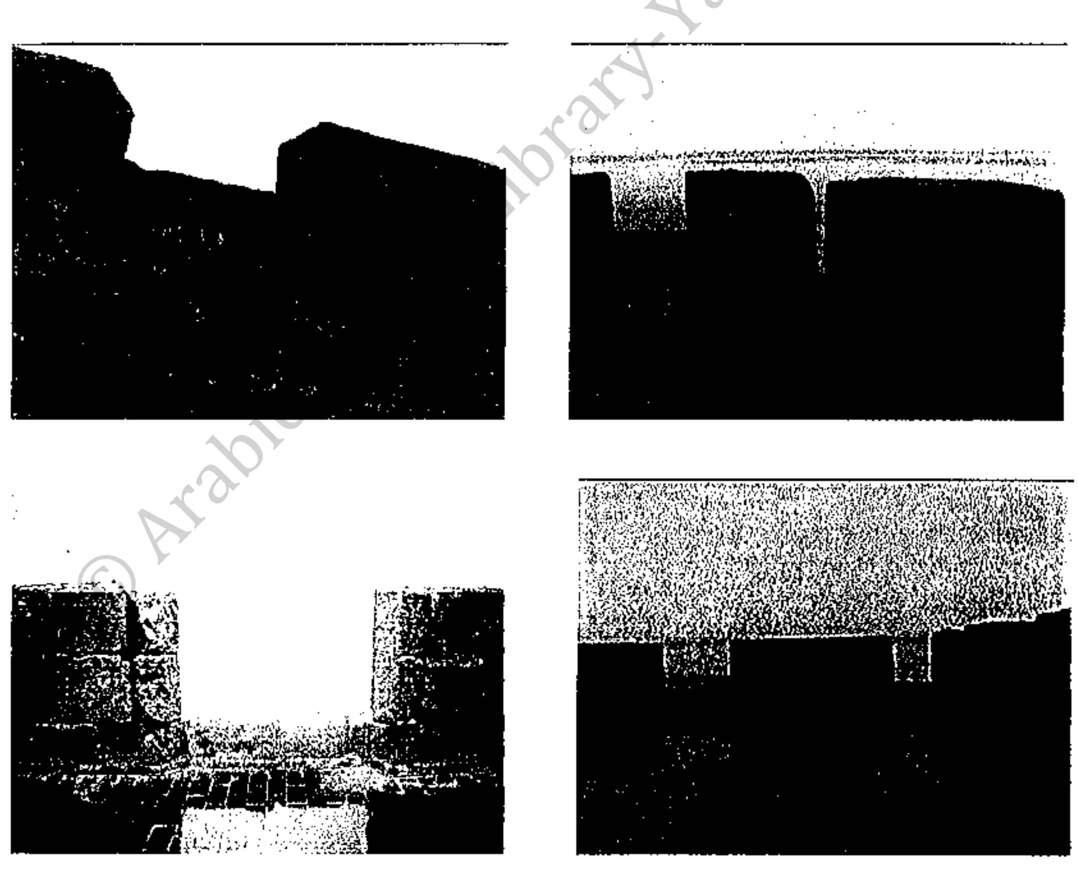
يحيط بالسطح متراس تتخلله عدة فتحات للمدفعية تختلف أشكالها و قياساتها حسب مكانها، فالفتحات الواقعة في الركن الشمالي الشرقي و الشمالي الغربي أوسع و نجد بها انكسار يجعل المدافع في مأمن من الضربات و يسهل هذا الانكسار أيضا سرعة تحريك و تدوير المدفع بالاتجاه المراد، بينما في الواجهتين الشرقية و الغربية فيقل اتساع فتحتها، يبلغ سمك جدران البرج 1م و جاءت أرضيته مفروشة بالآجر الأحمر تتميز بالميل حتى لا تتجمع مياه الأمطار و تتسرب إلى القنوات الواقعة أسفل كل فتحة مدفعية، يبلغ ارتفاع أسوار البرج 6.30م (صور رقم 77).

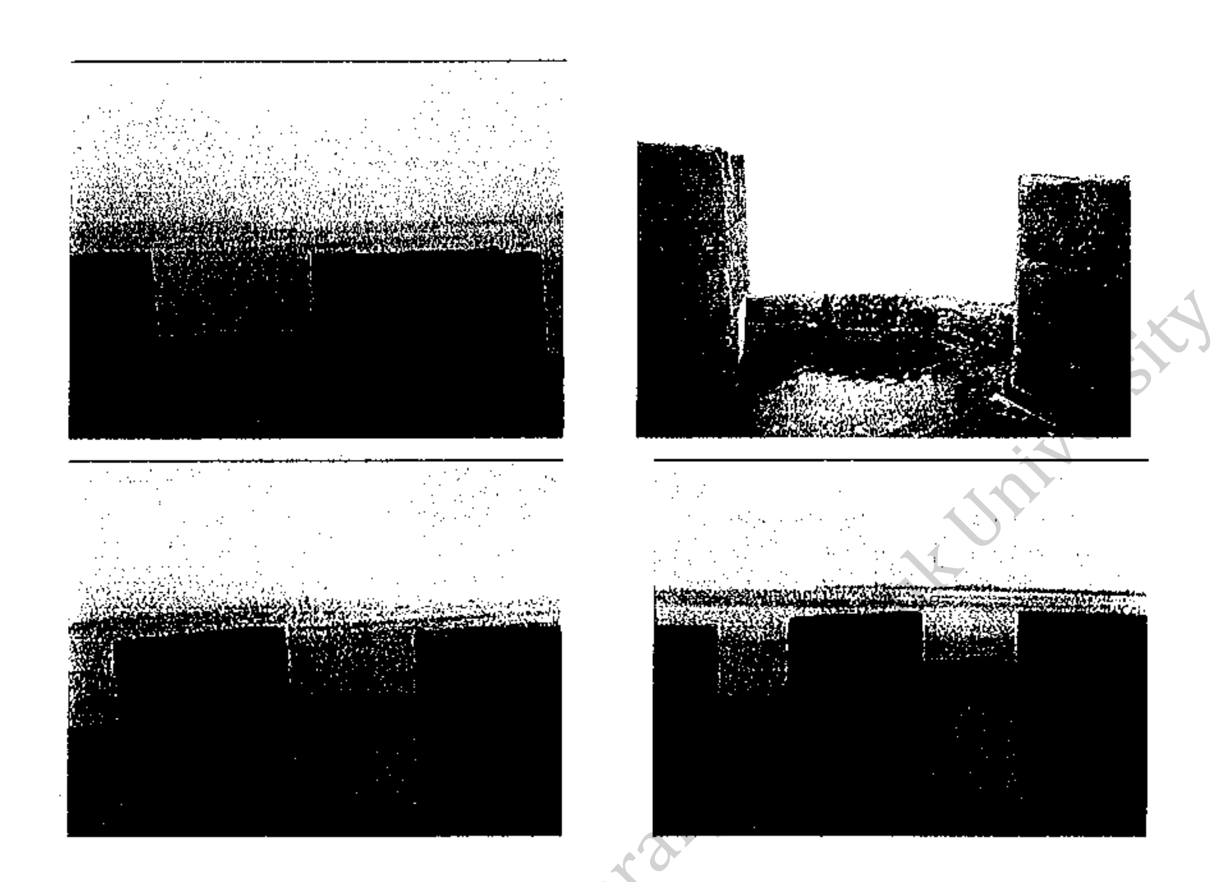


صورة رقم 77: أجزاء من السطح و السقف الزجاجي الذي يغطي الصحن

فتحات المدفعية:

تتوزع على كل من الواجهة الشمالية و الشرقية و الغربية بينما تنعدم في الجهة الجنوبية لبناء الغرف الجديدة في عهد الاستعمار، تتسع هذه الفتحات من الخارج و تضيق كلما اتجهت إلى الداخل، تبلغ الفتحات الركنية من الداخل 1.95م و تتسع إلى الخارج لتصل إلى 2.55م، أما الفتحات الأخرى فتتراوح قياساتها من الداخل مابين: 1.60 و 1.70م و 2.30م من الخارج **أما** المسافة بين الفتحة و الأخرى فتقدر بحوالي 2.35م، و لتثبيت المدافع حتى لا تتراجع إلى الوراء عند القصف وضعت حلقات من الحديد على طرفي كل فتحة لتشد المدفع. خلافا للأبراج الأخرى لا يوجد بهذا البرج فتحات للبنادق ولكن نجد فتحات لتسرب مياه الأمطار أسفل كل فتحة مدفعية و هذا دليل على تجمع هذه المياه أسفل البرج في صهريج أو بئر لتموينه بالمياه لكن لا يوجد أثر له اليوم و الأغلب أنه ردم أيام الاستعمار. (صور رقم 78).





صور رقم 78: أشكال فتحات المدفعية

4. 6. 12. البناء المستحدث:

يتمثل في غرف متفاوتة الأحجام أقيمت عندما تسلمته إدارة الجمارك الفرنسية سنة 1855م و يحتل كل الواجهة الجنوبية و جزء من الواجهة الشرقية و الغربية.

4. 7. مواد و تقنيات البناء:

بني البرج و جميع مرافقه و عناصره المعمارية بالحجارة الكبيرة المصقولة المجلوبة من المواقع القديمة القريبة من المنطقة كموقع رسقونيا القديم بتامنتفوست بينما فرشت أرضياته و السلم المؤدي إلى السطح بالأجر الأحمر ذات الشكل السداسي بالنسبة للسقيفة و المستطيل الشكل بالنسبة للغرف و الصحن و السطح. يبلغ قياس الحجارة 1 x 0.50م عامة و قطعت أقل حجما في بعض المواضع كالزوايا أحيانا و على مستوى العقود و تعد هذه الحجارة من الصخور الرسوبية الصفراء و الصخور الرملية.

بني البرج بطريقة رصف الحجارة أفقيا كبرج تامنتفوست و ترتكز هذه الحجارة على بعضها البعض عن طريق الثقل ثم تضاف إليها طبقة رقيقة من الملاط الرابط.

4. 8. عناصر البرج الدفاعية:

4. 8. 1. الخندق:

تم نحته في الجهة الجنوبية فقط ليتقدم مدخل البرج طوله 10م و عرضه 1.70م و عمقه 2.10م و هو مبني بالآجر و الاسمنت اليوم. حفر الخندق لعرقلة أي هجوم محتمل من جهة البر و التسلل إلى داخل البرج خاصة أن هذه الجهة لم تفتح بها فتحات المدفعية حيث كان التركيز على الجهات المطلة على البحر، و كذلك لحماية المدخل لأن الجهات الأخرى بنيت على صخور منحدرة يصعب تسلقها.

4. 8. 2. الجسر الخشبي المتحرك:

لقد استوجب حفر الخندق وجود جسر يربط المحيط الخارجي بالداخلي، ووفق تصميمه كان متحركا ليرفع عند الخطر و هو بذلك يجعل من الخندق خط دفاعي متقدم بالنسبة للبرج، بحيث يصعب على الأعداء التسلل عند رفعه و جعلهم عرضة لضربات المدافعين من فوق السطح ووجوده دليل على وجود بناء في أعلى الواجهة كمرقب لحراسة المدخل و الخندق و مكان رفع الجسر و تثبيته، لكن التغييرات في عهد الاستعمار حالت دون ذلك.

4. 8. 3. الباب:

يمثل الباب عنصرا دفاعيا مهما فبعد عبور الجسر الخشبي نجد الباب التي تنقسم بدورها إلى باب كبيرة لا تفتح إلا عند إدخال المدافع و العدة الحربية، ثم باب أصغر مخصصة لمرور الأشخاص لا تفتح وتغلق إلا من الداخل.

4. 8. 4. السقيفة:

تعتبر السقيفة عنصر تمويه بالنسبة لمقتحم البرج بحيث تكون منافذها الثلاثة محط ارتباك للعدو و لا يتوقع ما يمكن مصادفته.

4. 8. 5. السلم:

بالإضافة إلى كونه وسيلة اتصال بين الطابق السفلي و السطح من البرج فان طريقة بناءه المائلة و خلوه من الدرجات يسهل عملية نقل المدافع إلى أعلى دون عناء حملها بحيث يكفي جرها عبر طريقة التبليط بالآجر.

4. 8. 6. السطح:

يعد أهم العناصر الدفاعية و منه تنظم الحركة و الحراسة و تعطى إشارات الإنذار عند اقتراب العدو و منه تنطلق قذائف الدفاع، و لسعة مساحته الدور الفعال في الحركة و تدوير المدافع و شحنها بالقذائف.

4. 6. 7. فتحات المدفعية:

لمدى أهميتها نجدها موزعة على واجهات الأبراج و تركز أكثر على الواجهات المطلة على البحر لكون أغلب الهجمات تأتي عبره. و فتحات برج الكيفان كذلك حيث وزعت على الجبهات الثلاث المطلة على البحر و الشاطئ و اهتم بها البناء من خلال طريقة تصميمها الواسعة من الخارج و الضيقة من الداخل حيث تساعد هذه الطريقة في سرعة تحريك المدافع و إعطائها مجالا أوسع و جعل المدافع في مأمن من الضربات. لقد قاوم هذا البرج حملات كثيرة من الناحية الشرقية لمدينة الجزائر و إن تواجده إلى يومنا هذا لدليل على نجاعة بناءه.

الفصل الرابع

العناصر المعمارية و الزخرفية

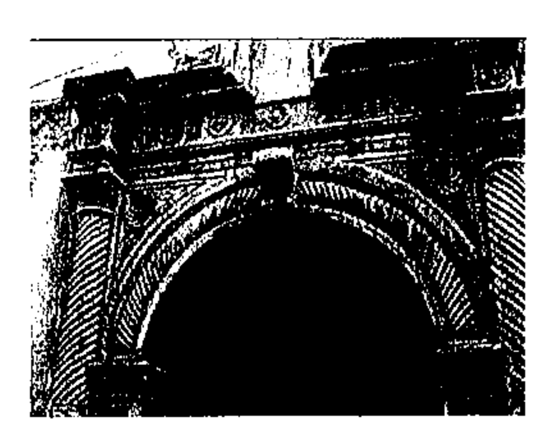
مقدمة:

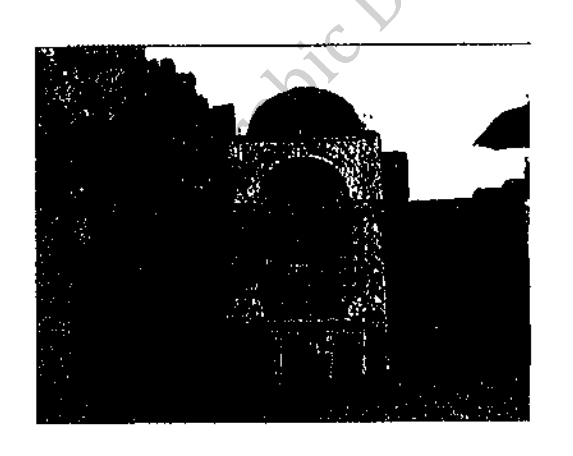
أملت الظروف الصعبة التي رافقت بناء الحصون و الأبراج الدفاعية لمدينة الجزائر حيث كانت المحن تتزايد مع تزايد غنى المدينة و اتساع قوتها و مجابهتها للقوى الاستعمارية طبيعة البناء و نمطه و اختيار مواقعه لأنه جزء رئيسي من المعلم سواء كان على البحر أو على الجبل و ذلك لغايات مجابهة الأحداث، و قد استغل المعماري المواد الموجودة محليا لبناء المنشآت الدفاعية في مقدمتها الحجر و الآجر.

لم يهتم الأتراك العثمانيون في مدينة الجزائر بالزخرفة في المعالم الدفاعية، بل صبوا جل اهتمامهم في تحصين و تقوية المدينة، لكن هذا لم يمنع من وجود بعض المباني المزينة بزخارف متنوعة في فترات السلم و الرخاء الاقتصادي، استخدم لتنفيذها مزيج من المواد المحلية و المستوردة.

المواد المستخدمة: شاع استخدام مواد مختلفة في البناء و الزخرفة كالرخام و الحجر و الجبس و الخشب و النحاس و الرصاص و القرميد.

الرخام: استخدم الرخام بكثرة في أطر الأبواب و الألواح التذكارية التي نفذت عليها الكتابات التأريخية و كذلك في الأعمدة و التيجان و نافورات المياه (صورة رقم 79).

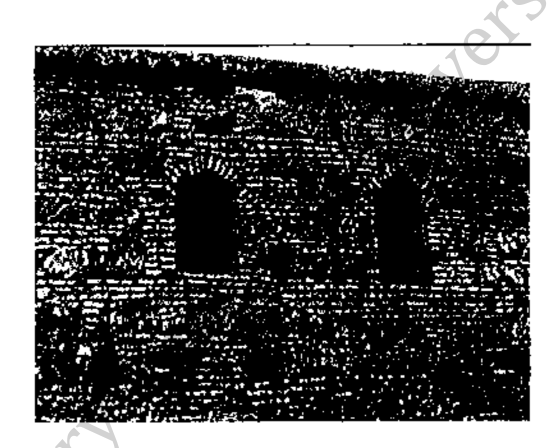




صورة رقم 79: إطاري مدخل القصر و حوض الماء بقلعة الداي

الحجر: استخدم الحجر بكثرة في المباني الدفاعية بمدينة الجزائر بحكم توفر المحاجر الناتجة عن طبوغرافية و تضاريس المدينة، و كذلك من المواقع الرومانية القديمة. استخدم الحجر في بناء الأبراج و الحصون و الأسوار لما لهذه المادة من قوة في مقاومة الضغط الناتج عن ضربات المدافع، و قد كان صقله و قطعه يتم حسب موقعه من البناء، فاتخذ الشكل المربع و المستطيل و

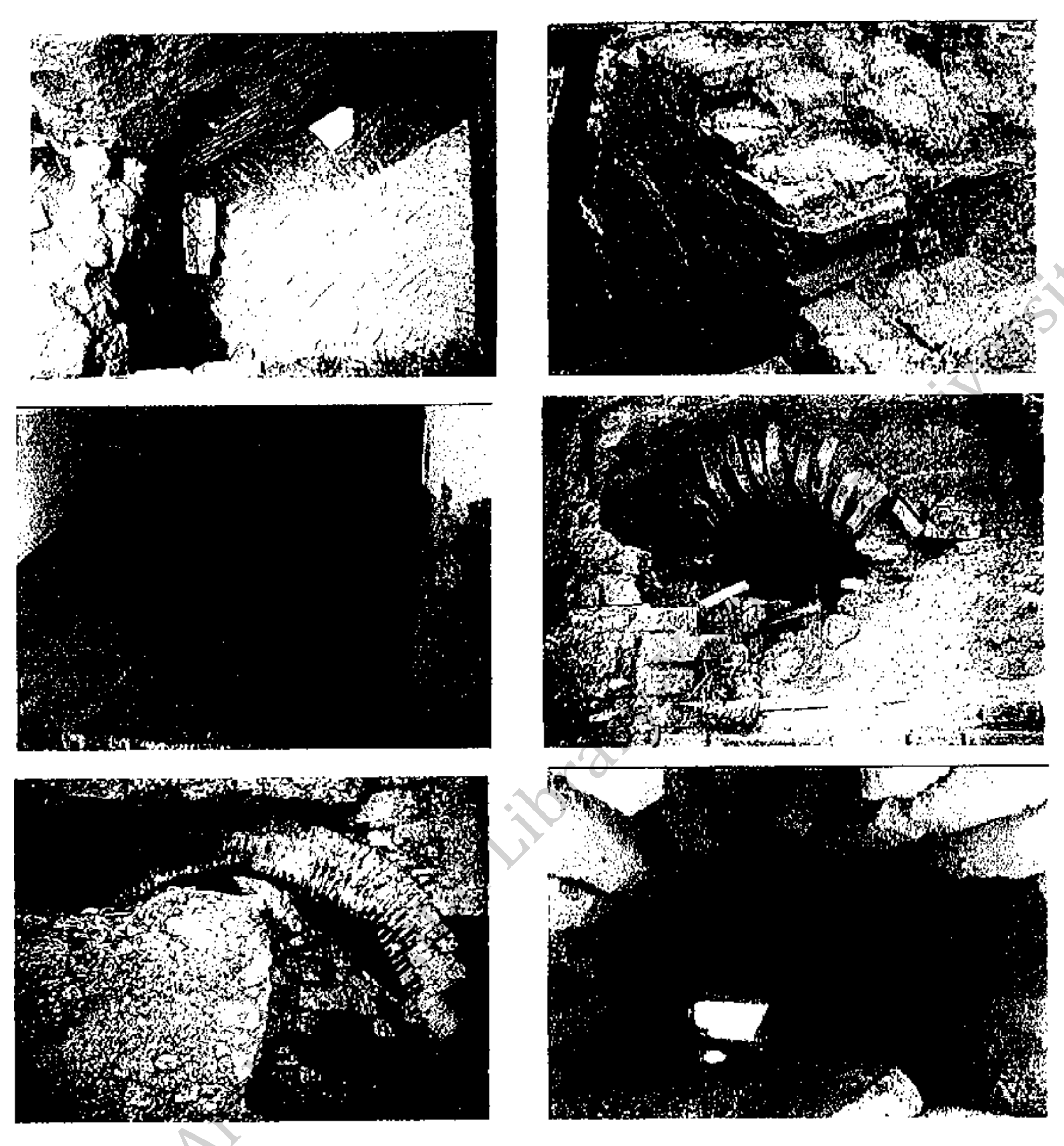
الأسطواني كما استخدم غير مصقول في مواضع أخرى كما نشاهده على مستوى واجهات مصنع البارود بقلعة الداي حيث جاء على قطع مختلفة الأحجام و الأشكال كما استخدم أيضا لملأ الفراغات الموجودة بين الأسوار من الداخل لتعطيها قوة أكبر. كانت هذه الحجارة تمزج مع خليط من التراب و الحصى المدقوق و الملاط لتعطي تركيبة تتحمل الضغط و تمتص الرطوبة، نجد هذه الطريقة في جدران برج تامنتفوست و حصن الإمبراطور (صورة رقم 80).





صورة رقم 80: استعمال الحجارة غير مشذبة

الآجر: يعد أيضا من المواد المتوفرة بالجزائر و قد استعمل أيضا في بناء الأبراج و أسوار القصبة و قلعة الداي و حصن الإمبراطور و يعرف عن الآجر قوة الصلابة و مقاومة الضربات أيضا و الأبنية بالآجر أحسن بكثير من تلك المبنية بالحجارة (Maitrot 1912: 31). و قد استعمل الآجر كذلك لبناء العقود و الأقواس و أرضيات الأبراج و السلالم المؤدية إلى أسطح الأبراج (صورة رقم 81).

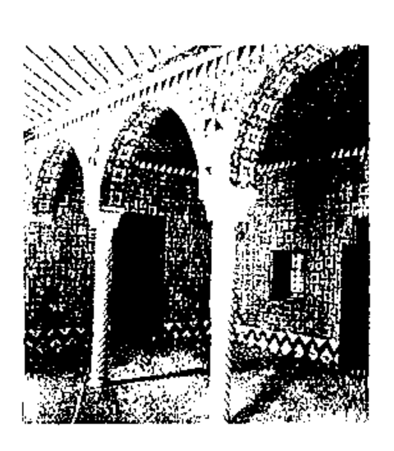


صورة رقم 81: الاستعمالات المختلفة للآجر

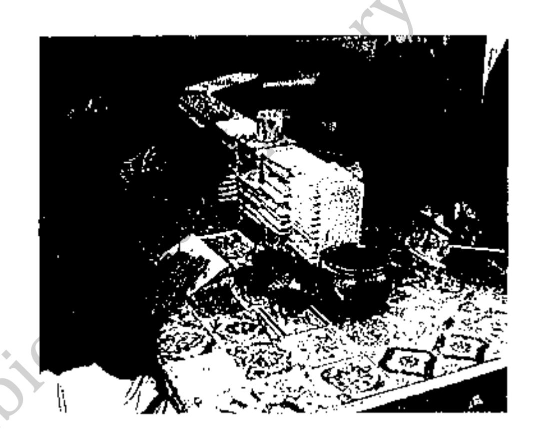
الجبس أو الجير: استخدم بكثرة في طلاء واجهات البيوت و الأبراج من الداخل حتى وصف هايدو المدينة و كأنها ترتدي برنسا أبيضا، و عليه عرفت المدينة أيضا بالجزائر البيضاء لكثرة استعمال الجبس الذي يضفي عليها مسحة من الجمال و النظافة على واجهات البيوت.

بالإضافة إلى ذلك، فان الجبس مادة تمتص الرطوبة بحكم موقع المدينة على ساحل البحر و كونها مادة طاردة للحشرات، كما استخدم الجبس أيضا كمادة رابطة للآجر بعد خلطه بمواد لاحمة أخرى كالقطع الفخارية و الحجر المدقوق.

البلاطات الخزفية: يعرف بالجزائر باسم الزليج و استعمل بكثرة في تغطية جدران القصور و البيوت و الثكنات العسكرية العثمانية و الحمامات، كما أحيطت به النوافذ و الأقواس و كانت تتخذ أشكالا هندسية و نباتية مختلفة ذات ألوان زاهية (صورة رقم 82-83).



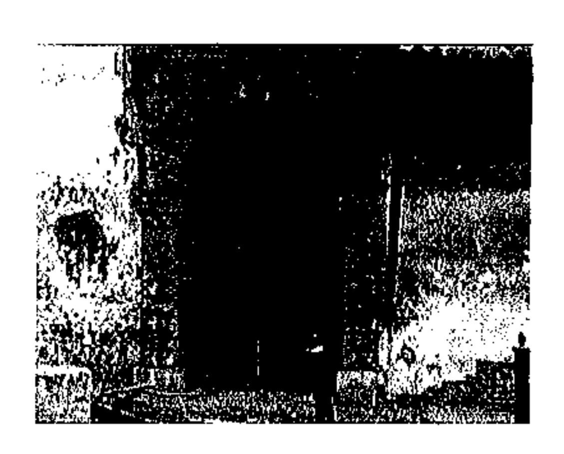
صورة رقم 82: إحدى غرف ثكنة باب عزون بالمدينة (Devoulx 2003:266)



صورة رقم 83: ورشة بلاطات القصبة (مجلة الصناعات التقليدية 1998: 71)

الخشب: استعمل الخشب بدوره في المباني العسكرية و المدنية على حد سواء، فبالإضافة إلى استعماله في الأبواب و النوافذ و السقوف و الخزائن، استعمل أيضا كعنصر معماري يخفف من ثقل البناء بالإضافة إلى استخدامه في الأبنية لمقاومة الزلازل و يكون على شكل قطع خشبية أسطوانية الشكل و نجد مثلها في رواق برج تامنتفوست (انظر الصور السابقة).

النحاس: استخدمت هذه المادة على شكل صفائح لتغطية أبواب المدينة و قصر الداي بالإضافة إلى تشكيل نصف كرة للتزيين أيضا، كما استخدمت هذه المادة في صنع المقابض المثبتة للمدافع إلى جانب الحديد و لا تزال بعض آثارها موجودة في بعض بطاريات قلعة الداي و برج الكيفان (صورة رقم 84).




صورة رقم 84: صفائح نحاسية تغطي أحد أبواب قلعة الداي

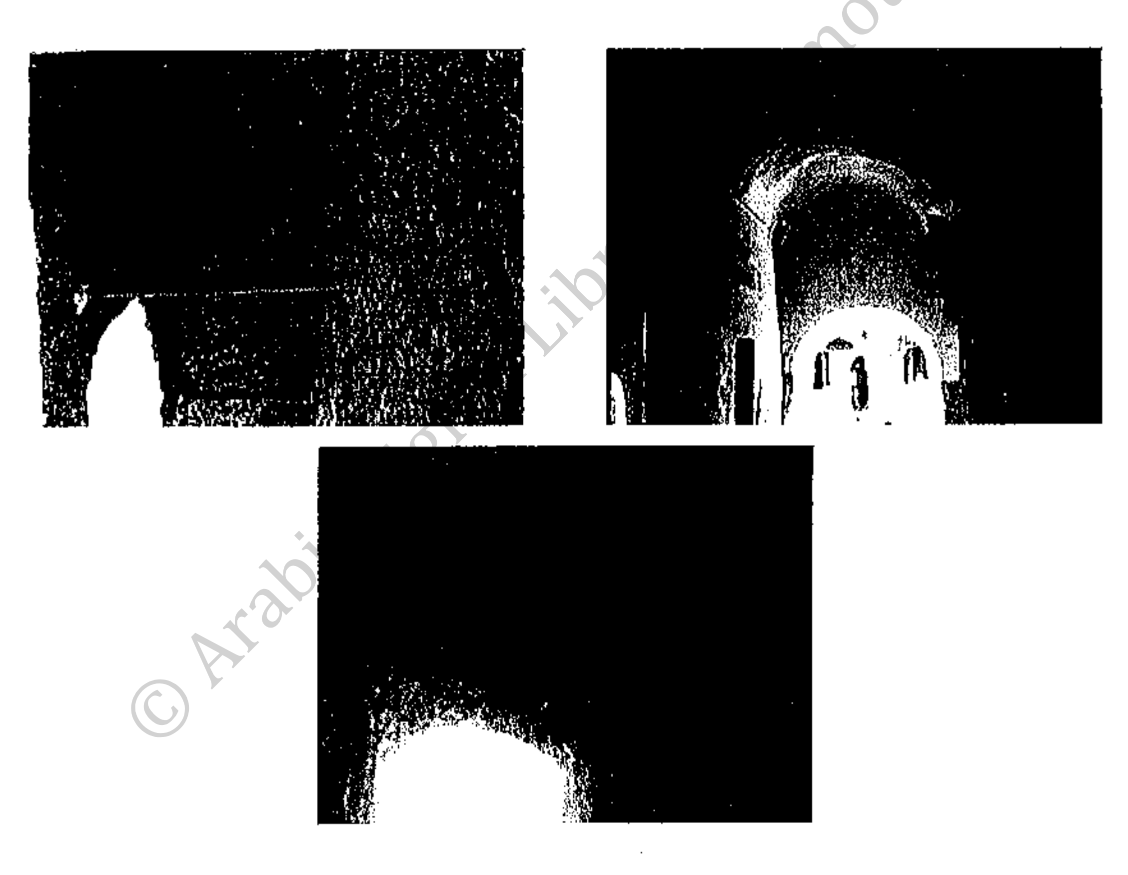
لكن ما يهمنا بين هذه المواد تلك التي استخدمت في المباني الدفاعية كالحجر و الآجر و ما أنتجته من عناصر معمارية فيها.

المبحث الاول: العناصر المعمارية

1. برج تامنتفوست:

1. 1. الأقبية:

استخدمت الأقبية في بناء سقوف مرافق البرج و قد جاءت السقيفة الأولى و الثانية مقباة بسقف نصف برميلي الشكل، كما نجد هذه الطريقة في التسقيف على مستوى السلم المؤدي إلى سطح البرج و المغطى بدوره بقبو نصف برميلي مقسم إلى قسمين يفصلهما عقد نصف دائري (صورة رقم 85).



صورة رقم 85: سقيف السقيفة، الرواق و السلم

يظهر هذا النمط من الخارج بوضوح،و جاءت سقوف الغرف أيضا مقباة بنفس طراز البناء أي قبو نصف برميلي يتضح ذلك في سقف السجن تتوسطه نافذة مستطيلة الشكل للإنارة و التهوية.

إن هذه الطريقة في التسقيف معروفة في العمارة منذ القدم و عادة تكون من الحجر أو الآجر، و يرجع بناء الأقبية بالحجر المصقول إلى الفنانين و الصناع الشاميين إذ كانوا يمتازون بالمهارة و

الدقة و الإتقان (الشافعي 1970: 198). و تستخدم الأقبية في العمارة لتسقيف أجزاء المباني مهما اختلفت مساحتها طولا كما تستخدم في تسقيف الغرف و الممرات الطويلة، و قد يسند رأس القبو جدران كالغرف أو تكون مفتوحة الطرف كالإيوان. تأخذ الأقبية شكلها من شكل العقود السائدة في المباني نفسها فمن العقود ما كان ذو مقطع نصف دائري فتكون الأقبية شكلا نصف أسطواني أو تظهر مقاطعها العمودية مدببة أو ذات أربعة مراكز. كما يحدث نوع آخر من تلاقي قبوين فتتكون الأقبية المتقاطعة من الأركان أو الغرف أو الممرات (العزاوي 1980: 97). و هذا النوع الأخير شاهدناه في مدخل برج رأس بيسكاد حيث جاء سقفه متقاطع العقود.

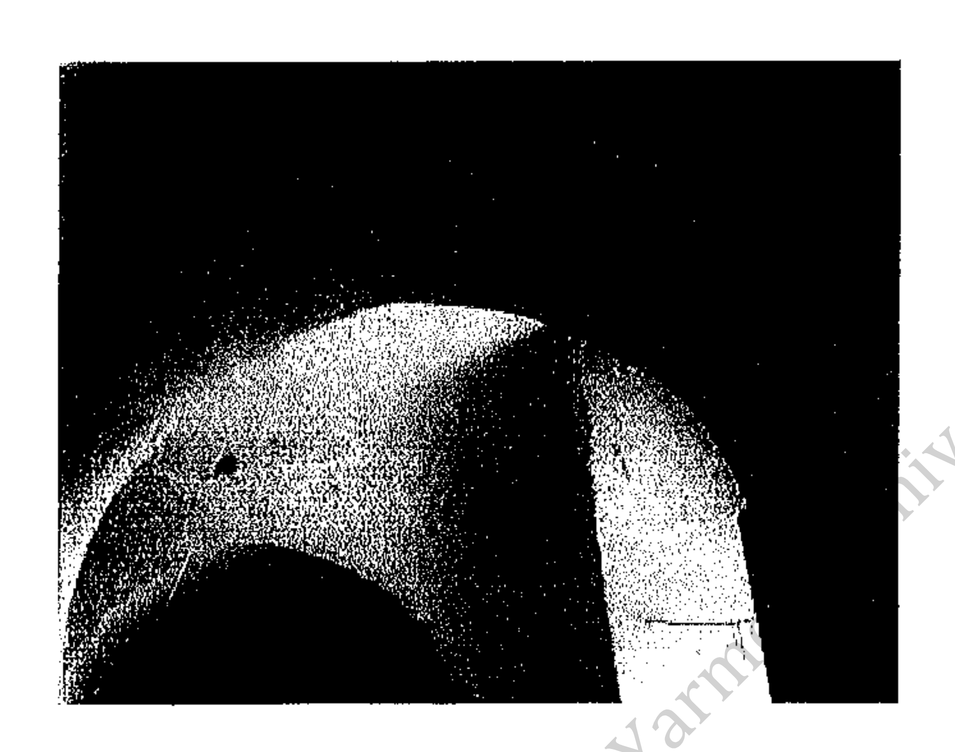
إن للأقبية دور معماري كبير في العمارة العسكرية يتمثل في تخفيف قوة الضغط على الأسس و الجدران و مساعدتها في التماسك بصورة أفضل من السقوف المستوية (الشمري 1996: 146) وذلك لفعاليتها و مدى تحملها ثقل الحركة الدائمة على سطح البرج و ثقل المدفعية و ضرباتها، و إن لبقائها كل هذه المدة الزمنية و استمرارها دليل على نجاعتها في العمارة الحربية.

1. 2. العقود:

استخدمت عدة عقود في برج تامنتفوست لها دور إنشائي و زخرفي لكن هذا الأخير اقتصر على مثال واحد فقط تمثل في العقد الذي كان يعلو المحراب في الغرفة المخصصة للصلاة، أما العقود الإنشائية و التي لها دور في البناء فجاءت في مرافق عدة بالبرج وهي على ثلاثة أنواع:

1. 2. 1. العقد النصف دائري:

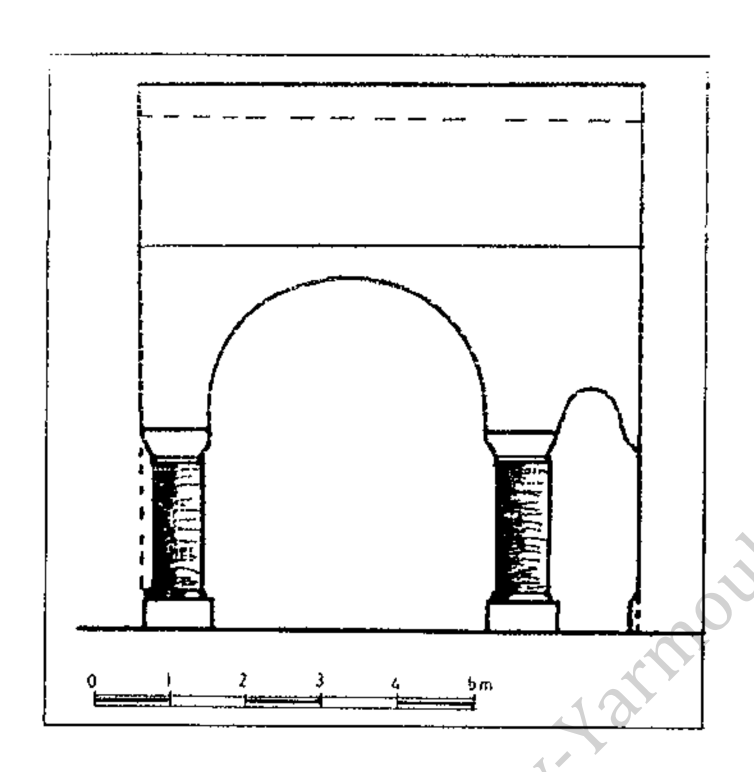
جاء بداية على مستوى العقد الذي يعلو المدخل الفاصل بين السقيفة الأولى و الثانية وهو نصف دائري خال من أي زخرفة (صورة رقم 86. 1-2) كما نجده على مستوى المدخل المطل على الفناء مباشرة حيث جاء الوحيد بشكل نصف دائري (مخطط رقم 20).



صورة رقم **86. 1:** العقد الفاصل بين السقيفتين



صورة رقم **86. 2:** عقد المدخل النصف دائري



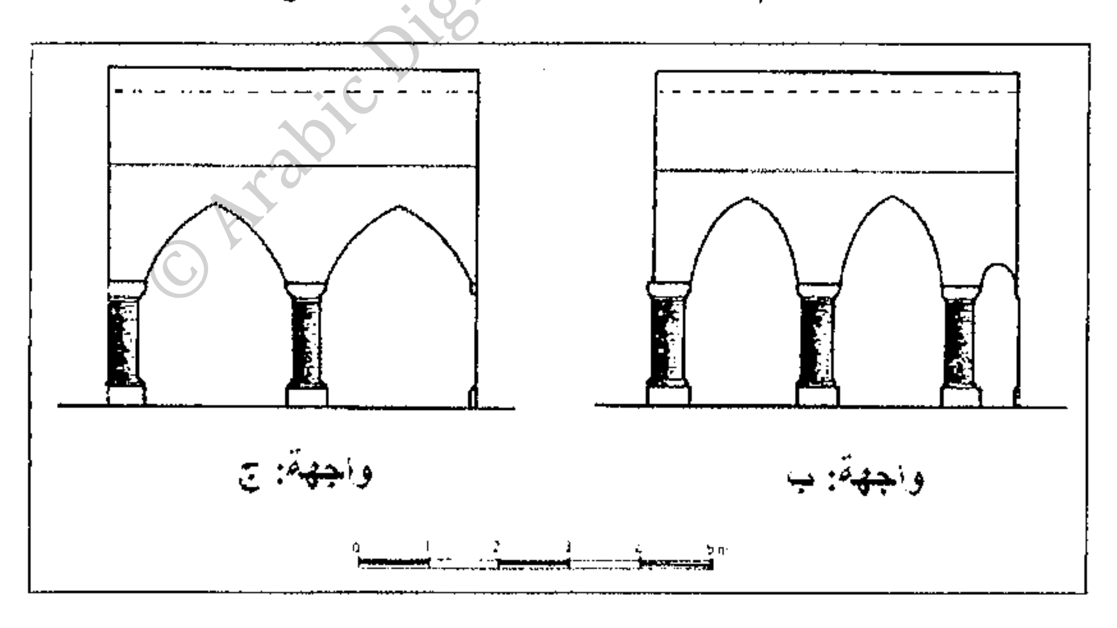
مخطط رقم 20: الواجهة أ. المدخل الرئيسي للفناء

انتشر هذا العقد في العمارة الإسلامية في جميع العصور و الأقطار و أقدم مثال له في الآثار العربية الإسلامية و الذي لا يزال قائما هو قبة الصخرة (الشافعي 1970: 203). و يعد هذا الشكل سهل الهندسة و العمل و البناء و توزيع الضغط و الثقل في كتفيه بالتساوي لأنه ذو مركز واحد، و قد استخدم الرومان هذا الشكل في أقواس النصر و قناطر المياه كما انتشر استعماله في عمارة مدينة الحضر في قبو الأواوين و الغرف و المداخل و الممرات كما كان هذا الشكل أيضا شائعا في العقود و الأقبية الساسانية (العزاوي 1980: 94).

1. 2. 2. العقود المدببة:

جاءت على مستوى دكة السقيفة الأولى، و عند العقود القائمة على مجموعة الأعمدة لحمل سقف الرواق المحيط بالفناء و الذي يشتمل بدوره على مجموعة غرف مطلة عليه (صورة رقم 87 + مخطط رقم 21).

صورة رقم **87:** العقود المدببة المطلة على فناء البرج



مخطط رقم 21 : الواجهة ب و ج: العقود المطلة على الصحن

انتشر هذا النوع بشكل كبير في العمارة العربية الإسلامية و أصبح من مميزاتها البارزة حيث تفنن المعماريون المسلمون في ابتكار أشكال جاءت على ثلاثة نماذج رئيسة: أولها العقد المدبب

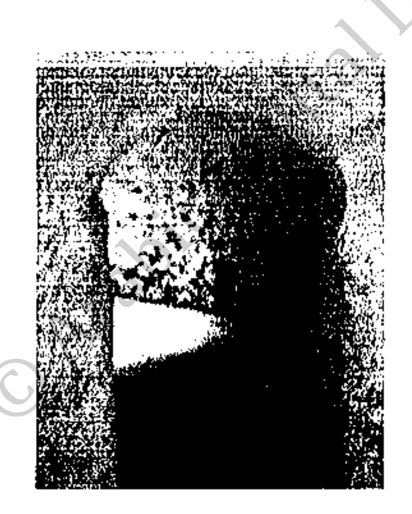
الذي يتكون من قوسين رسما من مركزين و الثاني العقد المدبب المكون من أربعة أقواس رسمت من أربعة مراكز. و الثالث العقد الفاطمي الذي يتكون من قوسين و من مستقيمين مماسين لهما يلتقيان عند قمة العقد المدببة (الشافعي 1982: 201).

استخدم هذا الشكل في العمارة العربية لفوائد و أغراض دفعت المعماري لاستعماله حتى يستفيد من ارتفاعه في زيادة الضوء و الهواء فضلا عن تفوق قوة تحمله للضغط و الثقل و ذلك بتوزيعها على مركزية. ظهر هذا الشكل لأول مرة في العراق في قصر الأخيضر (القرن 2هـ\8م) أي العصر العباسي الأول ثم انتشر استعماله في العمارة العربية (العزاوي 1980: 94).

1. 2. 3. عقد حدوة الفرس:

نجد مثيله فوق الباب الفاصلة بين غرفتي السجن، وهو من العقود التي كانت نادرة الاستعمال قبل العصر الإسلامي ثم اقتبسها المعماريون العرب المسلمون و طوروها و هذبوها و نشروها (الشافعي 1982: 201-202) كما نجدها تعلو مداخل الغرف المطلة على الصحن (صورة رقم 88).





صورة رقم 88 : عقد حدوة الفرس عند باب إحدى الغرف و السجن

1. 3. فوائد العقود و الأقبية:

لقد كان استخدام العقود و الأقبية في المباني لأغراض تسقيف أجزاء المبنى في الغرف و الأواوين و الممرات كما ساعدت على ربط جدران البناء و سد المداخل و حزمها بعقود. و قد استخدمت في بناء هذه العناصر المعمارية المواد نفسها المستخدمة في البناء مهما كانت أحجامها و أشكالها و مواردها، و أهم الفوائد:

1. 3. 1. لأغراض الربط و شد الجدران:

تمتاز العقود في بنائها أنها تربط أقساما معينة من الجدران بواسطة العقد المقام عليها و هذا يجعل الجدران أكثر مقاومة و ثباتا، فالجدران الخالية من العقود تكون عرضة للتفكك و الانحلال و السقوط، ووجود العقود و الحنايا معقودة تؤدي إلى حزم الجدار وربط أقسامه و تماسكها، فالمواد الداخلة في بناء العقود تتجاذب و تتماسك و يربط بعضها البعض و تتحمل الضغط و الثقل و تعمل على توزيعه بين أكتافها.

1. 3. 2. فوائد العقود في ربط الفتحات:

يستفاد من بناء العقود في ربط فتحات المداخل و الأبواب ذلك أن قدمي العقد يقومان مقام كفتي ميزان يتساوى فيه سيقانه و أطرافه، فإذا كان العمل دقيقا في بناء العقد أصبح توزيع الثقل ووزن الجدران فوق ظهره كعمل الميزان بالتساوي، و إذا اختل العمل يصبح العقد عرضة للسقوط و الانهيار. كما استخدمت العقود في سد فتحات الأبواب و ربط جوانبها و تتويج قمة النوافذ و الحنايا المغلقة، كما أسندت مقدمة الأواوين و الممرات و استخدمت العقود المعترضة في الممرات و ذلك لضبط عمل الأقبية حيث أن العقد المعترض يتحمل جزء من ثقل و ضغط الأبنية مشتركا مع الأقبية (العزاوي 1980: 96).

1. 4. الأعمدة:

هي أيضا من العناصر المعمارية التي استخدمت في برج تامنتفوست و هي أسطوانية الشكل بسيطة خالية من كل ضرب من ضروب الزخرفة. غير أنها تشتمل على المكونات الأساسية للعمود أي القاعدة و البدن و التاج. يبلغ عددها سبعة عشر عمودا تحيط بفناء البرج و تحمل العقود التي يقوم عليها سقف الرواق المحيط بالفناء (انظر الصور أعلاه).

استعمل المسلمون في البداية أعمدة كانت تنقل من الكنائس و المعابد و العمائر المخربة التي كانت تحملها الأعمدة، ثم اتخذوا أعمدة و تيجانا من ابتكارهم، فعرفوا الأعمدة ذوات البدن الأسطواني و البدن المضلع تضليعا حلزونيا و ذوات البدن المثمن الشكل. أما تيجان الأعمدة فمنها البصلية و تيجان تشتمل على صف من الوريقات النباتية تتصل في جزئها السفلي ثم تنتشر ، فتؤلف صفحة من الزخارف النباتية البديعة، كما عرف المسلمون تيجان من المقرنصات و أخرى على

هيئة الناقوس. و كانت التيجان تتصل ببعضها البعض عند بدء العقود بروابط خشبية قوية (زكي محمد حسن (ب. ت): 152-153).

1. 5. المداخل:

تعد من أهم العناصر المعمارية في العمارة الحربية لذلك كانت تولى اهتماما كبيرا في بناءها و حراستها، و كذلك في عددها. ففي الأغلب كان عددها يقلص إلى اقل قدر ممكن، ذلك أن كثرتها تصبح نقطة ضعف يمكن التسلل من خلالها و لنفس السبب كانت المداخل تفتح بين برجين دفاعيين إذا كانت قلعة كبيرة مثلا و كانت تزود بمرقب فوقها لحراستها و مراقبة الحركة بالقرب منها كما كانت تبنى بجانبها زلاقات أو فتحات لرمي السوائل الحارقة و السهام قديما لتصبح فتحات للبنادق و المدفعية لاحقا.

تنوعت الأبواب في حد ذاتها حيث وجدت المداخل ذات الجسور كمدخل برج تامنتفوست، أو مداخل ذات بوابات حديدية ضخمة كبوابات القصبة و بوابات المدينة، لم يكن يتقدمها خندق في الأغلب، و للحماية أكثر استخدم في القلاع و الحصون المداخل المنكسرة التي تعرقل تقدم العدو و تربكه و تضلله حيث لا يعرف الاتجاه الذي يسلكه بينما يصبح عرضة لضربات المدافعين بسهولة.

و برج تامنتفوست بدوره بني بمدخل وحيد يتم العبور إليه عبر الجسر المتحرك ثم بعد الدخول نجد السقيفة الأولى ثم انكسارا ثم سقيفة ثانية حيث يمكن الوصول إلى صحن البرج.

1. 6. السلالم:

تعرف أيضا بالدرج و المرقاة و هي وسيلة ارتقاء و ربط بين وحدتين بنائيتين تعلو إحداهما الأخرى و هي على أشكال مستقيمة و منكسرة و حلزونية و قد تكون بالأدراج أو بدونها (الشمري 1996: 114)، كما تعد السلالم وسيلة اتصال داخل البرج لتسهيل الحركة و الانتقال.

يتحكم في بنائها انحدار البرج و موقعه و كانت تبنى بالحجارة أو الآجر كبرج تامنتفوست و حصن الإمبراطور و كان الأول يغطيه قبو نصف برميلي، بينما الثاني جاء حلزوني الشكل غير مغطى. و لعل للشكل الحلزوني دور دفاعي ذلك أن العدو يجد صعوبة في صعوده بسهولة و بسرعة لأنه يتوقع من يباغته في هذا الالتواء الذي يحدثه الشكل الحلزوني مما يجعل العدو في وضع حرج إذا ما استقبله المدافعون عن الحصن.

1. 7. السطح:

هو الآخر من أهم العناصر المعمارية في البرج حيث به تدور أحداث المعارك و منه تعطى الإشارات و يطلق الإنذار في حالة الهجوم. و به تثبت المدافع، لذلك اهتم المعماري ببنائه جيدا بالمواد التي تقاوم الضربات و تصمد أمامها. و قد استعملت تقنيات عالية للغرض ذاته كإحاطته بمتراس قوي تتخلله مجموعة فتحات، كما بنيت أرضيته بالآجر على طبقة 10سم من الرمل حيث تخفف هذه التقنية من ضغط القذيفة و قوتها عند السقوط حتى لا تحدث أضرار كبيرة بمرافق البرج الأخرى.

1. 8. فتحات المدفعية:

و هي من العناصر المعمارية المهمة في العمارة العثمانية حيث تتوج هذه الفتحات أسطح الأبراج و الحصون و يتم من خلالها صد هجمات الأعداء لذلك أعطيت أهمية كبيرة في التصميم و البناء حيث يكون المدافع عن الحصن في مأمن من ضربات العدو بينما يتحرك هو بحرية ليصيب هدفه.

1. 9. فتحات البنادق:

تعد أيضا من العناصر المهمة في البرج، حيث جاءت موزعة على كل واجهات البرج تتخلل فتحات المدفعية. صممت مصوبة إلى الخندق لضرب العدو في حال اقترابه من أسوار البرج.

1. 10. المحراب:

جاء محراب برج تامنتفوست من بين المحاريب القليلة المتبقية في المباني الدفاعية، و هو خماسي الأضلاع خال من كل زخرفة تعلوه نصف قبة خماسية الحنايا (خلاصي 1991: 139).

2. حصن الإمبراطور:

للأسباب المذكورة سابقا لم تتمكن الباحثة من رصد العناصر المعمارية الأساسية في الحصن و سجلت وجود عقد نصف دائري وحيد يؤدي إلى جهة البرج الجنوبي و السلم المؤدي إلى البرج الغربي و هو حلزوني الشكل مبني من الآجر.

2. 1. المدخل:

يظهر من خلال مخطط بوتان لسنة 1808م أنه يوجد مدخل وحيد أيضا لم يعد له أثر اليوم، و لما كانت الأبواب محط أنظار المهاجمين فقد دعمت بالأبراج مثلما هو الأمر بحصن الإمبراطور حيث يتوسط المدخل الوحيد الضلع الشمالي من الحصن يدعمه برجان دفاعيان يعلوهما مجموعة من فتحات المدفعية تساهم في حراسة المدخل و المدينة على حد سواء، كما وجد الباب السري الذي ذكر أعلاه بهدف الإجلاء في حال اقتحام الحصن و طلب النجدة.

الأغلب أن حصن الإمبراطور و بحكم أهميته في الدفاع عن المدينة لم يخل من العناصر المعمارية المهمة التي ساهمت الحاميات العسكرية من خلالها في الدفاع عن امن المدينة من هذه الجهة و أن الدمار الذي أصاب الحصن و التغييرات جراء الانفجار هي سبب اندثارها.

2. 2. البرج:

يعد البرج وحدة معمارية كاملة يدعم الحصن و يراقب النقاط التي يطل عليها و يبعث بالإشارات و الإنذار في حالة الخطر و يقوم بالدفاع أيضا من خلال الحامية العسكرية المتواجدة به و المدفعية. و لما كان البرج من العناصر المهمة في العمارة أولاه المعماري اهتماما كبيرا و نسق بين أجزائه المتعددة فالقاعدة التي هي أول أجزائه تبنى في البروج المتصلة أي الساندة للجدران و الأسوار مع أسسها. ومن سماتها البنائية اتساع أسسها أفقيا عن مستوى اتساع أسس البناء الداعمة له كما هو الأمر في حصن الإمبراطور، غالبا ما يكون الاتساع من الجهة الخارجية للبناء لتتميز البروج بظاهرة البروز عن سمت الجدران لأغراض بنائية و دفاعية، بحيث كلما اتسعت قواعد البروج و امتدت أفقيا كلما زادت إمكانية تحملها للضغط الناجم عن كتلة بناء البرج القائم فوقها. اعتمد الشكل المضلع ألمنشوري ذو المقطع المربع في قواعد البروج المستقلة و الساندة التي تقام في زوايا البناء أي الركنية كحصن الإمبراطور، و التربيع في قواعد البروج الركنية ضرورة حتمتها نقطة التقاء الجدران التي تقوم عليها (الشمري 1996: 142-143).

2. 2. 1. البدن:

يكون إما مضلعا و إما اسطوانيا كما هو الحال في حصن الإمبراطور حيث جمع كلاهما في بناء واحد، و قد جاءت الأبراج الركنية مضلعة و البرج الأوسط دائري أو أسطواني الشكل.

الشكل الأسطواني في الأبراج له منافع تفوق المضلعة منها، فمن الناحية البنائية يكون الشد و التلاحم في الشكل الأسطواني أكبر لأن عملية الدفع المتولدة من الضغط الناجم من أعلى إلى أسفل تؤدي إلى التماسك في الشكل الدائري و الخروج عن سمت البدن في الشكل المربع يحدث شروخا و تشققات بينما إحداث فجوات في الدائرة أصعب بحيث لا يدرك بها طرف. فضلا عن الاقتصاد في مواد البناء و نفقاته بمعدل 11٪، أضف إلى هذا فان تأثير العوامل الطبيعية كالرياح و الأمطار على الشكل الأسطواني يشتت قوة الرياح و انسياب الأمطار تكون اقل بسبب ضيق المساحة المواجهة لهطول المطار و عدم تراكمها في سطحه بسبب تقوسه و انحداره (شاكر 1988: ج1، 441).

أما من الناحية الدفاعية فان الشكل الأسطواني للأبراج يعطي مجالا أوسع للحركة و المناورة عند الدفاع، و زاوية الرصد فيه أوسع من الأبراج المربعة أو المستطيلة حيث تقف أركان البرج المضلع حائلا أمام امتداد النظر (الشمري 1996: 145).

2. 2. 2. قمة البرج:

يتوج البرج بمتراس يحيط بالبرج من كل جوانبه تتخلله مجموعة فتحات للمدفعية و البنادق يتم من خلالها الدفاع عن المنطقة و البرج نفسه.

2. 3. وسائل الاتصال:

من العناصر المعمارية المهمة في هذا الحصن السلم الذي يسهل الحركة و الاتصال بين الأبراج الأخرى في حال اقتحام برج من الأبراج و قد أشرت إليه أعلاه بالتفصيل.

2. 3. 1. ممشى الحراسة (المتراس):

و هو عبارة عن مصطبة طويلة غالبا ما تبنى من الآجر كبقية أسطح الأبراج بالمدينة. يتم الاتصال من خلاله بين الأبراج و إيصال المدد و إرسال إشارات الإنذار في حالة الخطر، و تقوم دوريات الحراسة باستمرار بالتناوب على السهر و رصد أي تحركات غير طبيعية بالمدينة. يعرف هذا العنصر في المصطلحات الأثرية بالمتراس، و يعني ممرات تعلو أسوار الأبراج و الحصون تسهل عملية الحراسة (صدقي 1988: 327).

جاءت المتاريس في حصن الإمبراطور متنوعة الأشكال و امتدت بين الأسوار لتجعل الاتصال بين أجزائها أسهل و أسرع. كان يتداول على أعمال الحراسة عدد معين من الجنود يقوم بالإشراف عليهم الباش طوبجي أو قائد المدفعية بالبرج و تتغير في ربيع كل سنة.

2. 3. 2. الباب السري:

يعتبر من أهم الوسائل المعمارية المخصصة للاتصال في حالة التعرض للهجوم و اقتحام العدو للحصن و ذلك للتراجع و طلب المساعدة سواء خلال المعركة لطلب المدد أو في حالة الحصار. كانت مواقع هذه الأبواب تختار بعناية فائقة بحيث تكون مخفية من خلال بناء جدار أمامها يحول دون كشفها، أو جعل مساحتها صغيرة بحيث يسهل إغلاقها و السيطرة عليها إذا ما دعت الحاجة (المومني 1988: 349).

2. 4. فتحات المدفعية و البنادق:

جاءت موزعة على طول امتداد الأبراج و الأسوار الرابطة فيما بينها خاصة الواجهات المطلة على المدينة و الميناء لدورها الفعال كما سبق ذكره. لم تختلف طريقة بنائها عن سابقتها حيث تكون ضيقة من الخارج وواسعة من الداخل لتوفر الأمن و حرية الحركة للمدافع. أما فتحات البنادق فجاءت مصوبة و مائلة إلى الأسوار.

3. برج مرسى الذبان الجديد:

بالرغم من الاستعمال الذي حول البرج إلى مجموعة من الكتل السكنية و فقدان العديد من معالمه، إلا أن دراسته أمدتنا ببعض العناصر المعمارية التي لم توجد في الأبراج السابقة، و بداية من مدخله.

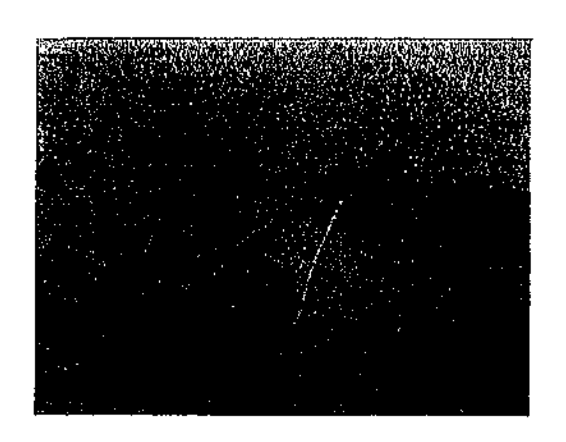
3. 1. المدخل:

إن احتواء البرج على مدخل وحيد ليس بالغريب في العمارة الدفاعية بمدينة الجزائر، لكن طريقة بناءه جعلت منه منفردا بالمقارنة مع الأبراج التي تمت دراستها. فجاء المدخل عبارة عن عقد كبير نصف دائري الشكل يفضي إلى السقيفة دون أثر لأي باب، و هي مسقوفة بعقود متقاطعة ينفتح على جانبيها دكتان يعلوهما عقدان نصف دائريان، يخفف هذا العقد من ضغط و ثقل حركة المدفعية على السطح من الواجهة الجنوبية.

3. 2. العقود المتقاطعة:

تعد ظاهرة تشابك و تقاطع العقود من الخصائص التي ميزت منطقة المغرب الإسلامي، و جاءت هذه العقود ذو قمة مدببة حادة تشبه العقد الرمحي (الشافعي 1982: 203) تقاطعت فيما بينها لتحدث سقفا قويا يتحمل ثقل السطح و الحركة و ثقل المدافع (صورة رقم 89).

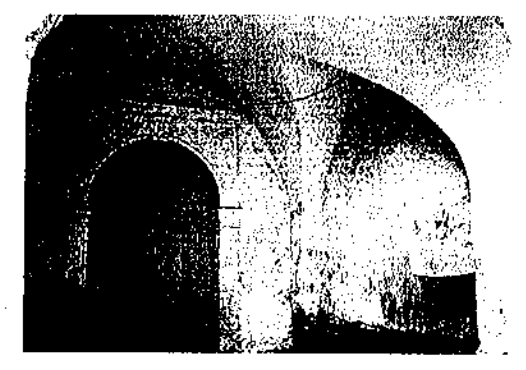


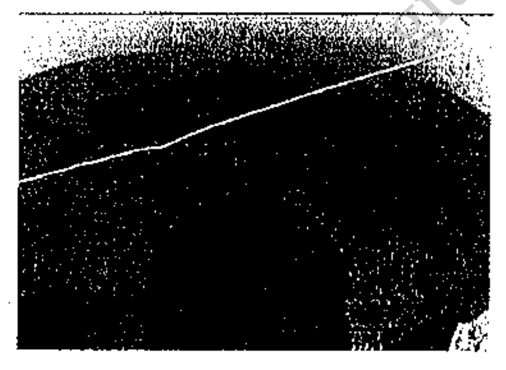


صورة رقم 89 : العقود المتقاطعة بمدخل برج مرسى الذبان الجديد

3. 2. 1. العقد النصف الدائري:

و هو من أكثر العقود استعمالا في الأبراج جاء على مستوى دكتي مدخل البرج وإطار الباب (صورة رقم 90).







صورة رقم 90 : عقود المدخل

3. 2. 2. القبو النصف برميلي:

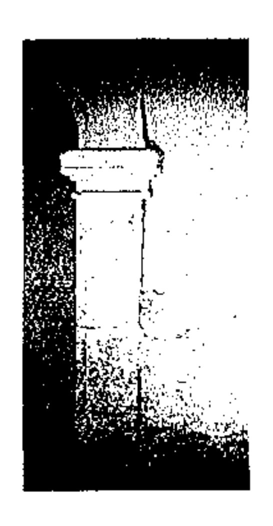
جاء على مستوى مخزن الأسلحة حيث يغطي السقف و يتميز بتحمل ثقل الأجزاء العلوية وهو مبني من الحجارة الكبيرة المصقولة.

3. 3. السقف الخشبي:

جاء يغطي الجزء الآخر من المخزن و قد استعمل الخشب المقطوع بالشكل الأسطواني بكثرة في المباني العثمانية بالجزائر سواء في المدنية منها أو العسكرية. و تتميز هذه الطريقة بتقوية بعض أجزاء المباني خاصة السقوف كما تعد عنصر مقاوم للزلازل لكون المدينة من أكثر المناطق تعرضا لها (انظر الصور السابقة).

3. 4. الأعمدة:

يكتنف المدخل عمودان حجريان مستطيلا الشكل خاليان من الزخرفة يقومان على قاعدة مربعة و يتوجهما تاجان بسيطان يستندان على وسبدات، و للأعمدة دور معماري يتمثل في حمل ثقل الإطار الذي يحيط بالمدخل كما يضفي عليه طابع جمالي (صورة رقم 91).



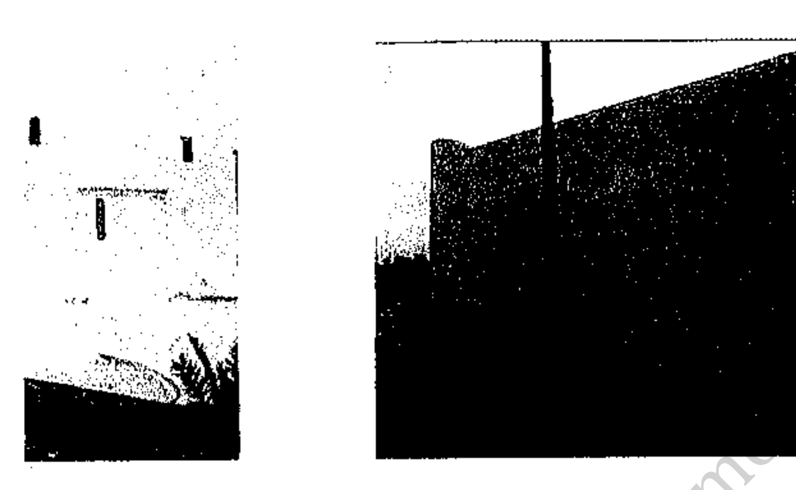


صورة رقم 91 : الأعمدة الحجرية التي تكتنف باب البرج

3. 5. المحراب:

يقع في الواجهة الشرقية من البرج و هو من العناصر القليلة التي لا تزال قائمة في المعالم الدفاعية بمدينة الجزائر، لتحويل السلطات الفرنسية لها إلى عدة استعمالات و محراب هذا البرج

يعد من بين الأربعة المتبقية. يظهر من الخارج أنه مجوف تعلوه نصف قبيبة مخروطية الشكل تقريبا (صورة رقم 92).



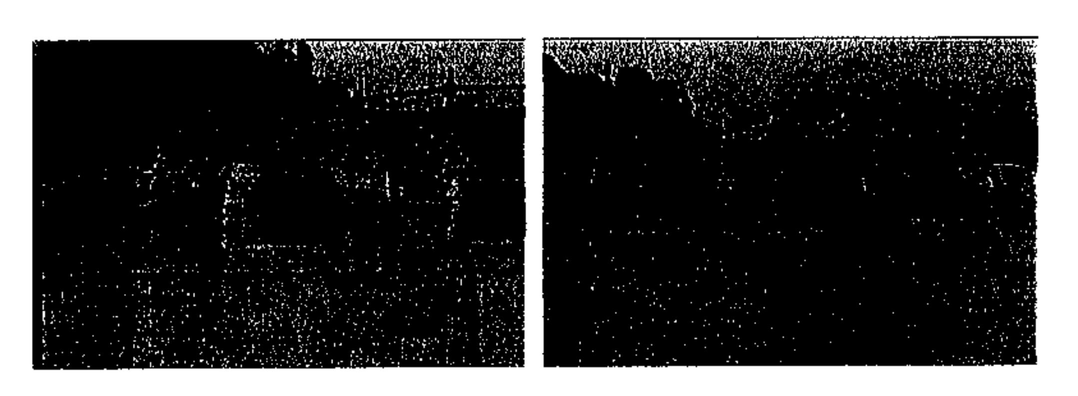
صورة رقم 92: الواجهة الشرقية تضم المحراب

3. 6. فتحات المدفعية:

و هي العنصر المعماري المتكرر في كل برج و القاسم المشترك بينها كونها واسعة من الخارج و تضيق كلما اتجهت إلى الداخل يحتمي بها المدافع و يضرب من خلالها العدو، أغلبها جاءت مطلة على البحر لكون الهجمات تأتي عبره بنيت بتناسق كامل مع البرج و موقعها.

3. 7. فتحات البنادق:

ترافق هذه الفتحات فتحات المدفعية ففي الأغلب تقع بين كل فتحتين و بالإضافة إلى ذلك جاءت في برج مرسى الذباب تغطي الواجهة الجنوبية المطلة على البر و تكون واسعة من الداخل و ضيقة من الخارج ليكون الرامي في مأمن (صورة رقم 93).



صورة رقم 93: فتحات المدفعية تتخللها فتحات الرماية

4. برج الكيفان:

لا يزال يحتفظ هذا البرج بعناصره المعمارية رغم الاستعمالات المختلفة أيضا و منها:

4. 1. المدخل:

يعتبر المدخل الوحيد للبرج يتقدمه خندق و يتم العبور إليه عبر الجسر و يشكل بذلك الخط الدفاعي المتقدم.

4. 2. الجسر المتحرك:

عمل الجسر بحيث يسهل إنزاله أو رفعه تبعا للظروف الأمنية كما جاء ليربط بين المحيط الخارجي و الداخلي للبرج.

4. 3. السقيفة:

و هي أول ما يصادف مقتحم البرج بعد الجسر و المدخل و قد تشكل خطرا عليه، و في حالة برج الكيفان جاء بها ثلاثة منافذ الأول على اليمين من المدخل تؤدي إلى السطح، على اليسار تؤدي إلى غرفة الحرس الذين هم في استعداد دائم تحسبا لأي اقتحام مما قد يباغت العدو، و الثالث يؤدي إلى فناء البرج.

4. 4. السقوف البرميلية:

جاءت سقوف البرج من الغرف و رواق السلم المؤدي إلى السطح كلها مغطاة بسقوف نصف برميلية، مبنية من الحجارة الكبيرة المصقولة، و تتميز هذه الطريقة في التسقيف في تخفيف ثقل السطح على البرج و توزيعه على أطراف القبو كله، خاصة أن السطح ترتكز عليه جل الحركة و ثقل المدفعية (انظر الصور السابقة).

4. 5. العقود النصف دائرية:

يعلو مداخل البرج كلها عقود نصف دائرية مبنية هي الأخرى بالحجارة الكبيرة المنحوتة، و جاءت على مستوى بداية و نهاية الرواق المؤدي إلى السطح، المدخل من السقيفة إلى الفناء و على

مستوى مداخل الغرف المطلة على الفناء. و كم سبق ذكره أعلاه فان العقد النصف الدائري من أكثر العقود انتشارا و استعمالا في العمارة العربية الإسلامية برغم تطور عدة أنواع من العقود.

4. 6. الدعامات:

جاءت كبيرة مستطيلة و مربعة الشكل بنيت لتحمل العقود النصف دائرية التي تعلو مداخل الغرف.

4. 7. الأعمدة:

وجدت الأعمدة عند مدخل البرج حيث جاءت أسطوانية الشكل من الحجارة و هي تحمل عقد نصف دائري مبني من صنج حجرية يرتفع هذا العقد على تاجين بسيطين خاليين من الزخرفة، ثم عمودين آخرين لكنهما مستطيلا الشكل يعلوهما تاجان بعدة وسيدات خاليان من الزخرفة، أما البدن فجاءت به زخرفة بسيطة عبارة عن جدائل حلزونية الشكل تبدأ من أعلى العمود إلى أسفله و هي جهة واحدة فقط يعلوهما إطار الباب الذي يضم زخرفة بسيطة، تقوم هذه الأعمدة على قاعدة مستطيلة الشكل (صورة رقم 94).





صورة رقم 94: أعمدة واجهة المدخل

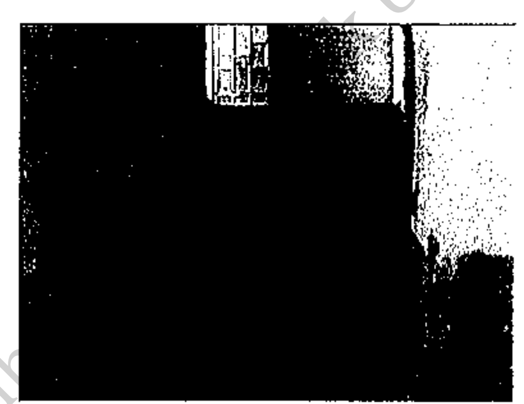
4. 8. الصحن:

روعي عامة في الحصون والأبراج الدفاعية بمدينة الجزائر على احتوائها على فناء تطل عليه مرافق البرج و ذلك من أجل الإنارة و التهوية و توفير الاتصال بين أجزاء البرج. و غالبا يكون الفناء ذو سقف مفتوح كبرج تامنتفوست و برج الكيفان اللذان لا يزال فنائهما بدون تغيير ما عدا

بعض الإضافات، و يرجع السبب في ذلك لتعويض قلة الفتحات و المنافذ إلى الخارج من البرج تفاديا لاستغلال أي منها لاختراق امن البرج.

4. 9. السلم المؤدي إلى السطح:

لم يأت على نمط برج تامنتفوست فقد جاء مائلا مرصوف بالآجر الأحمر خال من الدرجات ما عدا عند بدايته و عند الرواق الثاني الذي يضم عشرة درجات، يسهل هذا النمط عملية تحريك و جر المدافع لنقلها إلى السطح (صورة رقم 95).

صورة رقم 95: شكل السلم الأول و أرضيته المفروشة بالآجر

4. 10. السطح:

كما سبق ذكره فانه النواة الأساسية في أبراج الفترة العثمانية بالجزائر، ذلك أن أحداث المعركة من تبادل القصف و الطلقات يتم عبره و عبر فتحات المدفعية الموزعة على واجهاته خاصة المطلة على جهة البحر، لذلك اهتم المعماري الجزائري بدقة التصميم و حرص على قوتها بغرض الصمود أمام الهجمات المتكررة.

4. 11. الصهاريج و الآبار:

لم يغفل أي برج من هذه العناصر لأهميتها الكبيرة في الاستراتيجيات الحربية على مدى العصور، و قد كان برج الكيفان مزود بصهريج ماء يستمدها من القنوات النازلة من السطح و التي لا تزال فتحاتها واضحة أسفل كل فتحة مدفعية تقريبا. ردم الاستعمار الفرنسي هذا الصهريج بعد تحويلهم البرج إلى مقر إداري للجمارك.

5. العناصر المعمارية المشتركة:

بنيت الأبراج و الحصون لأغراض الحرب و برغم اختلاف تصاميمها و موقعها و دورها بالنسبة للمدينة إلا أنها اشتركت في الهدف من بنائها و في عناصرها المعمارية فتميزت:

- بخاصية أحادية المدخل لأغراض دفاعية.
- توفير خطوط دفاعية متقدمة من خلال الموقع أو حفر خندق كامل أو من جهة واحدة أو يفصل الحصن من الداخل للزيادة في الدفاع و هي صفة رأتها الباحثة في كل من الأبراج الأربعة حيث كان يحيط ببرج تامنتفوست خندق من جميع جوانبه، و يتقدم برج الكيفان خندق من الناحية الجنوبية فقط لحماية المدخل، بينما اعتمد في الجهات الأخرى على انحدار الصخرة التي بني عليها، أما بالنسبة لحصن الإمبراطور فحفر الخندق من الداخل لصد العدو إذا ما تسلل إلى البرجين الأماميين و بذلك تحكم الجزائريون بعبقرية في إدارة الحصن. بينما برج رأس مرسى الذبان الجديد فقد اعتمد على انحدار موقعه و تزويد الجهة الجنوبية بفتحات البنادق و الجهات الأخرى بالمدفعية.
- اشترك برج تامنتفوست و برج الكيفان في الجسر المتحرك لربط المحيط الخارجي بالداخلي، و لرفعه عند الخطر.
- كما اشترك برج تامنتفوست و برج مرسى الذبان بوجود المرقب الذي يساهم في الحراسة و رصد التحركات خارج أسوار البرج و في محيطه.
- اشتركت الأبراج كلها في كونها مبنية خارج أسوار المدينة لتؤدي ما عليها في سد أي ثغرة يمكن أن يتسلل الأعداء منها و عرفت هذه الأبراج باسم الأبراج البرانية بحيث تكون مستقلة تتوفر بها المرافق و منشآت الحياة بداخلها لكن الاتصال دائم مع الأبراج الأخرى في حالة هجوم ما.
- من بين العناصر الأخرى المشتركة فتحات المدفعية و البنادق بحيث تدل هذه الأخيرة على نوعية السلاح الذي كان مستعملا و ما يفرضه من نمط في البناء، أضف إلى هذا مستودعات الذخيرة و الأسلحة و صهاريج المياه و غرف و ملحقات أخرى تحتاجها الحامية العسكرية خلال إقامتها بالأبراج.
- و من العناصر الإنشائية المشتركة العقود بأنواعها و السقوف النصف برميلية و السلالم كعناصر و وسيلة اتصال بين الطوابق و الأعمدة لحمل عقود فناء برج تامنتفوست و عقود مداخل برج الكيفان و برج مرسى الذبان الجديد.

- و من العناصر المشتركة أيضا الدقة و مراعاة طريقة التقسيمات الداخلية للأبراج لتوفير الاتساع و التهوية و الإنارة، خاصة أن هذه الأبراج كانت تضم مدخلا واحدا فقط لذلك عوضت بالفناء الذي تنفتح عليه ملحقات الأبراج.
- أما فيما يخص مواد البناء فقد اشتركت الأبراج الثلاثة في الحجارة الكبيرة المصقولة المجلوبة من المواقع الأثرية القديمة بينما بني حصن الإمبراطور بالآجر، أما الخشب فكان استعماله في الأبواب و العوارض لتدعيم السقوف كبرج تامنتفوست و برج رأس مرسى الذبان الجديد.

و في الأخير أهم ما يسترعي الانتباه في موضوع الدراسة هو ضم هذه الأبراج لأهم العناصر المعمارية تلخصها الباحثة في النقاط التالية:

- حفر خندق حول البرج أو في جهة منه.
- بناء جسر متحرك فوق الخندق.
- حصر مدخل الحصن بين برجين كما هو الحال في حصن الإمبراطور.
- تصميم المدخل بحيث يكون منكسرا أو تتقدمه سقيفة، كما يعلوه مرقب للحراسة لرصد التحركات في الخارج.
- توزيع فتحات المدفعية و البنادق بين جدران الأسوار و الأبراج لضمان السيطرة على محيط القلعة كله.
- استعمال العقود و الأقبية في معظم أجزاء الأبراج لفعاليتها في الأبنية الحربية.

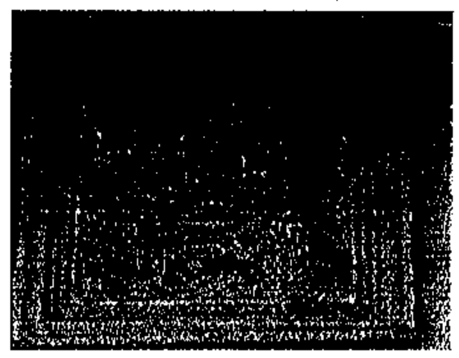
المبحث الثاني: العناصر الزخرفية:

إن العناصر الزخرفية في المعالم الدفاعية تبدو قليلة جدا إذا ما قورنت بالأبنية الأخرى ذلك أن ظروف نشأتها و بنائها غلب عليه الطابع الحربي و عدم الاستقرار. و كان للهجمات الاستعمارية المتواصلة إبان الحكم العثماني بالجزائر سببا في قلتها بحيث لم يهتم البناءون بمجال الزخرفة إلا في بعض الأبراج. و اقتصرت أغلب هذه الزخارف على الكتابات التأرخية التي كان الهدف منها تأسيسي أكثر منه زخرفي و مع ذلك فقد وجدت نماذج من الزخرفة في معالم الميناء الدفاعية حيث تعد الأكثر دقة و جمالا. و الأغلب أن الحكام اهتموا بتحصين الميناء و زخرفته لما كان له من أهمية في تاريخ هذه المرحلة بالنسبة للجزائر سواء لأهميته الاقتصادية و ما كان يعود به من خيرات على الحكام و السكان أو من الناحية الحربية و ما كان يحرزه من انتصارات في المعارك البحرية ضد أعدائهم.

1. الزخارف الكتابية:

اهتم الأتراك في مدينة الجزائر بتخليد منشآتهم الدفاعية و ذلك من خلال ألواح رخامية تثبت على مداخلها كتبت أغلبها باللغة التركية و بعضها باللغة العربية نفذت بطريقة الحفر الغائر و بخط النسخ الشرقي. ساعدت هذه الألواح التأسيسية كثيرا في عملية تأريخ الأبراج و الحصون الدفاعية، كما أمدتنا باسم الحاكم في أغلب الأحيان الذي أمر ببناء البرج، و المرمم أيضا. و أمثلتها كثيرة سبق ذكرها في الفصل الثاني من هذا البحث.

لا تزال بعض هذه الألواح مثبتة في مكانها أما الأبراج و البطاريات التي أزيلت في عهد الاستعمار فيحتفظ بألواحها في المتحف الوطني للآثار بالعاصمة أو بالمتحف البحري بميناء الجزائر (صورة 96)



لوح برج الكيفان

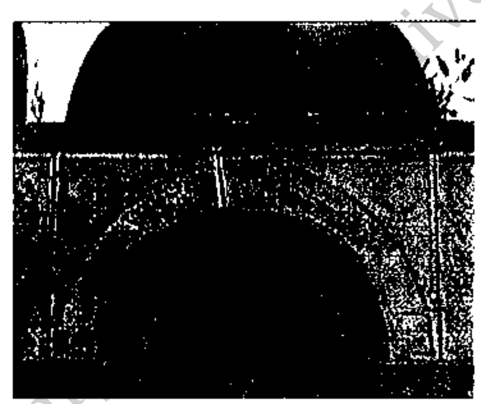
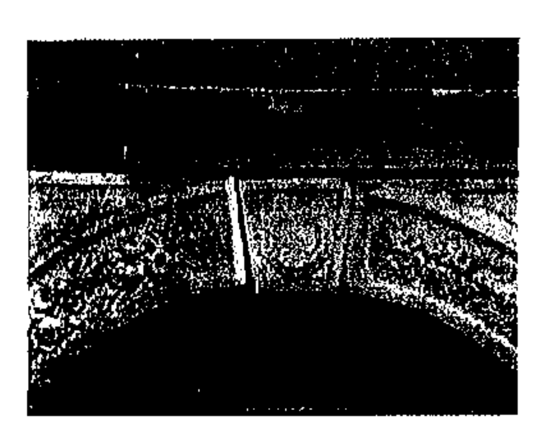


لوح مدخل الجناح الصيفي بقلعة الداي

صورة رقم 96: ألواح تأسيسية

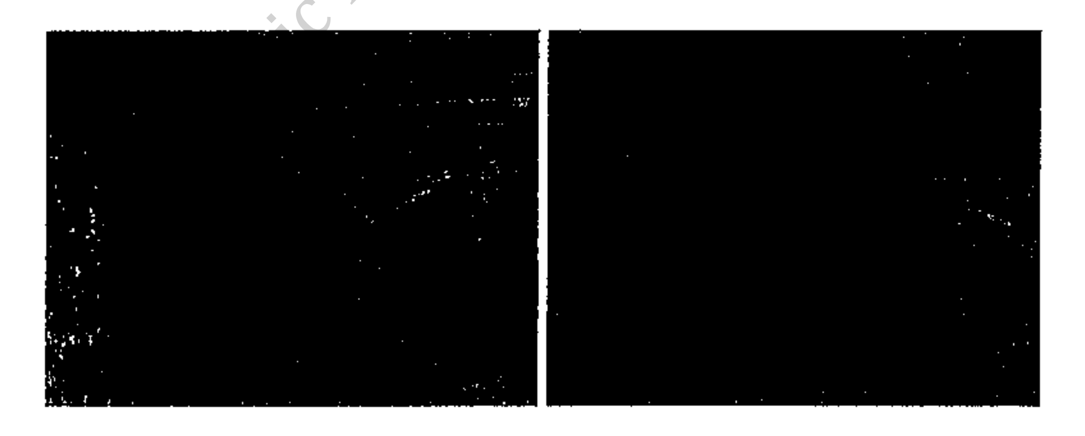
2. الزخارف النباتية:

بالرغم من قلتها في النماذج المختارة للدراسة الأثرية إلا أنها لم تنعدم في بعض المنشآت الموجودة بقلعة الداي مثلا. فوجدت على مستوى العيون المخصصة للماء زخارف غاية في الدقة و الجمال تتخلل الإطار الذي يعلو العمودان الرخاميان زخرفة نباتية تتمثل في زهرات و أغصان ملتوية مكونة موضوعا زخرفيا نفذت بطريقة الحفر البارز (صورة رقم 97).

صورة رقم 97: الزخارف النباتية على إطار حوض الماء

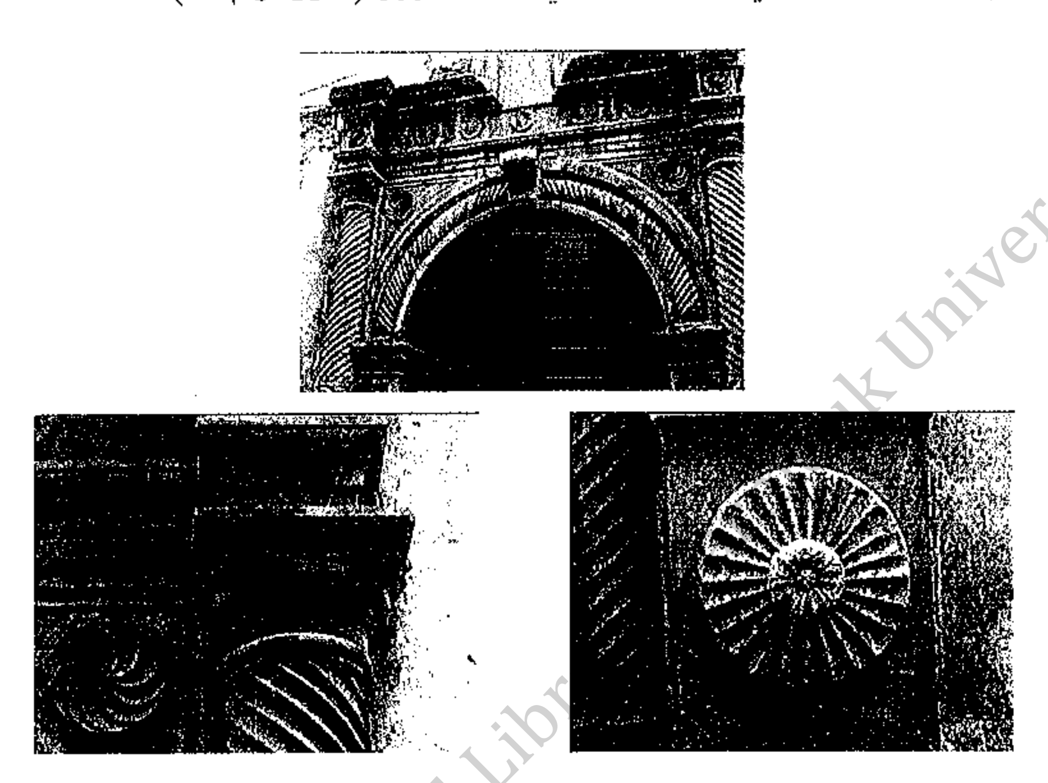
و تتكرر هذه الزخرفة في أحد أبواب الجناح الصيفي للداي و هي منفذة أيضا بطريقة الحفر البارز (صورة رقم 98).



صورة رقم 98: الزخارف النباتية بأحد أبواب الجناح الصيفي بقلعة الداي

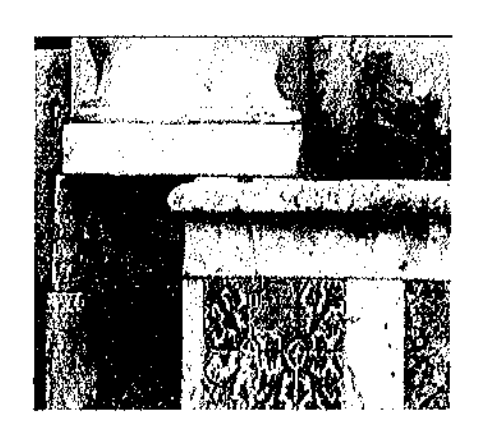
أما المدخل الرئيسي لهذا الجناح فإطاره من الرخام تزينه زخارف نباتية و أشكال حلزونية منفذة بطريقة الحفر البارز و حزوز حلزونية نفذت بدقة متكاملة. تتمثل الأولى في وريدات متعددة

الفصوص داخل دائرة تتخللها خطوط حلزونية الشكل و الكل داخل حلقة، أما الأعمدة الرخامية التي يقوم عليها عقد الباب فهي ذات بدن حلزوني متعدد الحزوز (صورة رقم 99).



صورة رقم **99:** زخارف مدخل الجناح الصيفي

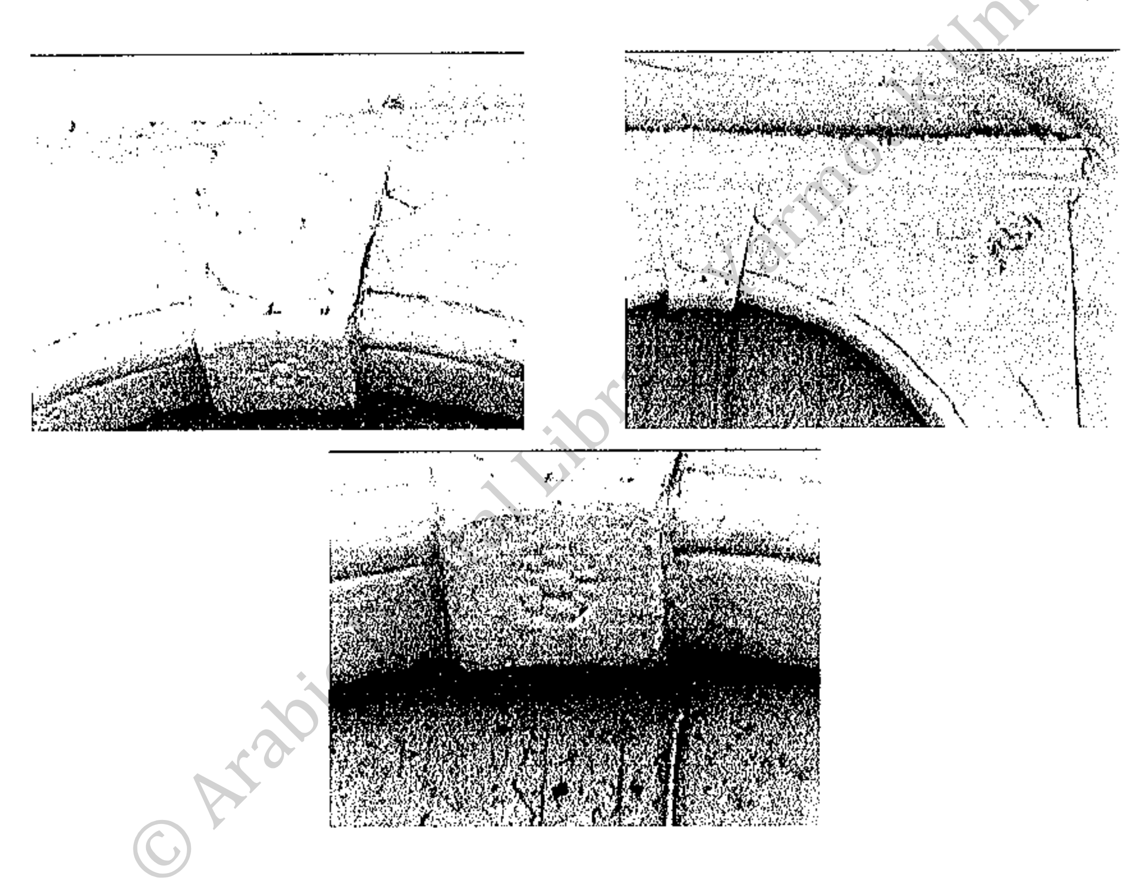
وجدت زخرفة نباتية أيضا على مستوى البلاطات الخزفية التي تغطي واجهة حوض الماء أو بلاطات الزليج، كما يطلق عليه محليا. جاءت هذه الزخرفة عبارة عن أوراق تنحصر داخل المربع الخزفي تكون عند تجميعها موضوعا زخرفيا وهي شائعة في البيوت وأفنيتها و الثكنات العسكرية العثمانية و ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي و الحمامات. تشكل هذه المواضيع في الأغلب مزهريات بها زهور بألوان مختلفة كالأزرق و الأحمر و الأبيض و غيره من الألوان الأخرى (انظر الصورة رقم 82- 83 و100).



صورة رقم **100:** بلاطات الزليج تغطي حوض الماء

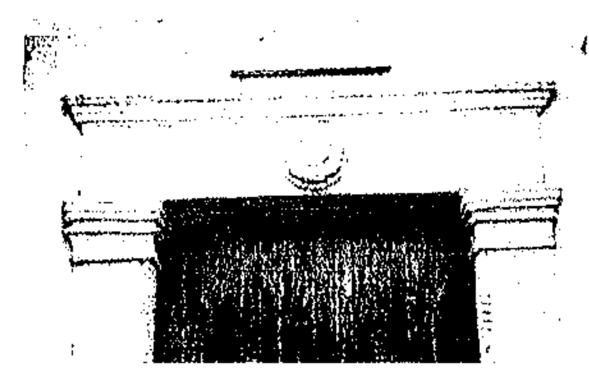
أما الزخارف النباتية التي وجدت في موضوع الدراسة فهي قليلة كما سبق و أشارت الباحثة، و منها ما وجد عند مدخل باب برج مرسى الذبان الجديد و برج الكيفان.

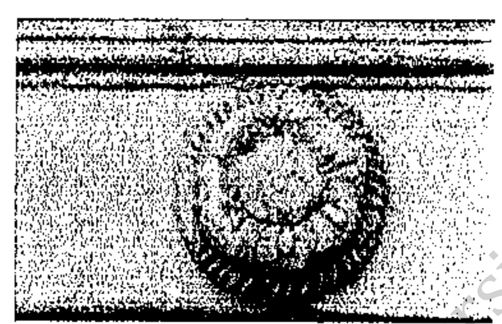
فالأول تتخلل إطار مدخله حيث جاءت عبارة عن زهرات متعددة الفصوص داخل هلال على جانبي إطار الباب و في الوسط زهرة سداسية الفصوص داخل هلال أيضا. أما أسفل مفتاح عقد الباب فجاءت الزهرة بتسعة فصوص نفذت هذه الزخرفة بطريقة الحفر البارز البسيط (صورة رقم 101).



صورة رقم 101: زخارف مدخل برج مرسى الدبان الجديد

و جاءت الوردة التي تعلو إطار باب برج الكيفان مختلفة عن سابقتها بحيث تظهر و كأنها وردة داخل أخرى يحيط بها جديلة حلزونية الشكل تنبثق منها ما يشبه بتلات صغيرة و حسب الظاهر فان هذه الزخرفة نفذت على حدا ثم ألصقت بإطار المدخل و تتميز ببروزها عن الإطار (صورة رقم 102).





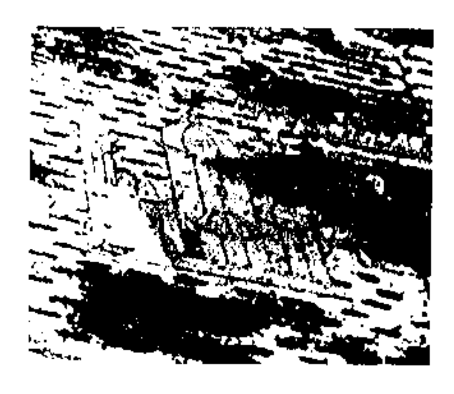
صورة رقم 102: زخرفة مدخل برج الكيفان

3. الزخارف الرمزية:

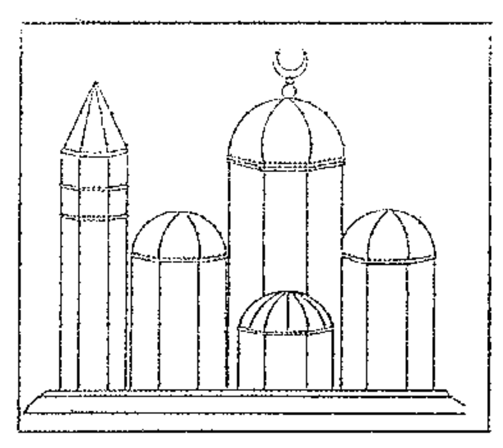
يمثل الهلال رمزا للدولة العثمانية لذلك استخدم بكثرة في زخرفة المنشآت سواء مدنية أو عسكرية. فوجد أولا يتوسط إطار البابين و إطار حوض الماء في قلعة الداي. كما وجد في العقد الذي يعلو إطار مدخل برج مرسى الذبان الجديد بداخله الزخرفة النباتية السابقة الذكر (صورة رقم 101).

4. الزخارف المعمارية:

لم يتم العثور على أي زخرفة من هذا النوع في النماذج التي اختارت الباحثة دراستها لكن وجدت في احد الأجزاء المتبقية من السور الغربي لمدينة الجزائر زخرفة عبارة عن مسجد به مئذنة قلمية الشكل و هو النمط الشائع في العمارة العثمانية، بالإضافة إلى أربعة قباب يعلو أكبرها هلال، يعد استعمال القباب أيضا من مميزات العمارة العثمانية لانتشارها بكثرة في عمائرهم و ربما يوحي الشكل كله إلى أوقات الصلوات الخمس في اليوم و الأغلب أن هذه الزخرفة جاءت مرسومة على السور و هو الظاهر من خلال الصورة المأخوذة من الأرشيف (صورة رقم 103 + شكل رقم 2).



صورة رقم 103: زخرفة السور الغربي لمدينة الجزائر. أرشيف الصور بقلعة الداي

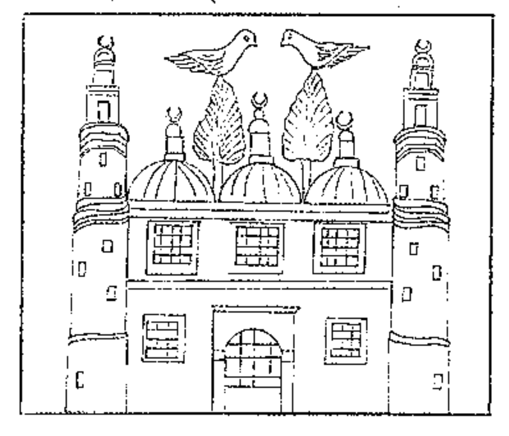


شكل رقم 2: زخرفة السور الغربي لمدينة الجزائر (خلاصي 1991: 137)

وجد شكل آخر يمثل مسجدان في باب برج السردين جاء على لوح من الرخام و هما متشابهان حيث يضم كل منهما مئذنتين و ثلاث قباب تحصر بينها شجرتان من أشجار السرو عليها حمامتان، كل مسجد به طابقين يتخلل الطابق السفلي باب على جانبيه نافذتين، أما الطابق العلوي فتتخلله ثلاث نوافذ جاءت كلها مسيجة نفذت هذه الزخرفة بالنحت على الرخام (صورة 104+ الشكل رقم: 3).



صورة رقم 104: زخرفة برج السردين الحيوانية و المعمارية و النباتية و الكتابية (كلاين 1961: 6)



شكل رقم 3: الزخرفة المعمارية و النباتية و الحيوانية بباب برج السردين بالميناء (خلاصي 1991)

5. الزخارف الحيوانية:

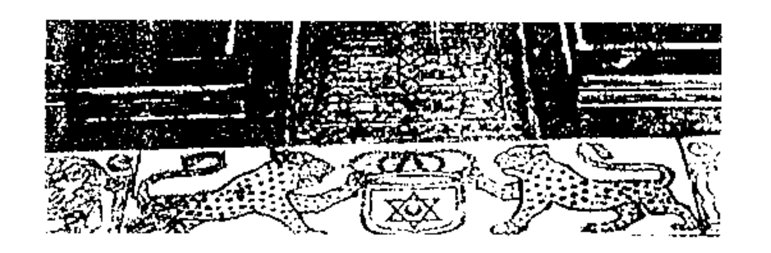
وجدت الحيوانات في زخارف الأبراج و تنوعت بين الأسد و الحمامة و السمك، ففي برج السردين كما سبق ذكره وجدت حمامتان فوق شجرتي السرو (الشكل السابق)، و شكل سمكتين صغيرتن متقابلتين اتخذ البرج اسمه منها، ربما كانت ترمز للنقاء و الصفاء، أما الحمامة فترمز دائما للسلام و الأسد للقوة و العظمة.

بالإضافة إلى الشكل السابق ببرج السردين، وجد مزيج من الزخارف في برج رأس المول من تحصينات الميناء حيث جمع الفنان فيه بين الزخارف النباتية و الحيوانية و الهندسية حيث يزين الإطار الرخامي الذي يحيط ببوابة الأسود زخارف نباتية عبارة عن فروع و أغصان متكررة تتخللها أزهار و جاء عقد المدخل كله مزين بزخارف نباتية و معمارية و أشكال حيوانية و شعار و تاج نفذت هذه الزخارف بطريقة الحفر على الرخام (Bouyahiaoui 1997: 112).

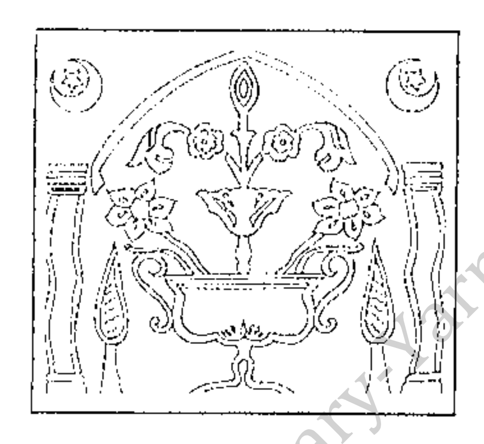
يظهر من خلال الصورة إطار يتوسطه أسدان يرتكزان على ثلاثة قوائم و الرابعة يمسكان بها شعار و تاج الدولة. يتوسط الشعار نجمة سداسية بداخلها هلال و فوق الشعار يوجد التاج. على جانبي الإطار يوجد زخرفتان تمثل مزهرية تتوسط شجرتي السرو يعلوها عقد مدبب و على جانبي العقد عمودان أسطوانيان عليهما تاج أعلى كل واحد منهما يوجد هلال داخله نجمة خماسية (صورة رقم 105- 106- 107 + شكل 4)، ثم يعلو الإطار لوح تأسيسي سبق الإشارة إليه.



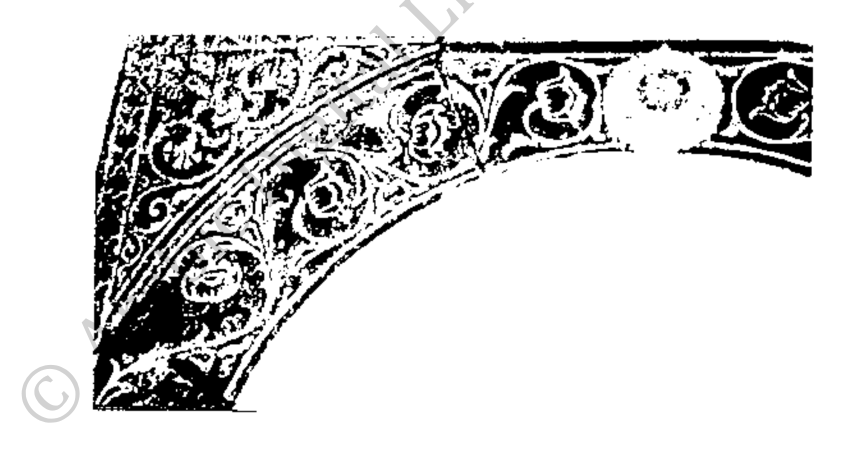
صورة رقم 105: بوابة الأسود ببرج رأس المول (كلاين 1961: 5)



صورة رقم 106: الزخرفة الحيوانية بالبرج (خلاصي 1991)



شكل رقم 4: رسم توضيحي لزخرفة طرفي الإطار



صورة رقم 107: شكل توضيحي للزخارف النباتية بإطار مدخل البرج

يرمز الأسدان إلى القوة و الحكم و العظمة و يتجسد ذلك أكثر في مسكهما شعار الدولة و التاج. أما الهلال فهو أيضا شعار للدولة العثمانية و نجده بكثرة في المنشآت المعمارية بالجزائر بمختلف أنواعها على أطر الأبواب كما هو الحال في إطار مدخل برج مرسى الذبان الجديد. كما تشير المزهرية إلى تعلق الأتراك بالزهور و أيضا شجرة السرو التي اعتبرت من أهم مميزات الفن العثماني و قد فسر هذا التعلق بها بعدة آراء:

- أن الأتراك العثمانيون رأوا فيها ما يذكرهم بمئذنة المسجد التي ينبعث منها صوت المؤذن للصلاة.
- أو أن طولها و رشاقتها و تطلعها إلى السماء ما يربط بينها و بين صعود الروح إلى بارئها.
- أو لعلهم وجدوا في خضرة أوراقها التي لا تتغير على طول السنة ما يربط بينها و بين اللون الأخضر المفضل عند المسلمين.
- أو وجد العثمانيون في الرائحة الطيبة لشجر السرو ما يحببها إلى النفوس (مرزوق 1980: 210-211)، من أجل كل هذه الآراء وجدت هذه الزخرفة بكثرة في العمائر العثمانية.

إن موضوع العناصر الزخرفية في المباني الدفاعية موضوع بحث قائم بحد ذاته يحتاج إلى تفرغ تام للتدقيق في النظرة الفنية التي كان يمتاز بها البناء آنذاك، و أهمية كل عنصر و دلالاته. و قد اعتمدت الباحثة على ما توفر لديها في النماذج المختارة للدراسة و التي تميزت بالبساطة في برج الكيفان و مرسى الذبان الجديد بينما لم يتم العثور على أي زخرفة نباتية أو كتابية أو رمزية في برج تامنتفوست و حصن الإمبراطور.

خاتمة و توصيات

الخاتمة

يتضح من خلال هذه الدراسة مدى أهمية التحصينات الدفاعية في مدينة الجزائر إبان الحكم العثماني، و كيف تعايش أهاليها مع الأوضاع الصعبة التي مرت بها. انعكست تلك الأوضاع إيجابا على المباني الدفاعية فأبدع الجزائريون في طريقة البناء و تبنوا نظاما خاصا بالمدينة توافق مع طبيعة المدينة و تضاريسها الجغرافية كما تصدوا لأكثر الهجمات شراسة آنذاك و القادمة من البحر، فاصطفت أجمل الحصون و الأبراج على خليج المدينة و زودت بأقوى المدافع حتى ارتعبت لها فرائض العصبية الصليبية بأوربا و راحت تسعى وراء الاتفاقيات و المعاهدات تارة و تهاجم المدينة تارة أخرى.

كانت هذه الهجمات تكلل بسد الثغرات الدفاعية التي استغلها العدو و كان الحكام قد أغفلوها من قبل، لذلك نلاحظ أن المباني الدفاعية بنيت على مراحل عدة و دعمت و أعيد بنائها على مراحل أيضا. و الأمر كذلك بالنسبة لموضوع الدراسة، حيث بنيت هذه الأبراج على مراحل بعدما ظهرت نقاط الضعف بالمدينة.

كان للأوضاع الاقتصادية انعكاس على البناء، فمعالم الميناء الذي لطالما دخلت منه الخيرات للمدينة تميزت بالجمال و القوة و المنعة و قد ركز الحكام على هذه الجهة من المدينة كثيرا السبب الذي جعل العدو يستغفل المدينة في مرات عدة و يهاجمها من نقاط الضعف.

يتأثر الفن المعماري بظروف و أحوال المدينة، فإذا ما كانت الحرب حل الخراب و تراجعت المباني و زخارفها و العناصر المعمارية بها كما تتراجع كل مجالات الحياة. أما في حالات السلم فتزدهر المدن بكل مجالاتها ويعم الاستقرار فيزدهر العمران و تنعكس فيه روح الإبداع من خلال عناصره المعمارية و الزخرفية و تقنيات البناء.

لقد عانت المدينة الويلات جراء الحملات المنظمة بمباركة البابا لطمع كل الدول الأوربية في خيراتها. و زاد الطين بلة عندما كان يرافق الحروب، الزلازل و الأمراض مما أدى إلى تدهور عمران المدينة في فترات عدة. و باحتلال الجزائر دمرت فرنسا العديد من المنشآت و حولت بعضها إلى غير أصلها، حيث كانت تطمح لمحو أهم المراحل التاريخية بالجزائر، فلم تسلم المساجد و حولت إلى كنائس و أزالت البعض الآخر بحجة توسيع شبكة الطرقات و توسيع المدينة، كما أزالت الكثير من المعالم الدفاعية و حولت أخرى إلى ثكنات عسكرية أو سجون.

و مع كل هذه الظروف اتضحت قدرة البناء الجزائري على ابتكار العناصر الدفاعية وفق الحاجة إليها و تحكم في موقعها. و قد أدرك أن طريقة البناء اختلفت مع ابتكار المدفع فقلل من ارتفاع الأسوار و الأبراج حتى لا تكون عرضة للمدفعية الأكيدة. كما تحكم في تصميم فتحات المدفعية بحيث يكون في مأمن من ضربات العدو و فتحات البنادق حيث كانت توجه حسب وظيفتها، فكانت مائلة للتصويب على العدو إذا ما دنا من الأسوار و الخندق و الباب.

كما أنه لم يغفل عن تقليص عدد المنافذ إلى الخارج لأنها غالبا ما تكون سبب سقوط الحصون و الأبراج و القلاع أيام الحصار، و اختصر الأمر على مدخل وحيد مدعم بعناصر دفاعية: كالمرقب و الجسر المتحرك و المدخل المنكسر و الباب المدعم ببرجين دفاعيين. ثم عوض ذلك بإنشاء مجال فسيح داخل البرج تمكن الحامية من الحركة بحرية و توفر الإنارة و التهوية الجيدة بالإضافة إلى مرافق حيوية أخرى تحيط بالصحن كما خصص أماكن للعبادة و زود الأبراج بالصهاريج و الآبار تحسبا لأيام الحصار.

أضف إلى هذا استخدم العناصر المعمارية التي كانت تساهم في مقاومة الضغط و الثقل على الأبراج كالتسقيف بالأقبية و العقود، و ابتكار تقنية فرش السطح بطبقة من الآجر على طبقة 10 سم من الرمل و كانت هذه الطريقة تخفف من قوة القذيفة عند سقوطها لتحدث أقل الأضرار في البرج. و دعم الأبنية خاصة السقوف بالعوارض الخشبية التي تعطي المرونة و القوة للبناء كما تقاوم الزلازل.

تحكم البناء أيضا في مادة البناء فكانت الحجارة هي الأساس حيث نحت منها أشكالا عدة وفق حاجته إليها و تراوحت بين الشكل المربع و المستطيل و الأسطواني، و نحت منها أشكالا زخرفية.

أما الآجر فتعامل به بمهارة كبيرة حيث بنى به أضخم الحصون و الأسوار لمقاومته الشديدة لضربات المدفعية، و استخدم لبناء السلالم و الأقواس و فرشت به الأرضيات.

لكن و في الأخير يجب الإشارة إلى مجموعة العوامل التي تساهم في تدهور أوضاع هذه المباني الدفاعية اليوم و التي يجب التدخل لإيقافها و حفظ ما تبقى منها.

- نمو النباتات الطفيلية على سطح الحجر المنحوت و الآجر مما يسبب تشققات و تصدعات في المبنى قد تؤدي بمرور الوقت إلى انهياره.

- الامتصاص عن طريق الخاصة الشعرية، و يشمل هذا العامل في الغالب جزءا من الحجر المنحوت، يتم بواسطة الشقوق الشعرية الرفيعة التي توجد على سطح الحجر و داخله، فتمتص المحاليل و السوائل و المياه الجوفية التي ترتفع إليها من الأرض المشبعة بالأملاح.
- تعد هذه الحجارة مسامية بطبيعتها و بذلك هي عرضة لتسرب الأملاح داخلها أثناء حالتها الصخرية أو بعد قطعها من الجبل و بناءها. و أثناء خروج الأملاح منها بسبب الجفاف و ارتفاع الحرارة عند سطوحها، على شكل تزهرات متبلورة أو بلورات دقيقة فإنها تعمل على تفتيت و تهرئة سطوحها و تدمير تماسك حبيباتها (حسن إبراهيم 1979: 175-176).

التوصيات

انطلاقا لما ذكر أعلاه و العوامل التدميرية التي تتعرض لها المباني الدفاعية يجب التدخل لإيقافها و يكون ذلك:

- باتخاذ إجراءات سريعة لتوقيف زحف النباتات الطفيلية على واجهات المباني التي تحدث تشققات و تصدعات تؤول مع مرور الوقت إلى الانهيار.
- معالجة المشاكل التي سببها الترميم الخاطئ بالاسمنت و إزالة الأملاح الظاهرة على الواجهات و الجدران من الداخل التي أحدثت ما يعرف (Salts efflorescence) و هذه الظاهرة لا تقل خطورة عن الأولى بحيث تحدث أيضا تشققات داخل مادة البناء أساسا مما يؤدي إلى صعوبة في الترميم بعدها هذا إن لم يفت الأوان.
- اتخاذ الإجراءات اللازمة لترحيل العائلات القاطنة ببرج مرسى الذبان الجديد وإعادة ترميمه وفق المعايير اللازمة و إعادة الاعتبار له و تصنيفه و فتحه للزوار للتعرف على أهم الحقب التي عرفتها المدينة. الأمر كذلك بالنسبة لحصن الإمبراطور، حيث تعرض لزيادات كثيرة و تتعرض بعض أجزائه الخارجية للانهيار بسبب المشاكل المذكورة أعلاه.
- مراقبة عمليات الترميم و عدم السماح بها إلا وفق دراسة علمية دقيقة مع محاولة استعمال مواد البناء الأصلية بما أنها موجودة و متوفرة.
- تأهيل هذه المواقع سياحيا و التعريف و الاهتمام بجميعها دون استثناءات.

المراجع بالعربية

القرآن الكريم.

الإدريسي، الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد.

1864 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبعة ليدن.

باقر، طه.

1955 مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج 2، بغداد.

البستاني، بطرس.

1977 محيط المحيط ، قاموس مطول للغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت.

البكري، أبو عبيد الله.

1857 المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، جزء من كتاب المسالك و الممالك، طبعة دي سلان، باريس.

بوعزيز، يحي.

1993 المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد(1780-1798م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

جوليان، شارل أندري.

1978 تاريخ إفريقيا الشمالية، من الفتح الإسلامي إلي سنة 1830، تعريب: محمد ميزالي و البشير بن سلامة، الجزائر.

الجيلالي، عبد الرحمن.

1970 مدينة الجزائر عبر التاريخ ، في، تاريخ المدن الثلاث، الجزائر، المدية، مليانة، إعداد و دراسة و تمهيد: عبد الرحمن الجيلالي، دراسات و أبحاث، الجزائر.

1994 تاريخ الجزائر العام، ج 1-2-3، الطبعة السابعة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

حسن، إبراهيم عبد القادر.

1979 وسائل و أساليب ترميم و صيانة الآثار و مقتنيات المتاحف الفنية، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.

حليمي، عبد القادر.

1972 مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830م، الطبعة الأولى، المطبعة العربية لدار الفكر الإسلامي، الجزائر.

خلاصي، علي.

1991 العمارة العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر، سلسلة الفرسان الجزائريون، المتحف المركزي للجيش.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

2003 مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجو يدي، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، بيروت.

———

2003 تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، المجلد السادس، الطبعة الثانية، بيروت.

خوجة، حمدان بن عثمان علي

1972 المرآة، باريس، 1833، حققه و ترجمه: الزبيري، محمد العربي. الجزائر.

الرازي، محمد بن أبي بكر.

1981 مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد.

(ب. ت) كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك.

زكي، محمد حسن.

(ب. ت) فنون الإسلام، دار الفكر العربي، الكويت.

سبنسر، وليم.

1980 الجزائر في عهد رياس البحر، و. م. أ، 1976م، تعريب و تقديم: زبادية، عبد القادر. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

الشافعي، فريد.

1970 العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر.

____

1982 العمارة العربية الإسلامية ماضيها و حاضرها و مستقبلها، شركة الطباعة العربية السعودية، الطبعة الأولى، الرياض.

الشمري ، إبراهيم سرحان.

1996 البرج في العمارة العربية الإسلامية في العراق حتى نهاية العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، بغداد، العراق.

صدقي، محمد كمال.

1988 معجم المصطلحات الأثرية، جامعة الملك سعود، الرياض.

عثمان، محمد عبد الستار.

1999 المدينة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، الكويت.

العزاوي، عبد الستار جبار موسى.

1985 مزايا العقد و القبو في العمارة العربية في العراق، مؤتمر الآثار في البلاد العربية، صنعاء، شباط 1980، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس.

كورين، شوفا ليي.

1991 الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، ترجمة: حمادنة، جمال. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم.

(ب.ت) لسان العرب، المجلد 2 و 13، دار صادر، بيروت.

مارمول، كار بخال.

1989 "أفريقيا" الجزء2، ترجمة: أحمد توفيق و آخرون، دار نشر المعرفة للنشر و التوزيع، الرباط.

المدني، أحمد توفيق.

1984 حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و اسبانيا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

مرزوق، محمد عبد العزيز.

1980 قصة الفن الإسلامي، الطبعة الأولى ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة.

مصطفى، شاكر.

1988 المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، الجزء الأول، الكويت.

____

1993 موسوعة دول العالم الإسلامي و رجالها، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين.

المومني، سعد محمد.

1988 القلاع الإسلامية في الأردن الفترة الأيوبية المملوكية، الطبعة الأولى، دار البشير، الأردن.

النصيبي، أبي القاسم بن حوقل.

(ب.ت) كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

هاينريش، فون مالتسان.

1976 ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

يفر

(ب.ت) " الجزائر" في، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد السادس، تعريب أحمد الشنتاوي و إبراهيم زكي خور شيد، وزارة المعارف.

المؤسسة الوطنية للنشر و الإشهار.

1998 الصناعات التقليدية الجزائرية، الجزائر.

المراجع بالأجنبية

Azzouz, N.

2000 Bologhine ou la seconde naissance de la ville, Alger 1000 ans de lumière, Alger.

Belhamissi, M.

1990 Alger La ville aux mille canons, Entreprise Nationale du Livre, Alger.

Benaudot, M.

1830 Alger Tableau du Royaume de la ville D'Alger, 4eme édition, Paris.

Bérard, V.

1887 Indicateur Général de L'Algérie, Description Géographique, Historique et Statistique dans les Trois Provinces, 3[eme] édition, Bastide Libraire éditeur, Alger.

Berbrugger, A.

1843 Alger historique, pittoresque et monumentale, T 1, Paris.

____

1845 De La Nécessité De Coloniser Le Cap Matifou, édition Mouldes et Renom, Paris.

____

1845 Icosium, Notice Sur les Antiquités Romaines D'Alger, L'imprimerie De A.Bouget, Alger.

——————

1854 Geronimo le martyr du fort des Vingt Quatre-heures a Alger, 2 éme édition, Bastide, Libraire-éditeur, Alger.

——————

1860. Le Pégnon D'Alger ou les origines du gouvernement Turc en Algérie, Libraire- éditeur, Paris.

Boutin, U. Y.

1808 Plans et cartes, dépôt général de la guerre, Paris.

——————

1927 Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris.

Bouyahiaoui-Ihaddadene, N.

1997 Le Port D'Alger en 1830 : essai de reconstitution, thèse de magister, E.P.A.U.

Chabaud- Arnault.

1875 Attaque des Batteries Algériennes par Lord Exmouth en 1816, in R.A, Alger.

Charles, A. J

1830 Histoire De L'Algérie Contemporaine, La Conquête Et Les Débuts De La Colonisation (1827-1871), Presse Universitaires de France, Paris.

Colin, G.

1901 Corpus des inscriptions arabes et turques de l'Algérie, département d'Alger, Paris.

Dan, P.

1649 Histoire de la Barbarie et de ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Sale et de Tripoli, 2 eme édition, Paris.

De Grammont, H. D

2002 Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515-1830, édition Bouchène.

De Haedo, D.

1880 Histoire des Rois D'Alger, in Revue Africaine No.24, Office Des Publications Universitaires, Alger.

____

1998 Topographie et Histoire Générale D'Alger, traduction : Dr. Monnereau et Berbrugger. A, édition Bouchène.

Delphin, G.

1904 Fort Bâb Azoun, in Revue Africaine No.48, Office Des Publications Universitaires, Alger.

De Rotalier, Ch.

1841 Histoire d'Alger et de la piraterie des turcs dans la Mèditerrannèe, Tome 1, Chez Paulin, Libraire- Editeur, Paris.

Despois, J.

1964 L'Afrique Blanche, L'Afrique du nord, Tome 1, Presse Universitaire De France, 3eme édition, Paris.

Devoulx, A.

1875 Alger étude archéologique et topographique aux époques romaines, arabe et turque, in R.A, O.P.U, Alger.

———————

2003 El Djazair Histoire d'une Cite d'Icosium à Alger, Edition critique présentée par : Bedredine Belkadi & Mustapha Benhamouche, ENAG Editions, Alger.

Doty, R. G.

1982 The Macmillan Encyclopedic Dictionary of Numismatics, Macmillan publishing Co., Inc, U.S.A

Elissée, R.

1886 La terre et les Hommes, nouvelle géographie universelle, Tome 11, Librairie Hachette, Paris.

Emerit, M.

1954 Le voyage De La Condamine à Alger en 1731, in R.A, Alger.

Esquer, G.

1929 Iconographie historique de l'Algérie depuis le 16 ème siècle jusqu'au 1871, tome 1, Librairie Plan, Paris.

Esterhazy, M. W.

1840 De la domination Turque dans l'ancienne Régence d'Alger, Librairie de Charles Gosselin, Paris.

Federico, C.

1996 Alger au 17 eme Siecle, centro Analisi Sociale Progetti, Roma.

Froidevaux, Y.M.

1985 Technique de l'architecture ancienne, Paris.

Gaid, M.

1991 L'Algérie sous les Turcs, 2eme édition, éditions Mimouni, Alger.

Gautier, M. P.

1959-1960 Alger vu par les médailles, in Feuillets d'El-Djezair, No : 1-2, Alger.

Girouin, F.

1953-1954 La Régence D'Alger et le Monde Turc, Atlas Historique, Syndicat national des instituteurs, No. 4, Alger.

Gramaye, Jean-Baptiste.

1998 Alger 16 éme -17 éme siècle, investigué par : Abd El Hadi Ben Mansour, Les éditions Du CERF, Paris.

Gsell, S.

1911 Atlas Archéologique de l'Algérie, feuille No.5 "Alger", Alger.

Guery, R.

1965 Tamedfoust- Antique, Panorama sur sept années de recherches, 1959-1965, extrait des archives des beaux arts.

J.M.H.B.

1830 Itinéraire Du Royaume d'Alger, L.Laurent, Libraire-éditeur, Toulon.

Kaddache, M.

1951 La casbah de nos jours, in document Algériens, no : 55, Alger.

Klein, H.

1910 Feuillets D'El Djazair, Paris.

____

1937 Le Cap Matifou, in Feuillets D'El Djazair, L. Chaix Éditeur, Alger.

____

1912 Les Murs d'El-Djezair, in Feuillets D'El Djazair, Vol 3- 4, Alger.

Layes, Y.

1951 Le Port D'Alger, Imprimerie L.Rives, Alger.

Le Glay, M.

1968 Alger origine, à la recherche de Icosium, Tome 2, Paris.

Lespes, R.

1930 Alger étude de géographie et d'histoire urbaine, collection du centenaire de l'Algérie, Paris.

Maitrot, Cpt.

1916 La Fortification nord-africaine, vol 1, Ernest Leroux, Editeur, Paris.

Mascarenhas, J.

1993 Esclave A Alger, traduit : Paul Teyssier, Editions Chandeigne-Librairie Portugaise.

Meunier, R.

1961 La Darse Des Turcs D'El Djazair, In Feuillets D'El Djazair, No.3.

Meyzie, V.

2004 Tunis et Alger dans les récits de voyages Français des 17 eme et 18eme Siècles, IRMC, in http://www.irmcmaghreb.org

Michaud, D.

2006 Considérations Militaires et Politiques sur les Fortifications, Imprimerie de la république, Paris.

Misermont, L.

1905 Le Double bombardement D'Alger Par Duquesne, et la mort du consul Le Vacher, Alphonse Picard et Fils, Éditeurs, Paris.

Missoum, S.

2003 Alger à l'époque ottomane, la médina et la maison traditionnelle, INAS, Alger.

Renaudot, M.

1830 Alger, Tableau du royaume, de La Ville D'Alger et de ses environs, 4eme éditions, Librairie Universelle de P. Mongie Aine, Paris.

Rousseau, A.

1841 Chroniques de la Régence D'Alger, traduites d'un manuscrit Arabe : El-Zohrat- El-Nayerat, Imprimerie du Gouvernement, Alger.

Rozet, M.

1833 Voyage dans la régence d'Alger ou description du pays occupe par l'armée Française en Afrique, Tome 3, Paris.

Ruff, Paul.

1998. La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudete 1534-1558, éditions Bouchene.

Sacerdoti, A.

1951 Les fortifications D'Alger en 1767 décrites par l'Amiral Vénitien Angelo Emo, in R.A, O.P.U, Alger.

Shaler, W.

1830 Esquisse de l'Etat D'Alger, Paris.

Shaw, M. D.

1763 Voyages de Shaw dans plusieurs provinces de la Barbarie et Du Levant, Tome premier, Chez Jean Neaulme.

____

1980 Voyage Dans La Régence D'Alger, traduit de l'anglais par : J.Mac, Carthy, éditions Bouslama, Tunis.

Venture, De Paradis.

1891 L'Expédition Espagnole De 1541 Contre Alger, in R.A, n 35, O.P.U, Alger.

____

1896, 1898 Alger au 18eme Siècle, édité par : E.Fagnan, Typographie Adolphe Jourdan, Alger.

2006 www.vieilalger.free.fr\vieilalger\icono.htm.

2006 www.Googleearth.com

2006 www.vobam.se\algeriet.htm